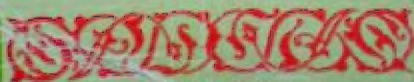




جَوَانِبُ مُضَيِّئَةٍ
فِي
تَارِيخِ الْعُثْمَانِيِّينَ الْأَتْرَاكِ
زِيَادُ الْبُغْهِيَّةِ





جوانب مقبلة في تاريخ
العثمانيين الأتراك

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الرقم المتسلسل (٧٢)

سنة
الطبع -

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

عمان - تلخون ٢٧٧٧١ - ص.ب ٨٥٧

نحو صياغة آمنة لتاريخنا الاسلامي



جوانب مضيئة في تاريخ

العثمانيين الأتراك

مكتبة مدرسة سيف العربي الثانوية بـكلية

الرقم الخامس : ٩٥٦,١

تأليف : ١٩٠٠

زياد أبو غنيمة

تاريخ النشر

٢٠٠٤

٢٠٠٤

دار القرآن للنشر والتوزيع

جبل الحسني - حي الميناء - الجزائر

تلفون (٩٣٧-٦٦٠) - ص.ب (٦٦١٥٢١)

مقدمة الكتاب

باسم الله خير الأسماء ، في الأرض وفي السماء ..
وأصلي وأسلم على قدوتنا ، وزعيمنا ، محمد خاتم
الأنبياء ..

وأحمد الله عز وجل حمداً كثيراً ، واستعنيته ،
واستهديه ، وآتوكل عليه ، وأسأله عز وجل أن يجعل
هذا الجهد المتواضع خالصاً في سبيله .

وبعد ...

فقد كان هذا الدين ، منذ أن شاءت إرادة الله عز
وجل ببزوغ فجره ، وما برح ، هدفاً لحقد الحاقدين ،
ومكر الماكرين ، وكيد الكائدين ، وما فتئت سهام أعداء
الله ، على اختلاف مللهم ، وشعاراتهم ، تستهدف هذا
الدين ، قرآناً ونبوة ، وتاريخاً .

« ان ينفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم
أيديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، »

سورة الممتحنة ٢

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم
ان استطاعوا ... » من آية ٢١٧ البقرة .

ولعلنا جميعاً نتفق على أن أسلحة الافتراء ،
والتشويه ، والبهتان ، والدس ، وإشاعة الباطل ،
ضد هذا الإسلام العظيم ، كانت ، وما برحت ، من
أخبث الأسلحة التي يشهرها أعداء الله ضد الإسلام ،
قرآناً ، ونبوة وتاريخاً .

ولقد وجهوا سهام حقدهم ، أول الأمر ، إلى قرآنا
الكريم ، فطفقوا ، قاتلهم الله ، يحاولون بكل ما جُبلوا
عليه من خبث ومكر ، التشكيك بالقرآن الكريم .

« وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه
لعلكم تغلبون » فصلت آية ٢٦ .

« وإنّ منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه
من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله
وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم
يعلمون » آل عمران : آية ٧٨ .

ولكن سهام أهل الكفر التي استهدفت كتاب الله
عز وجل تكسرت أمام رعاية الله عز وجل . .

« وإنّ كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك
لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً * ولولا أنّ

ببنتناك لقد كنت تركزن اليهم شيئاً قليلاً » . الاسراء :
٧٣ - ٧٤ .

ولما أدرك أعداء الاسلام استحالة نجاح محاولاتهم
للافتراء على القرآن الكريم ، عمدوا الى سنة نبينا عليه
أفضل الصلاة والسلام ، فطفقوا يدسّون عليها افتراءاتهم
بما اصطلاح على تسميته «بالاسرائيليات» ، ولكن الله
عز وجل عيا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نفراً من
العلماء المسلمين المخلصين الذين كشفوا زيف تلك
الاسرائيليات وطهروا السنة النبوية المشرفة منها .

أما المجال الذي نجحوا فيه نجاحاً كبيراً في الافتراء
والدس والتشويه فقد كان تاريخ هذه الأمة الاسلامية ،
لدرجة أننا لا نكاد نجد حقبة تاريخية واحدة من تاريخ
الأمة الاسلامية ومهما قصرت فترتها الزمنية قد سلّمت
من سهام الافتراء والتشويه والدس ، بما في ذلك الحقبة
التي شرفها رسولنا صلى الله عليه وسلم بقيادته ، وما
حديث الافك عنا ببعيد .

ويزداد الالم في النفوس المؤمنة أن هذه الهجمة
الشرسية من الافتراء والتشويه ضد تاريخ أمتنا الاسلامية

لا تقابلها حجة مضادة بنفس المستوى ، تنب عن
تاريخ أمتنا تلك الافتراءات ، وتبرئته من تلك الاباطيل
والاكاذيب .

ولقد تعرض تاريخنا الاسلامي ، عبر مراحل
المتعاقبة ، الى حملات تشويه متعمدة ، تولت كبرها
الأحقاد المعادية للإسلام ، صليبيّة ، وصهيونية ، وما
تفرع عنها من مؤسسات تبشيرية ، وماسونية ،
واستشراقية ..

ولعلي لا أكون مبالغاً ، اذا زعمت أن الحقبة التي
شغلها العثمانيون الأتراك في سفر تاريخنا الاسلامي ،
كانت عرضة لأكثر حملات التشويه ، شراسة ، وخبثاً .
ولكأنني بالكثير من القراء ، يتساءلون !!

لماذا استأثر العثمانيون الأتراك بأشد حملات
التشويه شراسة ، وخبثاً .. ؟

وأسارع فأجيب على هذا التساؤل .

انه الحققد .

الحققد على الاسلام أولاً ، والحققد على الأتراك ثانياً ،
والحققد على العثمانيين ثالثاً ..

أقول هذا ، وبين يدي الدليل .

انه شهادة شاهد من أهلها ، والفضل ، كما قيل ،
ما شهدت به الأعداء .

فلقد عبر عن هذا الحق . أبلغ تعبير ، وأصدق ،
المستشرق الألماني فولدكه ، في مقال نشره في مجلة
« الاسلام » (Der Islam) الألمانية في عام ١٩٢٤ ،
وأورده المستشرق الروسي بارتولد في كتابه « تاريخ
الترك في آسيا الوسطى » .

يقول فولدكه :

« ان دخول الترك في العالم الاسلامي المتحضر بعد
سقوط دولة السامانيين الايرانية ، كان نكبة هائلة في
تاريخ العالم كله » .

وقبل أن يدخل الأتراك العثمانيون في الاسلام ،
لم يكونوا موضع اعتمام جاد من المؤرخين المسلمين وغير
المسلمين ، فلم يرد ذكرهم الا من خلال اشارات عابرة .

وحين دخل الأتراك العثمانيون في الاسلام ، انقلبت
الصورة ، وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير

المسلمين . بيّده أن المؤرخين من غير المسلمين أبدوا
اهتماماً ملحوظاً بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين
المسلمين .

ولأول وهلة يخيل للمرء أن اندفاع المؤرخين من
غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين المسلمين ، كان
ينطلق من منطلق علمي سليم ، هدفه تتبع تاريخ
العثمانيين المسلمين بأمانة علمية منصفة ، ولكن ما أن
يطلع المرء على ما أفرزته جهود المؤرخين من غير المسلمين
من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين ، حتى يكشف
أن الغالبية العظمى منهم قد تجاهلوا ، وتناسوا ،
مقتضيات الأمانة العلمية ، والانصاف ، بل أطلقوا العنان
لأحقادهم الظاهرة والباطنة ، لتكون هي المنطلق الذي
ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ العثمانيين المسلمين
والصاق عشرات الافتراءات التي لا تستند أياً ببيانات
تاريخية ، بالأتراك العثمانيين المسلمين .

وليس غريباً أن تصدر مثل تلك الافتراءات عن
أقوام فضح الله عز وجل نواياهم تجاه الاسلام والمسلمين
في قوله تعالى جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا
يألوكم خيالا ودعوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم

وما يخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم
تعقلون » سورة آل عمران : ١١٨ .

ولقد وجه الحاقدون حملاتهم ضد العثمانيين الأتراك
في اتجاهين متوازيين :

الاتجاه الأول :

ويتمثل في تجاهل جميع الجوانب المضيفة في تاريخ
العثمانيين الأتراك ، مما أدى الى طمس هذه الجوانب
المضيفة . تحت جبال عاتيات من ركام الأحقاد المعادية
للاسلام .

الاتجاه الثاني :

ويتمثل في الصاق العديد من الافتراءات الكاذبة ،
الظالة ، بتاريخ العثمانيين الأتراك .

ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقّد الأسود ،
أولئك المؤرخين على تجاهل ونسأسي أبسط قواعد
مقتضيات الأمانة العلمية في عملية التاريخ للأتراك
العثمانيين المسلمين ، فإن الذي نستغربه أشد الاستغراب ،
بل ونستهجنه بشدة ، أن ينزلق الكبر من المؤرخين
المسلمين ، في حفاة عمليات التزوير ، والتشويه ،
والبهتان ، التي ألصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين .

والذين انطلت حملات التشويه والتشكيك على المسلمين عسوراً طويلة ، فإن من العار أن يستمر هذا الحال ، ولا بد من التصدي لحملات التشويه ، لكشف زيفها ، وتفنيد بواطنها ، ان وجد لها بينات ، فما عهدنا بهتانا يستند الى بينات .

وقياما بحق الأخوة الإسلامية ، ووفاء لها ، وغيرة على الحق والحقيقة ، رأيت من واجبي ، أن أساهم هذه المساهمة المتواضعة في ازالة ركام الأحقاد المعادية التي حرصت على طمس الكبر من الجوانب المضيئة ، المشرفة ، التي ابدت بها صفحات تاريخ أختوتنا في الاسلام ، الأتراك العثمانيين .

وسأركز الحديث في هذا الكتاب في اتجاهين :

الاتجاه الأول :

ويتمثل في ازالة ركام الأحقاد المعادية للإسلام التي طعمت لقرون طويلة العديد من الجوانب المضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك وأبرزها :

أولاً : التزام العثمانيين بالإسلام ، وانطلاقهم في تأسيس دولتهم من منطلق الالتزام بالإسلام .

ثانياً : اخلاص معظم سلاطين الدولة العثمانية
لفي يوم الجهاد في سبيل الله ، وقيامهم بواجب الدعوة الى
الاسلام ، خلافاً لما يزعمه الحاقدون ، من أنهم كانوا
مجرد محاربين قساة القلوب متحجري العاطفة .

ثالثاً : ما أبداه العثمانيون من تسامح ديني كريم
نجاه غير المسلمين في الدولة العثمانية ، خلافاً لما يزعمه
الحاقدون من أنهم كانوا يضطهدون غير المسلمين .

رابعاً : ترفع العثمانيين عن الوقوع في متاعات
العصبية القبلية او العرقية او القومية ، واصرارهم على
أن يكون الانتماء الاسلامي فوق أي انتماء قبلي أو عرقي
أو قومي .

خامساً : الدور الرائد الذي لعبه العثمانيون
الانوار في اعادة لحمة الوحدة الاسلامية لجميع شعوب
الامة الاسلامية ، وتجميع قواها تحت راية واحدة طوال
اكثر من خمسة قرون متتالية ، بعد فترة عصبية شهدت
تشرذم المسلمين وتفرق كلمتهم .

سادساً : الموقف المبدئي الصلب الذي ينبغي أن
يسجل للعثمانيين بناء الذهب نجاه قضية فلسطين ،
حيث أصروا - حتى وهم في أشد حالات ضعفهم على -

عدم التفریط بذرة تراب واحدة من أرض فلسطين
المسماة المباركة .

الاتجاه الثاني :

وينمّل في كشف رُيف الافتراءات الظالمة التي
الضقت بالعثمانيين زورا ، وظلما ، وبهتاناً ، وساركر
في هذا المجال على الافتراءات التالية :

أولاً : القرية التي تزعم أن سلاطين بني عثمان
كانوا يسلكون الحق - بموجب فتوى شرعية مزعومة -
في قتل أمانيهم ، وإخوانهم ، وأقربائهم ، حفاظاً على
عروشهم .

ثانياً : القرية التي تزعم أن السلطان محمد الفاتح ،
التيسم به من فاتح ، قد أباح القسطنطينية لجنوده ،
عدة أيام ، قاموا خلالها بأعمال النهب والسلب ، والقتل ،
والاعتداء على الأعراض .

ثالثاً : القرية التي تزعم أن العثمانيين كانوا
يتزعجون أطفال النصارى قسراً ، ويجبرونهم على الإسلام .
ليشكلوا منهم جيشهم الذي عرف في التاريخ باسم
الجيش الجديد ، ، بني تشرى ، ، وهو الذي اصطُح
على تسميته بالجيش الانكشاري .

رابعاً : الفرية التي تزعم أن العثمانيين الأتراك
كانوا أمة حرب وقتال . وأنهم لم يكونوا أمة دعوة
وهداية .

واني لأحسب أن القارئ الغطن . سيدرك من
خلال ما سأورده من حقائق في هذا الكتاب . أن الحاقدين
على الاسلام . انما يهدفون من وراء التركيز على تحريف
تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين . والصفاق الافتراءات
الكاذبة بهم . الى الاساءة الى الاسلام ذاته . من خلال
الاساءة الى الأتراك العثمانيين المسلمين .

أقول هذا . ولا أنفي . أن يكون في تاريخ بني
عثمان . وخاصة في عصورهم المتأخرة بعض الأمور التي
لا تتسجم مع الاسلام . وتعارض مع أحكامه . وليس
الذنب في ذلك ذنب الاسلام . وإنما ذنب المسيء نفسه .

وبعد ...

فانني أجد من واجبي أن أتوجه بالنداء الى كل
شعور على الحق والحقيقة . ليبادر الى إعادة تقييم معلوماته
عن الأتراك العثمانيين .

انني أدعوهم لمحاكاة هذه المعلومات واخصائيا
للسنطق العلمي . وأن يحرصوا على التثبت من البيانات

التي تدعمها . وأنا كفيّل بأنهم لن يجدوا لهذه المعلومات
المختارة أية بيّنات تقوى على الصمود في وجه الحقائق
الناصعة .

انني أناشد كل عربي ومسلم ، وخاصة جيل
المستقبل المنشود ، أن يلفظوا من أفكارهم أية معلومات
خاطئة تسربت إليهم من قنوات حاقة على الإسلام
والمسلمين . وأن يشيروا من أية مشاعر جفاء . ولا أقول
عداء ، للعنانيي المسلمين .

ولعني أكون قد قمت بواجبي كمسلم في الذب عن
سمعة اخوتنا في العقيدة الأتراك العنانيي . وعسى
أن يترتب المارخون الغيورون على الإسلام . قبل أن
يسمحوا لألسنتهم وأقلامهم بأن تردد مزاعم الحاقدين
على الإسلام من غير تحييص وتدقيق . فلقد آن الأوان
لإعادة الحق إلى نصابه . وأنه لعار وأي عار أن نستمر
أجيالنا المسلمة في المدارس والمعاهد والجامعات ، في تلقي
هذه الإفترافات . وكأنها يقين لا يرقى إليه شك .

اللهم اني قد بلغت . . . فاشهد

زياد محمود أبو غنيمه

نبذة تاريخية موجزة عن

العثمانيين الأتراك

يتفق معظم المؤرخين المسلمين على القول أن الأتراك ينسبون إلى يافث ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام ، وبعد وفاة يافث خلفه في زعامة قومه ابنه ترك بن يافث ، وكان أعقل اخوانه ، وأرشدهم . فسار بقومه إلى تركستان حيث أصبحت الموطن المستقر للأتراك ، ولم يلبث نسل ترك بن يافث أن تكاثر بمرور الزمن ، حتى انتشروا إلى شعوب كثيرة كان في مقدمتها شعب الغز ويطلق عليه بالتركية اسم (Oguzlar) ، وشعوب التتار ، والمغول ، والقشق ، والخزر ، والبجناك .

ويتفق معظم المؤرخين على القول أن العثمانيين الأتراك ينتمون إلى شعب الغز ، وينحدرون من عشيرة صغيرة تسمى إلى قبيلة تسمى قايي . كانت تستوطن أراضي دولة خوارزم المحيطة ببحيرة خوارزم أو بحر الخزر الذي يطلق عليه الروس الآن اسم بحر آرال بعد أن أزالوا اسمه الإسلامي « بحر الخزر » .

لما من دخول الأتراك في الإسلام ، فإن أرجح
الروايات تشير إلى أن انتشار الإسلام بين الأتراك بدأ
بشكل تدريجي ، وبصورة غير منتظمة منذ قام القائد
المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي في أثناء خلافة سليمان
ابن عبد الملك الأموي بفتح بخارى وهره وسمرقند
وغربها من بلاد الترك في عام ٩٨ هـ وفق عام ٧١٧ م ،
ثم نشطت الدعوة إلى الإسلام بين الأتراك في زمن الخليفة
الأموي هشام بن عبد الملك على يد أشروس بن عبد الله
السلعي ، حين أسلم عدد كبير من الترك فيما بين عامي
١٠٥ - ١٢٥ هـ وفق عام ٧٢٥ - ٧٤٣ م ، وفي زمن
الخامس أسلم ملك اشروسنة التركي المسمى كايوس
وأسلم معه قومه .

ويمكن القول أن نقطة التحول الحاسمة في اعتناء
الأتراك إلى الإسلام حدثت في خلافة المظيع لله ابن المنذر
العباسي ، عندما أسلم زعيم الترك قرة خان في عام
٣٤٩ هـ وفق عام ٩٥٤ م .

ويعتبر عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه المؤسس
الأول للدولة العثمانية . وقد انتقلت زعامة الأتراك
العثمانيين إلى عثمان في عام ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م ، اثر

وفاد أبيه أرطغرل ، وقام العالم المؤمن اده بالي ، وهو
والد زوجة عثمان ، بتسليم عثمان سيف والده في احتفال
مهيب ، وأطلق عليه لقب الغازي ، تبعنا بالحديث
الشريف :

« من مات ولم يغز ، ولم ينو الخروج ، مات
ميتة جاهلية » .

ويعتبر عام ٦٩٩هـ - ١٣٠٠م ، عامًا حاسمًا في تاريخ
بني عثمان ، وضع فيه عثمان بن أرطغرل الحجر الأساسي
في بناء الدولة العثمانية ، ففي ذلك العام ، أغارت
جشوع التتار على سلطنة قونية السلجوقية التي كان
عثمان يعمل في خدمة أميرها علاء الدين كيقيباذ الثالث ،
واسفرت الغارة عن مقتل الأمير علاء الدين وولي عهده
الأمير غياث الدين ، فأصبحت السلطنة بدون سلطان ،
فوجد عثمان في ذلك فرصة ليعلم زعامته على السلطنة
تحت اسم « بادي شاه آل عثمان » ، معلنا بذلك ولادة
إمارة بني عثمان ، التي أصبحت كما يورد الدكتور عبد
الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأتراك » ، (النفس
الوحيد للحساس الديني في الاسلام ، فجاءها كل داعب
في الجهاد ، واجتذبت إليها أعدادًا من المحسنين لنصرة
الديسن) .

ولم تلبث هذه الامارة الصغيرة أن أصبحت بعد أقل من قرن دولة عظمى ترتعد فرائص أوروبا النصرانية حلعاً وخوفاً منها . ولم تلبث هذه الدولة أن قضت على الامبراطورية البيزنطية . واتخذت من عاصمتها القسطنطينية عاصمة جديدة للدولة بنى عثمان بعد ان اتم الله عز وجل فتحها على يد السلطان محمد الفاتح في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الاولى من عام ٨٥٧هـ وفقى التاسع والعشرين من أيار من عام ١٤٥٣م .

وتعد الفترة الزمنية التي شغلها الأتراك العثمانيون في سفر تاريخنا الاسلامي أطول فترة استطلت فيها الأمة الاسلامية براية واحدة ، فقد حكمت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون متتالية . منذ ان أسسها عثمان بن أرطغرل في عام ٦٩٩هـ - ١٣٠٠م . وإلى أن تمكن مصطفى كمال أتاتورك . بتحريض من أعداء الاسلام . من إلغاء السلطنة العثمانية في عام ١٩٢٣م . ثم اتبع ذلك بإبطال مفعول الخلافة الاسلامية في الثالث من آذار من عام ١٩٢٤م .

الدولة العثمانية

دولة إسلامية المنطلق ، والراية ، والهدف

في وصية عثمان ابن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية ، لابنه أورخان ، كما يوردها الصدر الأعظم كامل باشا ، في كتابه المطبوع باللغة التركية القديمة « تاريخ سياسي دولة عليّة عثمانية » ، أي التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية ، . تطالعنا هذه العبارات :

اعلم يا بني ، أن نشر الإسلام ، وحداية الناس اليه ، وحماية أعراس المسلمين وأموالهم ، أعانة في عنقك سيالك الله عز وجل عنها . .

* وينقل المؤرخ التركي المعاصر قادر مصر أوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » ، عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول :

يا بني ، انشر اسفل الى جوارك ، وأنا فخور بأنك ستكون عادلا في الرعية ، مجاهدا في سبيل الله ، لنشر دين الإسلام .

يا بني . أوصيك بعلماء الأمة . أدم رعايتهم . واكسر
من أحبابهم . وانزل على مشورتهم . فانهم لا يأمرون إلا
بخير .

يا بني . اياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله عز وجل .
وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة . فانهم
سيبدلونك على الخير .

واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو
طريق الله . وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله .
وأنا لسنا طلاب جاه ولا دنيا .

وينقل المؤرخ التركي المعاصر عبد القادر زاده
أوغلو في كتابه « التاريخ العثماني المصور » . عبارات
أخرى من وصية عثمان تقول :

وصيتي الأولى لابنائي . ولجميع الاعزاء علي . أن
لا يتركوا الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله . ونشر دين
الاسلام الجليل . ورفض راية محمد صلى الله عليه وسلم
حالياً . وليكن كل وقتكم لخدمة الاسلام . ونشر كلمة
التوحيد في ربوع العالمين . وانني أقول لكم : انني
أدعو الله عز وجل أن يحرم من شفاعتي محمد صلى الله

عليه وسلم يوم القيامة . كل واحد فيكم يستعد عن طريق الاسلام . ويظلم الناس ، ويترك الجهاد .

— وفي وصية السلطان محمد الفاتح ، أُنعم به من فاتح . لولده بايزيد ، كما تروي معظم المصادر التركية ،
تطالعنا هذه العبارات :

يا بني . ان نشر الاسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض . فاعمل على نشر دين الله حينما استطعت .

يا بني . اجعل كلمة الدين فوق كل كلام ، واياك ان تغفل عن أي أمر من أمور الدين . وأبعد عنك الذين لا يصنعون بأمر الدين . واياك ان تجري وراء البدع المنكرة .

يا بني . قرب منك العلماء . وادفع من شأنهم . فانهم ذخيرة الأمة في الملئ .

يا بني . حذر ان تغرق كثرة الاموال والجنود . واياك ان تخالف أمر الشريعة في أي شأن . واحرص على الدين فإنه سر انتصارنا .

ترى . هل هناك من دليل أنصح من هذه الأدلة
على صدق انتماء العثمانيين الاسلامي ، وحرصهم على
اضفاء الهوية الاسلامية على دولتهم ؟ .

قد يقول قائل : ان هذا مجرد كلام عاطفي صدر من
أناس يواجهون سكرات الموت ، فلا يعتد بها .

لهؤلاء المتشككين . ان وجدوا ، أسوق دليلا آخر ،
يتصل في تصوص الواجبات التي اناطها دستور الدولة
العثمانية بسلطين الدولة ، أنقلها من كتاب الدكتور
عمر عبد العزيز عمر ، محاضرات في تاريخ الشعوب
الاسلامية .

— هذه الواجبات هي :

أولا : ان يخضع السلطان لاحكام الشريعة
الاسلامية خضوعا كاملا .

ثانية : ان يجعل الشريعة الاسلامية ويحكم
عليها .

ثالثة : ان يحمي مقدسات المسلمين ، ويظم شؤون
الحج بعناية .

رابعة : ان يدافع عن نفوس المسلمين ضد اعدائهم .

ولم أراد مزيداً من الأدلة على صدق انتماء العثمانيين
والترزامهم بالاسلام . أورد هذه الأدلة :

« يقول الأستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم في كتابه
« العرب والترك » :

لقد أقبل الترك على دين محمد صلى الله عليه وسلم
أفواجاً ، وانقلبوا من خصوم الداء للاسلام ، الى حماة
للاسلام شديدي التعصب له .

« وما يؤكد الهوية الاسلامية للدولة العثمانية ،
ان الاتراك أطلقوا على الجندي التركي اسم (Mahmateik)
أي الجندي المحمدي ، وما برحوا حتى يومنا هذا يطلقون
عليه هذا الاسم . وذلك تيمناً باسم سيد المجاهدين
محمد عليه الصلاة والسلام .

كما ان العديد من المراسيم والقوانين التي كانت
تصدر عن الدولة العثمانية ، كانت تصدر باسم الدولة
العالية المحمدية . تيمناً باسم النبي الكريم صلوات الله
وسلامه عليه ، وتأكيداً للهوية الاسلامية للدولة .

« ويقول المؤرخ التركي أحمد رفیق في موسوعته
« التاريخ العمومي الكبير » ، « بيوك تاريخ عمومي » .

لقد كان عثمان ابن أرطغرل شديد التدين ، وكان يؤمن أن نشر الاسلام وتعميمه واجب مقدس بالنسبة اليه .

* ويؤكد الاساذ الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأتراك » الهوية الاسلامية للدولة العثمانية بقوله :

لقد تعلق الناس بالسلطان الذي وحدهم ، فجعل بلادهم سوقا واحدة ، وحماهم من العدو الاجنبي . ورفع راية الاسلام زمنا طويلا ، وطبق أحكام الشريعة . * وقد نص القانون الذي وضعه السلطان سليمان القانوني ، والذي حدد بموجبه الشروط التي ينبغي أن تتوفر في كل شخص يشغل منصب الوزارة العظمى (رئاسة الوزراء) ، أو منصب الوزارة ، على أن يكون ذلك الشخص مواظبا على أداء الصلاة في أوقاتها .

وقد عثرت على نص هذا القانون ، في العدد الثالث الصادر في شهر آذار من عام ١٩١١م ، من مجلة «المشرق» التي كانت تصدر عن ادارة كلية القديس يوسف ، والتي كان يرأس تحريرها الأب لويس شيخو اليسوعي .

٥٠ ولعل أبلغ الأدلة وأقواها حجة على صدق الترام
الأتراك بالاسلام ، ما شهدت به الاعداء ، والفضل ما
شهدت به الاعداء . .

فقد نقل الاستاذ المؤرخ محمد جميل بينهم في كتابه
« العرب والترك » عن المؤرخ الفرنسي ده سون ، الذي
عاش ربع قرن في ربوع الدولة العثمانية في أواخر
القرن الثامن عشر . أن العثمانيين التزموا التزاماً صارماً
بكل ما أوحده القرآن ، وإن الدولة كانت تسترشد برأي
علماء الاسلام ، لأن الواجب كان يقضي بالرجوع الى رأي
الشريعة الاسلامية في أي شأن من شؤون الدولة
العسكرية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية ، أو القضائية .

يقول المؤرخ الفرنسي ده سون (Dohsson) :

سواء في زمن السلم ، أو في شؤون الحرب ، وسواء
لوضع قانون سياسي ، أو نظام عسكري ، وسواء
القصاص من وزير أو قائد عام ، فإن الوزارة كانت
تلجأ الى المفتي تستشير في الأمر ، وكثيراً ما كانت
تفاوض معه في القضية التي ستعرض عليه . وذلك
لأنه لم يكن يكفي الاطمئنان الى شرعية الحكم فحسب ،

بل كان الواجب الرجوع الى رؤساء الدين (التعبير
الأصح هو العلماء أو الفقهاء) في قضايا الدولة .

وينقل المؤرخان الغربيان جونيان وفان كافاز . في
كتابهما « تاريخ العالم » . أن مفتي الاسلام كان مرجع
السلطنة العثمانية في الأمور الشرعية والمدنية على حد
سواء . وأنه كان يتمتع بمرتبة تسمو على مرتبة الوزراء .
وكان ذلك يجري مراعاة للروح السائدة التي تضع الدين
فوق كل اعتبار آخر .

* ويؤكد حقيقة التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام،
المؤرخ البريطاني هيربرت آرمز جيبونز في كتابه
« تأسيس الامبراطورية العثمانية » الذي ألفه عام
١٧٩٤م . والذي نشر في عام ١٩١٦ :

يقول جيبونز بلهجة تستثير الأحقاد الصليبية ضد
الاسلام والأتراك معاً :

ان قيام الدولة العثمانية كان بدافع التعصب
الديني الذي اشتهر به الأتراك .

* ويروي الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه
« العرب والترك » أن التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام
كان من الصرامة بحيث أن مفتي الاسلام في زمن السلطان

سليم الثالث ١٢٢٩هـ - ١٨٠٧م ، أفتى بخلع السلطان
عن عرش السلطنة لأنه أدخل على الدولة بعض أنظمة
الفرنجة المنافية للإسلام ، ولم خلع السلطان سليم
الثالث عن عرش السلطنة فعلا بموجب تلك الفتوى .

ولقد كان عوقب السلطان مراد بن أورخان من
ابنه ساوجي قمة شامخة في صدق التزام العثمانيين
بالإسلام وبأحكام الشريعة الإسلامية .

فحين تأمر ولده ساوجي مع الأمير اندروليقوس ابن
الإمبراطور البيزنطي يوانيس ، وسائر الإثنان على رأس
جيش من البيزنطيين وبعض المخدوعين من الجنود
العثمانيين لمحاربة الجيش العثماني الأسلافي ، كانت
نتيجة المعركة هزيمة المتأمرين ، ووقوع الأمير ساوجي
في الأسر ، فأمر والده السلطان مراد أن يعرض أمره
على علماء الشريعة وقضااتها ، فحكموا عليه بعقوبة الموت
جزاء لخروجه على طاعة ولي الأمر ، وجزاء هوالاته للكفار
ومشاركته الفعلية إلى جانبهم في قتال المسلمين . وحين
أشفق رجال الدولة أن يفجع السلطان مراد بولده
ساوجي ، رجوه أن يعفو عنه ، ويكتفي بنفيه فما كان
من السلطان مراد ، المؤمن ، الملتزم ، إلا أن أصر على أن
ينفذ حكم الشريعة في ولده ، وكأنني به وهو يفعل ذلك
كان يستشعر بصدق قول الله عز وجل :

لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يأتون
 من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو
 إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان
 وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها
 الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك
 حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

١٤ وكان من الطبيعي أن يستغل الحاققون مقتل
 ساجي على ذلك النحو . لينفثوا حقدهم ضد مراد .
 فيتهمونه بالوحشية . وتحجير عاطفة الأبوة في قلبه .
 وما دروا أن الالتزام بالاسلام يجعل وشيجة العقيدة
 فوق كل وشيجة .

١٥ ولعل هذه الأبيات الشعرية التي وردت في كتاب
 الفزرج البريطاني باول ونيك منقولة عن كتاب « اسكندر
 نامه » الذي ألفه الأحمدى في عام ١٩٥٠م مؤرخاً فيه
 لحياة الأتراك . بشكل دليلاً آخر على صدق التزام
 الأتراك العثمانيين بالاسلام .

نقول أبيات القصيدة التي عنوانها :

سلطاننا . وكيف نريده أن يكون . . .

- ان سلطاننا هو خادم دين الله .
- انه الرجل الذي يسعى لاجراج الناس من الشرك .
- وينقلهم الى رحمة الاسلام .
- ان سلطاننا هو سيف الله .
- انه حامى المؤمنين . وملاذ المسلمين .
- وحين يقتل سلطاننا في سبيل الله .
- فلا تظنوا انه مات .
- لان الشهيد لا يموت .
- بل ينتقل الى حوزة الله .
- ليعيش في جنات النعيم .

وكان عثمان بن ارفعول مؤسس الدولة العثمانية حريصاً على الالتزام باحكام الشريعة الاسلامية في جميع حروبه التي خاضها . وفي هذا الصدد يروي المؤرخ احمد رفيق في الجزء السادس من موسوعته : بيوك تاريخ عمومي . (التاريخ العمومي الكبير) . ان عثمان ارسل الى جميع امراء الروم البيزنطيين الذين يحيطون به . ويخبرهم بين ثلاثة امور . اما الاسلام . أو الجزية . أو الحرب .

* ولقد بلغ من شدة حرص العثمانيين على التزم
 آداب الاسلام في الوفاء بالعهد ، أنهم ظلوا طوال عهود
 قرون ، كما يروى المؤرخ اسماعيل حامي دشمند ،
 في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، يدخلون قلعة
 اولوباد بواسطة الفوارب ، على الرغم من وجود جسر
 يوصل إليها . وذلك لأن أمير القلعة البيزنطي كان قد
 اشترط على عثمان بن أرطغرل حين استسلم للجيش
 العثماني ، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم
 إلى داخل القلعة -

وأجد من واجبى ، بعد أن قدمت الدليل الناصح
 على صدق التزام العثمانيين بالاسلام ، أن أشيد الانسباء
 إلى أن مقتضيات الأمانة العلمية ، كما أن مقتضيات
 الأخوة الاسلامية ، توجب علينا ان نبرز باعتزاز وفخر ،
 وحسبنا ، وأيضا أمكننا ذلك ، الهوية الاسلامية الملزمة
 للعثمانيين الأتراك ، وأن نغني عن أفكارنا وعقولنا أية
 معلومات خاطئة زعم أن العثمانيين كانوا مجرد قطاع
 طرق ، ومغامرين ، وطلاب شهرة وجاء ، وأن نستبدل
 هذه المغالطات بالحقيقة الناصعة التي تؤكد أن عثمان
 ابن أرطغرل قد أسس دولة تعمر بالاسلام ، ويعز بنا

الاسلام . ويلوذ اليها المسلمون . وهذا ما يؤكد المؤرخ
التركي أحمد رفيق في موسوعته المطبوعة باللغة التركية
بأحرفها العربية « بيوك تاريخ عمومى » . أي « التاريخ
العام الكبير » . حيث يقول ما ترجمته :

« كان عثمان متديناً للغاية . وكان يعلم أن نشر
الاسلام وتعميمه واجب مقدس . وكان مالكا لفكر
سياسي واسع وهنئ . ولم يؤسس عثمان دولته حياً
في السلطنة . وإنما حياً في نشر الاسلام » .

• ويعزز هذا الرأي ما أورده المؤرخ التركي قادر
مصر أوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » المطبوع
عام ١٩٧٩ م .

يقول مصر أوغلو :

لقد كان عثمان بن أرطغرل يرمس إيماناً عميقاً بأن
وطيقته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله .
لأعلاء كلمة الله . وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه
لحور تحقيق هذا الهدف .

• وما يؤكد الهوية الاسلامية للدولة العثمانية .
أن أول عملة عثمانية سككت في زمن أوردخان بن عثمان

ابن ارفطغرل . كانت تحمل على أحد وجهيها لفظ الشهادة
« لا اله الا الله . محمد رسول الله » .

وحيث شكل السلطان أورخان في عام ٧٢٩ هـ .
١٣٢٨ م . أول جيش نظامي عثماني ، توجه بهذا الجيش
الى حيث يقسم العالم المؤمن الحاج بكتاش . وطلب
منه ان يدعو لهذا الجيش بالنصر . فلتقاهم العالم
المؤمن خير لقاء . ووضع يده على رأس أحد الجنود .
ودعا لهم الله ان يبيض وجوههم . وان يجعل سيوفهم
حادّة قاطعة . وان ينصرهم في كل معركة يخوضونها في
سبيل الاسلام .

وانخذ أورخان لجيشه الجديد راية من قماش أحمر
في وسطها هلال . وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا
عليه اسم « ذو الفقار » تيمنا بسيف الخليفة الراشد
علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

• وينبغي ان اشير الى ان الدكتور عمر عبد العزيز
عمر يؤكد في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب

الإسلامية ، الذي يدرس في عدد من الجامعات العربية ،
إن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون الأتراك
في المراحل الأولى من تأسيس دولتهم كانت نتيجة عدة
عوامل ، أهمها ، وفي مقدمتها ، الروح الدينية الوثابة
التي كان يتمتع بها العثمانيون .

العثمانيون الأتراك

صدقوا الله في جهادهم في سبيله

لجلى صدق جهاد العثمانيين في سبيل الله في وقت سابق لتأسيس دولتهم ، حين كان أرطغرل بن سليمان والد مؤسس الدولة عثمان بن أرطغرل يضرب في الأرض قارا بعشيرة التي لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة . من ويلات الهجمة المغولية بقيادة جنكيز خان . فإذا به يسمع عن بعد حلبه وضوضاء . فلما اقترب منها فوجيء بجيشين يستلان . جيش مسلم . وجيش ييزنطي . وكان الجيش الاسلامي على وشك الاندحار المؤكدة . فما كان من أرطغرل الا أن اندفع بكل حماس لنبذة اخوانه المسلمين . من غير أن يضيع لحظة من الوقت في التعرف على الجبهة التي ينتمي اليها الجيش الاسلامي . ومن غير أن يضيع لحظة من الوقت في التفكير بعواقب الأمر . ومن غير أن ينتبه قلة عدد محاربي عشيرته . وقواهم الشهكة .

لقد الدفع اندفاع المسلم المخلص لتجدة اخوانه المسلمين . رغم كل ما يحمله ذلك الانحياز لجيش يكاد يكون مهزوما . من مخاطرة غير مضمونة العاقبة . لأن شيئا فوق كل الاعتبارات . شيئا تضائل أمامه المصالح الشخصية . وتلاشى في مواجهته طبيعة النفس البشرية التي تشد قوتها السلامة والبعد عن المخاطرة . هو الذي دفعه للانحياز الى اخوانه المسلمين .

• ذلكم هو الاسلام وحسب الجهاد في سبيل الله .

ويؤكد هذه الحقيقة الاسناد الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأتراك » حيث يقول :

« أصبح إمارة عثمان النفس الوحيد للحماس الديني في الاسلام . فجاءها كل راغب في الجهاد . واجتذبت اليها أعدادا من المتحمسين لنصرة الدين » .

كما يؤكد هذه الحقيقة المشرق الألماني كارل بروكلمان في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » . حيث يقول : ان المئات ممن كان يطلق عليهم اسم « المندفعون » (المجاهدون) . كانوا يتقدمون الى الترخوم المواجهة للبيزنطيين . للانضمام الى عثمان حبا في الجهاد في سبيل الله .

٥ ويعبر السلطان المجاهد محمد الفاتح ، أنعم به
 من فاتح ، أروخ تعبیر عن صدق اندفاع العثمانيين في
 دروب الجهاد في سبيل الله عز وجل ، في هذا الحوار
 الذي جرى أثناء حصاره لمدينة طرابزون في عام ١٤٦٥ هـ -
 ١٤٦٢ م ، بينه وبين سارة خاتون ، والدقة عدوه اللدود
 الأعدى حسن الطويل الذي تحالف مع بابا روما ضد
 العثمانيين .

قالت العجوز : كما يروي المؤرخ التركي عاشق
 باشا زاده في كتابه : تاريخ عاشق باشا زاده :
 يا بني ، لماذا تلقي بنفسك وبعيشتك الى المخاطر
 من أجل فتح مدينة (نقصه طرابزون) تستطيع أن تبني
 مئة مدينة أجمل منها وأكبر . . .

فأجابها السلطان المزمع الملتزم :

يا أماء اننا لا نلقى بأنفسنا الى المخاطر من أجل
 مدينة ، وانما في سبيل الله عز وجل ، حتى اذا لقيناه
 يوم الحساب ، قدمنا اليه فخورين ، لا خجلين ، وبأيدينا
 سيوفنا التي حاربنا بها في سبيله .

يا أماد . ان هذه السيوف التي نحملها ليست
للزينة والتباهي . وانما هي لنقاتل بها في سبيل الله .
يا أماد . ان هذا العناء الذي نلاقيه كله في سبيل
الله . وكل تظنين أننا نكون أعلا لنسعى مجاهدين في
سبيل الله اذا لم نحمل هذا العناء .

✽ ويربط الأستاذ محمد جميل بيهم في كتابه
« العرب والترك » . بين شجاعة الجندي التركي . وبين
صدق حبه للجهاد في سبيل الله فيقول :

وما الشجاعة التي اشتهر بها الجندي التركي ،
الا نتيجة لمعصب الشعب التركي للاسلام . واستناداً
الى انه كان يؤمن ايماناً صادقاً بأن الذين يقتلون في
سبيل الله . هم احياء عند ربهم يرزقون .

✽ وحين نقرا تاريخ بني عثمان بعيون اسلامية
لا ننطلي عليها الافتراءات التي أطلقها الحاقدون ليحجبوا
المواقف التي سجلها العثمانيون في ميادين الجهاد في
سبيل الله . نطالعنا صور رائعة تجسد أروع تجسيده
معجزة الاسلام في صنع البطولات والابطال .

تطالعنا صورة السلطان مراد بن أورخان بن
 عثمان . وهو يناجي ربه في الليلة التي سبقت الملاقاة
 معركة فصوصه الحاسمة التي أعز الله بها جنده .
 وهزم جيوش الحلف الصليبي بقيادة ملك الصرب لازار
 (٧٩١هـ - ١٣٨٩م) . ففي تلك الليلة التي اشتد ظلامها .
 ونار غبارها . وبلغت القلوب فيها الحناجر . كان
 السلطان المجاهد مراد بن أورخان يرفع يديه الى السماء
 يناجي ربه قائلا :

الهي . ومولاي . تقل دعائي وتضرعي . وانزل
 علينا برحمتك غيثا يطفي من حولنا غبار العواصف .
 واغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات . حتى نستمكن
 من ايصال مواقع عدونا لنقاتله في سبيل اعزاز دينك
 العزيز .

الهي . ومولاي . ان الملك والقوة لك . تمنحها لمن
 تشاء من عبادك . وأنا عبدك العاجز الفقير . نعلم سري .
 وجهري . واقسم بعزتك وجلالك انني لا ابتغي من
 جهادي حطام هذه الدنيا العانية . ولكنني ابتغي رضاك .
 ولا شيء غير رضاك .

الهي . ومولاي . أسألك بجاه وجهك الكريم .
أن تجعلني فداء للمسلمين جميعاً . ولا تجعلني سبباً
في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم .
الهي . ومولاي . إن كان في استشهادي نجاتاً للجنود
المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك . لأنعم بجوارك .
وتعم الجوار جوارك .

الهي . ومولاي . لقد شرفني بأن هديتني إلى طريق
الجهاد في سبيلك . فزدني شرفاً بالموت في سبيلك .
وقد روى المؤرخ التركي خوجا سعد الدين في كتابه
« تاريخ التواريخ » . أن السلطان مراد أمضى الليل
بطوله وهو يدعو بهذا الدعاء .

والقد صعد مراد ربه . فصدقه وعده . فنصر
جنده . واحترمه شهيداً في سبيله في تلك المعركة .
وتطالعنا صورة السلطان المجاهد محمد الفاتح .
وقد انطى صورة حصانه . يحض به العلماء المجاهدون
أق شمس الدين . ومولا خسروي . ومولا قوراني . ثم
يتقدم بحصانه نحو أسوار القسطنطينية . وقد ارتفع
صوته بعنفوان :

يا أبنائي ، ها أنذا مستعد للموت في سبيل الله
فمن رغب في الشهادة فليطعن بي *

✽ وظالمنا صورة الجندي المجاهد البطل حسن
أولو بادلي . وهو يخترق على رأس ثلاثين من جنده
المسلمين الغرة في سور القسطنطينية . فتتهمر عليه
وعليهم تدور الزيت المغلي . وتتلقعه مئات السيوف
والرماح . فلا يأبه لكل ذلك العناء . ويصر على فتح
باب قريب من الغرة . ليدفع منه المسلمون الى داخل
القسطنطينية بسما أرواح أولو بادلي . واخوانه المجاهدين
تصعد الى رحاب العلي القديم *

✽ ولستطيع ان أليس صدق حماس العثمانيين في
مبادئ الجهاد في سبيل الله من خلال مطالعتنا للرسالة
التي ارسلها السلطان محمد الفاتح الى سلطان دولة
الماليك الشراكسة في مصر السلطان ابنال شاه . ففيها
نطالع هذه العبارات :

ان من أحسن سنن أسلافنا . أنهم مجاهدون في
سبيل الله . لا يخافون لومة لائم . ونحن على هذه السنة
قائمون . وعلى تلك الأمانة دائمون . متمسكين بقوله تعالى

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وَتَتَسَكَّنُ بِقَوْلِهِ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ . « مَنْ غَيَّرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ
 اللَّهُ عَلَى النَّارِ » وَلِهَذَا فَقَدْ هَمَمْنَا بِهَذَا الْعَامِ . مَعْتَصِمِينَ
 بِحَبْلِ اللَّهِ . ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . وَتَتَسَكَّنُ بِفَضْلِ
 الْمَلِكِ الْعَلَامِ . إِلَى أَدَاءِ فَرَضِ الْغَزَا (مَنْ الْغَزَا) الَّذِي قَرَضَهُ
 عَلَيْنَا الْإِسْلَامُ . وَتُعَرِّضُ بِأَمْرِهِ تَعَالَى « قَاتِلُوا الَّذِينَ
 يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » . وَجَهَّزْنَا عَسَاكِرَ الْغَزَاةِ الْمُجَاهِدِينَ
 مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . لِفَتْحِ مَدِينَةِ مِلَّتِ فَجُوراً وَكُفْراً .

العثمانيون الأتراك

دفعوا ثمنًا باهظًا بسبب موقفهم الصلب
في وجه المطامع الصهيونية في فلسطين المسلمة

سجل العثمانيون الأتراك ، حتى وهم في الحرج
الظروف وأصعبها ، موقفًا شامخًا ، دفاعًا عن فلسطين
المسلمة ، ينبغي أن يسجل للعثمانيين المسلمين بناء
الذهب ، بل ينبغي أن يكون أنشودة فخار واعتزاز
على لسان كل عربي بشكل عام ، وفلسطيني بشكل
خاص ، ذلك الموقف الذي تمثل في الموقف الصلب
الذي وقفه العثمانيون المسلمون تجاه قضية فلسطين ،
ذلك الموقف الذي وقفه السلطان المفترى عليه عبد
الحميد الثاني .

ففي عام ١٩٠١م قام تيودور هيرتزل زعيم الحركة
الصهيونية العائبة ، يرافقه إسماعيل قره صو زعيم
الافلية اليهودية التركية ، والحاخام إيلي موشيه حاخام
اليهود فيها ، بزيارة كانت الأولى من نوعها للسلطان
عبد الحميد ، لاقناعه بالسماح لليهود بالهجرة إلى

فلسطين . فيما كان من السلطان عبد الحميد الا ان
رفض رفضاً قاطعاً مجرد مناقشة الوفد اليهودي في
ذلك الامر .

لكن اليهود لم يقطعوا الامل . وزين لهم شيطانهم
ان الضائقة المالية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية
قد تكون المدخل الذي يستطيعون من خلاله الوصول
الى عدوهم في النزاع موافقة السلطان عبد الحميد على
السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . فعادوا يلتمسون
السماح لوفدهم بمقابلة السلطان عبد الحميد . فلما
تمت المقابلة عرض هيرتزل على الخليفة رشوة مالية
ضخمة تحت ستار تقديم العون للدولة العثمانية .
مقابل السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . وما كاد
هيرتزل ينهي كلامه ، حتى كان السلطان عبد الحميد
يقذف في وجه هيرتزل ورفيقه كلمات غاضبة كأنها
من حتم بركان نائر .

قال السلطان لهيرتزل :

لو كنت أعلم انك جئت اليوم تطلب مني ما رفضت
اجابتك اليه من قبل . لا سمحت لك بالدخول علي .

واعلم يا هيرتزل ان فلسطين جزء من ارض الاسلام
وارض الاسلام لا تباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصدنا
على كل شبر منها بيدل دماء اجدادنا ، ولن نقرط بشبر
منها قبل ان بيدل كل دماننا دفاعاً عنها .

وخرج تهودور هيرتزل ورفيقاه يجران اذيال
الخيبة ترسم على وجوههم ، ويجتثرون لخصم الحق
تاكل قلوبهم ، واقبلوا على قومهم وصنائعهم يستنفرونهم
ويستنجون احفادهم ، للانتقام من السلطان المسلم الذي
استعصى على اغرائهم .

وامرغ تهودور هيرتزل كل ما في قلبه من حقد
عبد السلطان عبد الحميد ، ضد الدولة العثمانية في
تقرير سري دفعه الى لجنة الاعمال الصهيونية ، عن
نتيجة مقابلته للسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٢ م ،
وقد نشر هذا التقرير بعد عشرين عاماً في صحيفة
فلسطين الصادرة في القدس في ١٩٢١/٨/٢٤ .

واقطب هذه العبارات بحرفيتها عن تقرير
هيرتزل :

، أقرز على ضوء حديثي مع السيفطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستغادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالها السياسية . أما عن طريق الزج بها في حروب لنهرم فيها . أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية . أو بالطريقين معا في آن واحد .

وكانت دولة الخلافة العثمانية في تلك الفترة تمر بمرحلة ضعف أغرت الحاقدين من صليبيين ويهود باحياء حلمهم القديم بالقضاء على الاسلام في تركيا . ولقد لعبت الدعاية اليهودية الماكورة عبر الصحافة التي كانوا يسيطرون عليها في أوروبا دورا حاقدا ومؤثرا في تهينة الاجراء . لتقيد مخطط ماکر رهيب للقضاء على الخلافة الاسلامية باعتبارها الرمز الذي يلتقى حوله المسلمون جميعا .

والحصر دور الدعاية الاعلامية اليهودية في عدة مجالات نفضلها كما يلي :

أولا : تشويه صورة الأتراك المسلمين بإظهارهم بمظهر المتوحشين سفاكي الدماء . المنغمسين في الفساد والانحلال . وذلك بقصده اذكاء الحقد الصليبي الأوربي ضد الأتراك المسلمين .

ثانياً : تحريك غرائز الطمع الاستعماري الصليبي
 وأعضاء الأوروبيين بسهولة الانقضاض على الدول
 العثمانية . واذكاء الأحقاد الصليبية ضد الاسلام الذي
 كان العثمانيون يرفعون رايته فقامت الصحافة الصهيونية
 بنشر موضوع فتنة عام ١٨٦٠م الشهيرة التي حدثت
 بين الدروز والنصارى في سورية ولبنان . وحرصت
 الدعاية الاعلامية اليهودية على القاء لبعة مسؤولية المذابح
 التي تعرض لها النصارى آنذاك على الدولة العثمانية .
 ولتنت وسائل الدعاية اليهودية بخبت ومكر المتداد
 بضرورة تدخل الدول الأوروبية النصرانية بحجة حماية
 الرعايا النصارى في سوريا ولبنان من مذابح أخرى قد
 يقوم بها الأتراك العثمانيون وقد نجحت الصهيونية في
 ذلك أيضاً نجاح . فقد رضخت دولة الخلافة العثمانية
 لطلبات الدول النصرانية الأوروبية . بمنحها امتيازات
 في ديار العرب والاسلام تحت ستار تأمن الحماية
 للنصارى .

وقامت الصحافة الصهيونية كذلك بنشر موضوع
 الفتنة التي اندلعت في بلغاريون عندما قاموا بالثورة ضد

الدولة العثمانية وارتكبوا ألباء فورتهم مذابح بشعة
 ضد الأتراك المسلمين ، فاضطرت الدولة العثمانية الى
 اخفاء الثورة بالقوة ، ولقد استغلت الدعاية الاعلامية
 اليهودية هذا الموقف للشوية الحقائق واطيار الأتراك
 المسلمين بمظهر المعتدين الذين يحبون سفك دماء
 النصارى بدون رحمة ، وظلت الدعاية الاعلامية اليهودية
 تلعب الحقد في قلوب النصارى في جميع اوربا وتدعوهم
 الى النار لآخوالهم النصارى البلغار ، وكان لتلك الحملة
 الدعائية اليهودية أكبر الأثر في اذكاء الحقد الصليبي
 في دول أوربا كلها ضد الاسلام والمسلمين مما سيظهر
 اثره فيما بعد عندما اندلع الحرب العالمية الأولى .

ثالثاً : ولعل أخطر دور لعبته الدعاية الاعلامية
 اليهودية من خلال الصحف التي كانت تسيطر عليها في
 أوربا وفي تركيا نفسها ، ومن خلال الجمعيات الماسونية
 التي فترختها الصهيونية ، هو ذلك النشاط الذي
 لعب دوراً كبيراً في تهيئة مؤامرة الردة الكافرة في تركيا ،
 وادى الى ابطال مفعول الخلافة الاسلامية ، والقضاء على
 الكيان الاسلامي لتركيا .

وقد نجى هذا النشاط الصهيوني في المعالين
التالية :

أولا : تشويه سمعة رجالات الدولة العثمانية
وتصويرهم في صورة الحكام المستبدين المستهزئين
بمصالح شعوبهم المنغمسين في الفساد والانحلال ، ولنا
نذكر ان بعض رجالات الدولة العثمانية وخاصة في اواخر
ايامها كانوا فاسدين ، الا ان اليهود عمموا حجبتهم
لشمل جميع رجالات الدولة العثمانية الذين لم نستطع
احييل اليهود من التأثير عليهم ، ولقد كان السلطان
عبد الحميد أحد أبرز رجالات الدولة العثمانية الذين
نالهم الأذى الشديد من الدعاية اليهودية التي شوهت
صورته وسمعه وأطلقت عليه ظمناً وبهتاناً لقب
«السلطان الأحمر» . لترسيخ أكذوبتها الكبرى التي
لفقتها ضده حين لفتت عنه قصصاً كاذبة عن عمليات
اغتيال مزعومة أمر بها ضد رجالات المعارضة ، ولقد
كان هدف هذه الحملة الاعلامية الشرسة ضد رجالات
الدولة العثمانية هو التمهيد وتهيئة الرأي العام التركي
لتقبل فكرة التخلص من رجالات الدولة العثمانية ليسهل

على اليهود وحلفائهم النصاري بعدئذ الانتقال الى الخطوة
الثانية وهي القضاء على كيان الدولة العثمانية ذاته .

ثانية : تشويه صورة دولة الخلافة الاسلامية
كدولة . وذلك باطلاق وصف «الرجل المريض» عليها .
وهو وصف من ابتكار اليهود . وليس صعباً أن ندرك
أن هدف وسائل الاعلام اليهودية آنذاك من تصوير
الدولة العثمانية بصورة الرجل المريض اما هو لتجهيد
ولهيئة الرأي العام التركي والعالمي لتقبل فكرة استبدال
هذا الكيان المريض الذي هو دولة الخلافة بكيان قوي
مطور وعصري يكون صورة طبق الأصل عن أية دولة
أوروبية .

ثالثاً : بينما كانت الدعاية الاعلامية اليهودية تشوه
صورة الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تروج
لفكرة الدولة التركية العثمانية الحديثة المرتبطة بأوروبا
وذلك كبديل للدولة العثمانية ، ولكنها لم تكن تجرؤ
على الجهر بذلك بصراحة ، وإنما كانت تدس هذه الفكرة

دسا من خلال ما تضفييه من حسنات على النظم الحكمية
الأوربية وتصويرها بأنها بلغت قمة الكمال .

وحيث كانت الدعاية اليهودية الاعلامية تسود صورة
رجال الدولة العثمانية . كانت في الوقت نفسه تضفر
عالات رالفة من صفات البطولة والرجولة والاستقامة على
الشخصيات التركية التي كانت الصهيونية وريبتها
الاسوتية . بالتعالف مع الصليبية . تعدها لاستلام
مقاليد الأمور في تركيا . في حالة نجاح الخطة الخبيثة
للقضاء على كيان تركيا الاسلامي .

ومن تلك الشخصيات مدحت باشا . اليهودي الذي
ادعى الاسلام عافا والذي صورته الدعاية الاعلامية
اليهودية بصورة المكافح من أجل الشعب التركي .
واطلق عليه اوصافا براقية مثل « أبو الأحرار » و « أبو
الدمسور » . وحين نفاذ السلطان عبد الحميد الى الطائف
بعد أن انقضحت علاقته بمخططات الصهيونية والاسوتية
المتآمرة ضد دولة الخلافة . اقامت الدعاية الاعلامية
اليهودية الدنيا ولم تقعد لها احتجاجا ضد تقيده . واستغفلت
الصهيونية هذه الحادثة لتكثيف هجمتها ضد السلطان

فيد الحميد باعتباره رمزا للدولة العثمانية وعنوانها
لوحة المسلمين .

على أن النجاح الكبير الذي حققته الدعاية الاعلامية
اليهودية كان من نصيب مصطفى كمال أتاتورك الذي
كان اليد الآلة التي حقق الكفر بواسطتها حلمه في
القضاء على الكيان الاسلامي لتركيا وابطال مفعول الخلافة
الاسلامية . فقد سخرت الدعاية الاعلامية اليهودية كل
مكرها . وحبثها . وكذبها . لتصوير أتاتورك بصورة
المفقد المنظر لتركيا . وتركزت حملتها الدعائية لصلحة
أتاتورك أثناء فترة الحرب ضد الحلفاء في أواخر الحرب
العالمية الأولى . وانتهزت الدعاية اليهودية ما أصاب
الأتراك من هزيمة لترفع عقيرتها بالمناداة بأن الوطن
يحتاج الى رعاية جديدة قادرة على انقاذه . وكانت
طبعاً تضرب بذلك عصافيرين بحجر واحد . للتمسك من
قناة رجال الدولة العثمانية من جهة . وتقديم كمال
أتاتورك على أنه هو المفقد المنظر من جهة أخرى . ولقد
لم حبهك الأمر بصورة تسمح باظهار أتاتورك بأنه فعلاً
المفقد . ذلك أن الحلفاء تظاهروا في أكثر من موقعة
بالتراجع والانحزام أمام أتاتورك . وقد انكشف هذا

السر بعدئذ . فكانوا بذلك يفتحون المجال أمام الدعاية اليهودية لاضفاء صفات البطولة والاقدام على أتاتورك . ولقد سمحت مع الأسف الشديد حملة الدعاية اليهودية في افنار الأتراك ببطولة أتاتورك وزعامته . وساعدها في ذلك أن أتاتورك في بداية الأمر تسر بالاسلام وطلق يحط بحطبة الجمعة في مساجد المدن والقرى . ويأخذ الصور الفوتوغرافية بين العلماء . وكانت الصحافة اليهودية تبرز هذه النشاطات لتقنع الأتراك بتقبل زعامة أتاتورك كبديل للخليفة ورجالاته الذين كانت تصورهم بصورة مشوهة كمستبدين وفاسدين ومخلين أخلاقيا .

رابعة : لم يقتصر الدور الذي لعبته الدعاية الاعلامية اليهودية في مؤامرة القضاء على الكيان الاسلامي لتركيا على تشويه صورة الدولة ورجالاتها ، وابرار قيادات بديلة من شخصيات يهودية الاصل أو عميلة لليهود ، ولكن هذا الدور توسع ليفطر معظم أجزاء الدولة العثمانية . وكان أبرز ميدان له وطننا العربي حيث أخذت الدعاية الاعلامية اليهودية على عاتقها الترويج للأفكار القومية التي اوعزت الصليبية لبعض نصارى

العرب بالتمسدة بها . ومن عجب أن تفتح الدعاية اليهودية الاعلامية من خلال صحفها ومحافلها الماسونية المجال لسدنة القومية العربية للترويج لهذه الفكرة لتنتطلي على كثير من العرب الذين انخدعوا بها ، وظنوا أنهم سيجدون فيها خلاصاً لهم من ظلم كانوا يرزحون تحته بسبب فساد ادارة الدولة . كان اليهود أنفسهم سببه من خلال عملياتهم رجالات جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية من عام ١٩٠٨ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

وعكدا نجد أن الدعاية الاعلامية اليهودية حققت نجاحاً كبيراً حتى نحدث في الترويج لفكرة القومية العربية التي أصبحت بعد قليل اسفينا مزقت به اليهودية والصليبية وحدة الجسم الاسلامي مما مهد السبيل امام أعداء الاسلام لتنفيذ مؤامرتهم لالغاء الخلافة الاسلامية .

خامساً : وعندما ضرب أتاتورك لعنه الله ضربته الخامسة فأبطل مفعول الخلافة الاسلامية ، والمضى الكيان الاسلامي لتركيا ، وأعلنها جمهورية علمانية لا دينية ،

كان للاعلام اليهودي دور وأي دور في الترويج لتلك
الردة الكافرة ومبادئها ، مثلما كان له دور وأي دور
في تشجيع الأتورك على البطش بأية معارضة شعبية ،
وكانت تزين له أن ما يقوم به من مذابح وحشية ضد
المسلمين ليست سوى معارك بطولية ، كما أنها كانت
منبرا لكل دعوات التشنيع بالغرب الصليبي ، والمناداة
بالحرية الفاجرة للمرأة التركية ، والترويج لفنون
الانحلال الخلقي ، معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة
والزنا ليست الا مظاهر للتقدم والتحضّر .



تلك هي بعض ملامح الدور الخبيث الذي لعبته
الدعاية الاعلامية اليهودية بشكل خاص والصليبية
بشكل عام في التهيئة لتنفيذ مؤامرة الردة الكافرة ضد
الخلافة الاسلامية وضد الكيان الاسلامي لتركيا والتي
آتت اكملها الخبيث في عام ١٩٢٤ ميلادية ، مكرسة
أخروج نكبة نصيب أمة الاسلام في العصور المتأخرة ،
وكان من نتائجها تفتيت وحدة المسلمين ، وإبطال مفعول
الخلافة الاسلامية التي كانت الدولة العثمانية رمزاً لها .

ولعل من الفرج نتائجها أيضاً أن الدولة البلشفية
الشيوعية في روسيا خلا لها الميدان في الجمهوريات
الاسلامية الاسيوية فجاست خلالها تقنياً واضطهاداً
وقضاء على كيائها الاسلامي . مكملت بذلك ما بدأه قياصرة
روسيا الصليبيون . وسجل التاريخ آنذاك انهيار
العديد من الجمهوريات الاسلامية لتصبح مجرد ولايات
تابعة للاستعمار البلشفي الشيوعي الجديد .

على أن الخطار النتائج التي أقررتها مؤامرة الردة
التي أطاحت بالكيان السياسي للدولة العثمانية كانت
في الراحة عقبية كزود كانت تقف بشموخ في وجه المخطط
الصهيوي لانتصاب فلسطين المسلمة . وبذلك تحقق
حلم هرتزل . ووجدت الصهيونية الفرصة المواتية
لتسعيد نشاطها في النهاية لنكبة ضياع فلسطين .

ولقد كان من سوء حظ فلسطين . وأهل فلسطين ،
ولفظة فلسطين . أن ينجح اليهود في تحقيق حلم
هرتزل ، بالقضاء على الدولة العثمانية المسلمة التي
كانت تقف سداً منيعاً في وجه المخططات الصهيونية
للاجهاز على فلسطين . والتي كانت شوكة في حلق كل
يهودي .

فإن من حق السلطان عبد الحميد . ومن حق
 العثمانيين الأتراك . على كل عربي وفلسطيني . أن
 يسجل لهم هذا الموقف الشامخ دفاعاً عن فلسطين .
 وأن يراجع كل عربي ومسلم . المعلومات الخاطئة التي
 جهدت القوى الحاقدة في تلفيقها ضد السلطان عبد
 الحميد ضد العثمانيين الأتراك . فما كان السلطان عبد
 الحميد طاغية . وما كان ظالماً . ولا مستبداً . ولم يتمرغ
 في أوحال الملذات . ولا تلطخت يده بدماء الأبرياء . كما
 تصوره أحقاد الحاقدين . مما لا تزال أجيالنا حتى يومنا
 هذا نلغاه مع الأسف الشديد على مقاعد الدراسة في
 أكثر الحاء وطينا العربي .

والذي كان الأسى يشته ويتعظم في النفس المسلمة .
 وهي ترى الكثير من الألسن والأيدي المسلمة مستعرة في
 ترديد الافتراءات الظالمة التي أنصفت بالسلطان عبد
 الحميد . فإن من مقتضيات الأمانة العلمية أن أشير إلى
 أن بعض الأفلام أنصفت السلطان عبد الحميد حتى وهي
 تكيل له الاتهامات الباطلة . كذلك الشهادة التي سجلها

المحامي سليم صويص في كتابه « أتانورك منقذ تركيا » ،
 وبالي نهضتها الحديثة » وهو كتاب كرس أصلاً لـ «حميد
 أتانورك » يقول الأستاذ صويص وهو عربي نصراني
 أردني . وهو يعقد مقارنة بين السلطان عبد الحميد ،
 ورحلات جمعية الاتحاد والترقي : « وهكذا عادت
 جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم ثانية بشكبة أقوى ،
 وبسيطرة أكبر على مقاليد الأمور ، فعزلت السلطان
 عبد الحميد وعينت أخاه محمد رشاد مكانه . والغريب
 أن يصح تعليق المشائق في عهد حكم جمعية الاتحاد
 والترقي أمراً سائطاً وشائعاً ، في حين أن السلطان عبد
 الحميد . بكل ما عرف عنه من قسوة وبطش كان يتورع
 عن شتم المسلم » ويؤثر نفيه من البلاد على أعدائه . »

العثمانيون الأتراك

كان انتماءؤهم الاسلامي فوق أي انتماء

عرقي ، أو قومي ، أو عنصري

شهدت العقود الأولى للدولة العثمانية دخول أعداد كبيرة من البيزنطيين والارناؤوط والارمن في الاسلام . ولقد حرص العثمانيون على فتح قلوبهم على وسعها لهؤلاء المسلمين . وفتحوا المجال أمامهم لمشاركتهم أعباء الجهاد وإدارة الدولة بدون أية حدود . ولم يكن لانتماءاتهم العرقية أو القومية السابقة أي تأثير يمنع من ارتقائهم في مناصب الدولة العسكرية والمدنية . واذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر . الأمير خوسيه ميخائيل الذي أسلم في زمن عثمان ابن أرطغرل وأصبح من قادة الدولة المرموقين . ثم تبعه ابنأؤه وأحفاده على نفس الطريق . واذكر القائد البيزنطي أغرينوس حاكم مدينة بورصة الذي عهد اليه السلطان أورخان بقيادة أحد جيوشه . ثم خلفه ابنه علي بن أغرينوس الذي أسند اليه السلطان الفاتح قيادة أحد جيوشه .

وأذكر من هؤلاء أيضاً الأمير أحمد ابن ملك البوسنة
استيفان . ومنهم أيضاً محمود باشا الذي وصل إلى
منصب الصدر الأعظم في زمن السلطان الفاتح ، والذي
بلغ من شدة تدينه وحسن إسلامه أن الناس كانوا
يلقبونه بالولي .

ولعل في هذه الإحصائية التي سأوردها الآن كما
أوردها إسماعيل حامى دنشمنه في كتابه « موسوعة
التاريخ العثماني » ، الدليل الذي لا حاجة بعده لأي
دليل على صدق العثمانيين في رفضهم الوقوع في متاهات
العصية العرقية أو القومية ، فقد بلغ عدد الذين تولوا
منصب الصدر الأعظم ، أي رئاسة الوزارة ، مئتين
واثنين وتسعين شخصاً . وتوزعوا حسب انتماءاتهم
القومية على النحو التالي :

من أصل تركي ١٢٢ . ومن أصل أرناؤوطي (سكان
الباليا) ٤٩ . ومن أصل بيلنطي ٢٣ . ومن أصل سلافي
٩ . ومن أصل يوغسلافي (بوشناق) ١٣ . ومن أصل
شركسي ١٤ . ومن أصل شيشاني ١ . ومن أصل عربي
٤ . ومن أصل أرمني ٣ . ومن أصل روسي ١ . ومن
أصل يهودي ١ . وينتمى البقية إلى قوميات مجهولة غير
التركية .

وكان أول وزير أعظم من أصل غير تركي قد جرى تعيينه في عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م ، حين عين السلطان محمد الفاتح محمود باشا البيزنطي وزيراً أعظماً ، أي رئيساً للوزراء ، وكان محمود باشا من النصاري الذين حَسُنَ إسلامهم ، بل لقد بلغ من شدة تدينه وتقواه أن الناس كانوا يطلقون عليه لقب «الولي» .

واستمر محمود باشا في تحمل مسؤولية رئاسة الوزراء أربعة عشر عاماً متتالية ، إلى أن نجح محمد باشا ، البيزنطي الأصل ، في الإيقاع بين السلطان الفاتح وبين محمود باشا في عام ٨٧١هـ - ١٤٦٦م ، فعزله وعين محمد باشا مكانه ، لكن السلطان لم يلبث أن اكتشف حقيقة هذا المايق فعزله في عام ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م ، وأعاد محمود باشا اعتباره فعينه قائداً عاماً للأسطول العثماني في بحر ايجه ، وعين اسحق باشا وهو بيزنطي الأصل أيضاً وزيراً أعظماً ، ثم عاد في عام ٨٧٧هـ - ١٤٢٧م ، فعين محمود باشا وزيراً أعظماً ،

وينبغي أن نسارع فنشير إلى أن السلطان الفاتح لم يعزل محمد باشا ، ثم يأمر بإعدامه فيها بعد لكونه بيزنطي الأصل ، كما تدعي المراجع الحاقدة ، إذ لو سح

هذا الزعم ، فكيف تقصر اصرار السلطان على تعيين
اسحق باشا وهو بيزنطي الاصل أيضا خلفا له .

ان السلطان الفاتح لم يعزل محمد باشا . ثم يأمر
بإعدامه . الا بعد أن ثبت له بالدليل القاطع ، والبيئة
الناصة . أن محمد باشا لم يكن صادق الإيمان . بل
كان منافقا . وقد انكشف نفاقه وعداؤه للإسلام ، وحقده
على المسلمين . حين بعث به السلطان محمد الفاتح على
رأس جيش لاختياد عسبان أعلنه بعض أمراء سلطنة
فرمان في مدينة لارنفة . وحين أدرك الأمراء المنعردون
أن قواتهم لن تصمد أمام الجيش العثماني . خاصة وأن
أهالي مدينة لارنفة كانوا يتعاطفون مع السلطان الفاتح .
فروا من المدينة . فأعلن سكانها ولائهم للسلطان الفاتح .
ولكن محمد باشا أصر على قتلهم جميعا من غير استثناء .
بل عمده الى قتل العديد من ضباطه وجنوده الذين أنكروا
عليه الاقدام على قتل الآلاف من المسلمين سكان المدينة .
واقدمه على احراق المساجد فيها .

ولم تلبث أنباء المجزرة أن وصلت الى مسامع
السلطان الفاتح . فاستشاط غضبا . وبلغ به الغضب

مداه . حين نقل اليه بعض ضباط الجيش أنهم سمعوا
محمد باشا يقول بعد أن ارتكب تلك المجزرة :

الآن أشعر بالراحة . بعد أن انتقمتم للقسطنطينية .
وقد نزل الواقعة المؤرخ التركي كمال باشا زاده
في كتابه « تاريخ كمال باشا زاده » .

وكان من الطبيعي أن يعزل السلطان الفاتح ذلك
المتآفق محمد باشا عن منصب الصدارة العظمى . ثم
يأمر بإعدامه . جزاء ما اقترفت يده الأثمتان من مجازر
ضد المسلمين .

ولقد وجد الحاقدون في حادثة عزل محمد باشا
وإعدامه لغرة يفتنون من خلالها جفدهم الأسود ضد
الأتراك العثمانيين . فابرت السننهم . وأفلامهم . تنهم
العثمانيين بالنعصب العنصري والقومي . وتغاضى هؤلاء
الحاقدون عن إقدام السلطان الفاتح على تعيين اسحق
باشا . وهو بيزنطي الأصل . خلفاً لمحمد باشا .

ولقد كان بإمكان السلطان الفاتح . بعد أن انكشف
تآفق محمد باشا . أن يتخذ من خيانة ذلك المتآفق ميروا
المبغض بكل الذين يتحدرون من أصل بيزنطي . أو محل

الأقل لأعضائهم عن المراكز الحساسة التي كانوا يشغلونها في الدولة العثمانية ، ولكنه لم يفعل ذلك بل أصر على تعيين رجل بيزنطي الأصل خلفاً لمحمد باشا ، لأنه كان يؤمن إيماناً صادقاً بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى . وأنه إذا كان التسامح الذي أبداه العثمانيون الأتراك مع العناصر البيزنطية الأصل وغيرها من القوميات الأخرى ، قد أدى إلى لسرّب بعض المتأففين تحت ستار التطاهر بالاسلام ، من أمثال محمد باشا ، إلى بعض مراكز الدولة الحساسة ، فإن هذا التسامح قد أفرز شخصيات كثيرة حسن إسلامها ، وقام الدليل على حسن بلالها في سبيل الله ، من أمثال خوسية ميخائيل ، وأغريوس ، ومحمود باشا ، وغيرهم .

ولئن ثبت فيما بعد ، أن هذا التسامح قد أدى إلى تسرّب عدد من المتأففين الذين يظهرون الاسلام ، ويظنون الحقّ عليه ، إلى مراكز الدولة العليا ، مما عاد على المدى البعيد بالضرر الشديد على الدولة العثمانية ، بل كان أحد الأسباب الرئيسية في انهيارها والقضاء عليها ، فإن هذا التسامح ينبغي أن يسجل كنقطة إيجابية لصالح العثمانيين الأتراك المسلمين ، تؤكد صدق التزامهم

بالاسلام ، الذي جعل رابطة الدين ، ووشيجة العقيدة ،
خوف أية روابط عنصرية أو عرقية أو قومية .

ولعل من المفيد ، أن أورد شهادة المؤرخ النصراني
جورج كيرك الذي كان أستاذا للتاريخ في الجامعة
الأمريكية في بيروت ، إذ يقول في ص ٩ من كتابه « تاريخ
الشرق الأوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر » ،
الطبع بالعربية في عام ١٩٥٧ بالقاهرة .

لقد كان عصر الأتراك أقلية في عاهليتهم الضاربة .
ولم يحاولوا استعمار ما فتحوه من الولايات استعماراً
عاماً ، كما أن الدولة لم تحصر قوام العاهلية في العنصر
التركي الضيق النطاق ، بل كان الاعتبار الأول فيها
أنها عاهلية شاملة ، فكان لكل رجل مهما كان عنصريه
أو موطنه ، مجال لتقلد مناصب الدولة وبلوغ أعلى
الدرجات فيها .

وإذا كان لا بد من توجيه اللوم بسبب ما نتج عن
هذا التسامح ، فلا ينبغي أن يوجه اللوم الى العثمانيين
المسلمين الذين التزموا بما يفرضه عليهم اسلامهم ،
ولم يرفعوا عن العنصرية القومية والعنصرية والعرقية .

امتثالاً ليهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم القاتل : « دعوها
 فإنها منتنة » ، وقد كان بإمكانهم ، كمختصرين ، أن
 يظهروا تعصبا لانتقامهم القومي كأنراك ، لكنهم آثروا
 الالتزام بما يفرضه عليهم الإسلام من معاملة جميع
 المسلمين على قدم المساواة ، وتوفير الفرص أمامهم من
 غير استثناء ، ليعطوا بذلك الدليل الساطع على أنهم
 ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى عصبية الانتماء القومي ،
 وارتفعوا بها إلى رحاب الانتماء العقائدي الشامخ .

إن اليوم ينبغي أن يوجه إلى أولئك المنافقين ، الذين
 فتح الإسلام ، والمسلمون صدورهم على رحبها لاحتضانهم ،
 فأبوا إلا أن يكونوا من الذين قال فيهم رب العزة في
 كتابه العزيز :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما
 هم بمؤمنين ۝ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون
 إلا أنفسهم وما يشعرون ۝ في قلوبهم مرض فزادهم
 الله مرضا ولهم عذاب عظيم بما كانوا يكذبون » سورة
 البقرة ٨ - ١٠ .

وإني لأحسب أن السنة الكثيرين تكاد تنطلق
 بهذا السؤال .

إذا كان العثمانيون قد ارتفعوا بالتزامهم الإسلامي فوق العنصرية القومية والعرقية ، فلماذا انتهجوا سياسة التثريك التي حاولوا من خلالها إجبار رعايا الدولة الذين لا ينتمون إلى القومية التركية ، بما في ذلك المسلمين ، عرباً وغير عرب ، على خلع انتماءاتهم القومية لينضموا إلى بوتقة القومية التركية ؟

اسمعوها عن صريحة داوية ، أن العثمانيين المسلمين يراء برائة تامة من هذه التهمة ، ولا يحسبن أحد أنني اتهم وفوق هذا الأمر - بل أنني أؤكد بكل شدة ، ولكنني أؤكد في ذات الوقت أن الذين تولوا كبر هذه الحريية المنكرة لم يكونوا عثمانيين ، ولم يكونوا مسلمين ، بل كانوا حفنة من الذين أغراهم تسامح العثمانيين الديني ، وترفعهم فوق العنصيات القومية والعرقية ، فسيطروا كالأفاعي إلى كيان الدولة العثمانية بعد أن تسبوا بالإسلام نفاقاً وفكراً ، ثم لم يلبثوا أن تسربوا إلى مواقع حساسة في الكيان السياسي والتشريعي والعسكري للدولة العثمانية - حتى إذا منحت لهم الفرصة ونسوا على السلطة فسيطروا عليها سيطرة خانقة ، ولم يبق للعثمانيين المسلمين أي تأثير في شؤون الدولة ،

ولم يعد الخليفة إلا دمية بين أيدي هؤلاء ، ينطق عليه
قول الشاعر :

خليفة في قصري بني وصيف وبغا
يقول ما قال له كما تقول البغا

ألا ، وإن الذين ارتكبوا جريمة إكراه الناس على
الترك ، هم مجرمو جمعية الاتحاد والترقي ، وجميعهم
من غير استثناء ، كانوا العوبة بيد الصهيونية العالمية ،
من خلال اتصالاتهم للمحافل الماسونية ، التي ترتبط
ارتباطاً عضويًا بالصهيونية ، كما أن معظمهم كانوا من
اليهود الذين تظاهروا نفاقاً باعتراف الإسلام ، والذين
عرفوا باسم يهود الدولة ،

ولقد ظهر أول نشاط تخريبي ليهود الدولة ضد
الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح ، حين
أقدم طيبيه يعقوب باشا على تسميته ، ويعقوب باشا
هذا يهودي كان قبل تظاهرة بالاسلام يسمى باسم
هياسنرو جاكوب .

بيد أن نشاطهم المكثف لتنفيذ مخططاتهم في القضاء
على الدولة العثمانية المسلمة بدأ بشكل ملحوظ في عام

١٨٣٠ . حين افتعلوا أمام الدولة مشكلات أدت إلى
السلاح الجزائر عن الدولة العثمانية ، ثم نجحوا في عام
١٨٨٢ على افتعال أحداث أدت إلى انسلاخ مصر ، ثم لم
تلبث أن تبعها تونس .

ويبلغ نشاط يهود الدونمة ذروته بعد تشكيل
جمعية الاتحاد والترقي حين نجحوا في إيصال اليهودي
مدحت باشا وهو ابن حاخام يهودي مجري ، إلى منصب
الصدارة العظمى . وقد استغل مدحت باشا منصبه ،
فروى الانتخابات مجلس المبعوثان ليضمن فوز ٤٨ نائباً
من غير المسلمين ، من أصل ١١٧ نائباً هم أعضاء المجلس ،
وحين عزله السلطان عبد الحميد ونفاه إلى جدة بعد
تبوت اشتراكه في مؤامرة اغتيال سلفه عبد العزيز ،
قامت قيادة قوى الضغط الصهيونية في العالم تنتصر
لهذا اليهودي الخبيث ، ونطلق عليه لقب «أبو الدستور»
وتلصق بالسلطان عبد الحميد ما هبّ ودبّ من
الافتراءات والباطيل .

ويستند الأسى في نفس كل مسلم حين يرى الكثير
من الألسنة العربية والمسلمة تردد حتى يومنا هذا ،
هذه الافتراءات بحق السلطان عبد الحميد .

ولم يرتدع يهود الدونية بعصير مدحت باشا . بل
طففوا ينفلون سموهم عبر صحيفة أسسها اليهودي
«يلمان» وأطلق عليها اسم «الوطن» . وما تزال هذه
الصحيفة تصدر حتى يومنا هذا . تحمل اسم مؤسسها
ذلك اليهودي الخبيث .

وحين رفض السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٢م
الرشوة المالية الضخمة التي عرضها عليه ثيودور هيرتزل
وايمانويل فرم صو . والحاخام موشيه ليفي . مقابل
السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . اضاعت الصهيونية
الضوء الأخضر لجمعية الاتحاد والترقي لشن الهجوم
الأخير للقضاء على كيان الدولة العثمانية . ولم تلبث
الجمعية أن وثبتت إلى السلطة في عام ١٩٠٨م . لتبدأ
في تنفيذ مخططاتها الرهيبة للقضاء على الدولة العثمانية .
فلجحت في اقضاء السلطان عبد الحميد واستبدلته
بمحمد رشاد الامعة الذي لم يكن يملك من أمر نفسه
شيئاً . ومنذ عام ١٩٠٨ وحتى عام ١٩١٨م . حين
اندلعت الحرب العالمية الأولى . نجح صيغره جمعية الاتحاد
والترقي . من خلال افتعال المشاكل المتلاحقة . في ايقال
الدولة العثمانية إلى أسوأ حالات الفوضى والضعف في

جميع النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية .
وأصبحت الدولة في حالة من الوهن لم تقو معها على
التصدي للضربة الكبرى التي كان يخطط لها مجرمو
الاتحاد والترقي . والتي لم تلبث أن أسفرت عن القضاء
على الدولة العثمانية . وإبطال مفعول الخلافة الاسلامية .
ولا أقول الغاشا . لأن أحدا في هذا الكون . كائناً من
كان . لن يقدر على إلغاء الخلافة الاسلامية .

أعود فأؤكد . أن العثمانيين المسلمين برآء من
جريمة إحصار العرب وغير العرب على التتريك . وبرآء
من المظالم الهمجية التي أوقعها رجالات الاتحاد والترقي
كجبال بانما السفاح وغيره بالأمة العربية . وبرآء من
سياسة التجهيل والافكار التي مارسها زبانية الاتحاد
والترقي في وطننا العربي . وبرآء من رجس احياء
النفرات العرقية والقومية التي فرقت المسلمين وشردتهم
فقد كانت تلك البفورة النجسة من غرس جمعية الاتحاد
والترقي الضالعة في خدمة الصهيونية . ومن غرس
الاقليات غير المسلمة في وطننا العربي . يوحى من
القوى الكبرى المعادية للإسلام .

ولعل أبلغ دليل على صحة ما أوردت ، هذه العبارات
التي أوردتها الأستاذ المحامي سليم الصويص في كتابه
« أتاتورك مفقود تركيا وباني نهضتها الحديثة » الذي
نشر في عام ١٩٧٠ :

يقول الأستاذ الصويص ، وهو عربي نصراني من
الأردن :

« هذا هو سجل ثورة ١٩٠٨ الدستورية (أي الثورة
التي جاءت بجمعية الاتحاد والترقي إلى السلطة) ، سجل
كله بطش وارهاب ، وسيطرة الجيش على السياسة ،
وانتهاج السياسة التي أدت إلى الدمار داخليا وخارجيا ،
وتحويلات الشعارات الدستورية والحريات التي تشدقوا
بها ، إلى ممارسة أبشع صنوف الاذلال والظلم » .

إلا ، فاسمعوها من جيدا ، ان الذين عكروا مياه
الأخوة الإسلامية الصاقية بين العرب والأتراك ليسوا
العثمانيين المسلمين ، بل عصابات جمعية الاتحاد
والترقي .

الا . فاعلموا ايضاً . انه في الوقت الذي كانت
 تقوم من العرب تقوم غضباً على ممارسات عصابات الاتحاد
 والترقي . وكنها شعوبهم للثورة على استبداد الاتحاديين
 وظلمهم . كانت جموع العثمانيين الأتراك المسلمين .
 تنطلق في شوارع اسلام بول في الحادي والثلاثين من
 شهر آذار من عام ١٩٠٩ . يتقدمها العلماء . وطلاب
 الشريعة . واعداد كبيرة من العسكريين . تعلن ثورتها
 ضد تسلط الاتحاديين على الدولة . وترفع بأعلى صوتها
 شعار : الشريعة في خطر . تريد حكم الشريعة . ولم
 تتوقف ثورة الجماهير التركية الا بعد أن تخلى الاتحاديون
 عن الحكم لكنهم لم يلبثوا أن عادوا منسحبين في ظلمات
 الليل النهم . لبسوا على السلطة من جديد بواسطة
 جيش جاء من سلانيك . وكان من كبار ضباطه مصطفى
 كمال أتاتورك . وما من الا أيام الا وكانت اجساد
 خمسين من العثمانيين المسلمين تنقل في شوارع استانبول
 وميادينها . شاهد صدق على مر العصور . ان بني
 عثمان المسلمين رفضوا . مثلما رفض اخوانهم العرب
 المسلمون من بعد . الرضوخ لطغيان عصابة الحق
 اليهودي . جمعية الاتحاد والترقي .

التسامح الديني في زمن العثمانيين الأتراك ميزة ايجابية أنكرها العاقدون

لنحاولت الأحفاد المعادية للإسلام أن تطمس هذه الميزة الإيجابية ، وتستبدلها بفرية ظالمة تزعم أن الأتراك العثمانيين كانوا يضطهدون غير المسلمين ، ويجبرونهم على اعتناق الإسلام ، قسرا . فإن الحقيقة التي تتجاوز أمامها المفترقات العاقدون تؤكد أن العثمانيين جسدوا بصدق أخلاق الإسلام السخية في معاملتهم لغير المسلمين . أقول هذا وبني يدي أكثر من دليل :

أولا : أن طبيعة الإسلام الذي ألهم به العثمانيون ترفض رفضا قاطعا مبدأ الاكراه في الدين ، لا اكراه في الدين ، بل أن أخلاق القرآن ، وعدي النبوة ، تحض على معاملة أهل الكتاب معاملة طيبة ، طالما ابتعدوا عن الكيد للإسلام ، وعن إثارة الفتن ضد المسلمين .

ثانيا : تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين ، أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م ،

وان عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي .
فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالح
والا من غير دينك . فأجابه عثمان :

بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي نعبد .
يقول لنا

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا
حكمت بين الناس ان تحكموا بالعدل » .

وكان هذا التسامح الكريم سبباً في اعتداء الرجل
وقومه الى الاسلام .

ثالثاً : يقول أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقه
على كتاب حاضر العالم الاسلامي . أن السلطان سليم
عندما رأى أن عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود
في الدولة العثمانية قد زاد عن بضعة ملايين ، وأن هذا
العدد ما يملك يزداد عاماً بعد عام ، حدثته نفسه أن
يجد طريقة يتخذ بها من تزايدهم فعزم على أن يخيرهم
بين اعتناق الاسلام . أو فالطرد من أراضي الدولة
العثمانية .

ولكن . عندما ناهى الخبر الى مسامح شيخ الاسلام
العالم المؤمن علي أفندي الزنبيلي . انهى السلطان

معتزلاً على هذا الرأي الذي تأباه طبيعة الاسلام .
وقال للسلطان سليم .

ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود الا الجزية .
فما داموا يزدولها . فقد عصموا منا دماءهم . وأعراضهم .
وعباداتهم . وما يعتقدون . فلا يحق لك أن تزجهم في
دينهم . ولا يحق لك أن تخرجهم من ديارهم .

هنالك أعلن السلطان سليم عن رضوخه لحكم
الاسلام . ورجع عن عزمه . وهنا أتوقف وقفة قصيرة
لأشير الى أن عدد أهل الكتاب ما كان ليزداد تلك الزيادة
لو لم يكونوا يتمتعون في كنف العثمانيين المسلمين
بالحرية الكاملة في عقيدتهم . وعبادتهم . وحرقاتهم
الشخصية . ولو لم يكونوا يتمتعون بالأمان والاستقرار
الذي وفره لهم عدل الاسلام وسماحة الاسلام .

رابعاً : ولقد سجل الأمير سليمان باشا ابن السلطان
أورخان موقفاً كريماً يجسد صدق التزام العثمانيين
بأخلاق الاسلام وسماحة الاسلام في مجال التعامل مع
أهل الكتاب . ففي عام ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م . سجل
التاريخ في صفحاته عملية أول عبور عثماني اسلامي الى
البر الأوروبي للإمبراطورية البيزنطية . حين تسلم
سليمان باشا على رأس ثمانين من صناديده المجاهدين

الى ميناء جيبونك ، فاستولى على جميع السفن الحربية
التي وجدت في الميناء ، واستعملها في جلب الامدادات
من البر الاسيوي ، أما السفن المدنية ، فقد اصر على
ان يترك لأصحابها حرية التصرف بها ، وحين اضطر
الى استعمال بعضها في نقل الامدادات ، اصر على ان
يدفع لأصحابها مقابل ذلك أجوراً مجزية ، وقد كان
بإمكانه ، كمستصر ، ان يصادر السفن المدنية مع غزوها
من السفن الحربية .

خامساً : ويشير المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه
« بيوك تاريخ عمومي » ، أي « التاريخ العمومي الكبير » ،
الى أن أهالي المدن البيزنطية المفتوحة لم يكونوا يعتبرون
استيلاء العثمانيين المسلمين على مدنها مجرد فتح لها
وإنما كانوا يعتبرون ذلك تخليصاً لهم وانقاذاً من ظلم
الدولة البيزنطية ، ويعبر أحمد رفيق عن ذلك بقوله
باللغة التركية القديمة : « أهالي يه أودرجه أمن واعتماد
بخش ايله مشدى كه » ، بولش مسلمان عثمانيليرى .
فالتحقن زيادة غلاصكار صفينيله قبوله باشلا شاردى ،
وترجتها الحرقية بالعربية .

لقد بدأ الأهالي (أهالي المدن البيزنطية المفتوحة)
يشعرون بالأمن والثقة ، لدرجة أنهم كانوا لا يعتبرون

الأمر مجرد فتح قلوبهم . وإنما تخليصاً لهم وإنقاذاً لهم
أيضاً .

والعمرى . أن هؤلاء البيزنطيين ما كانوا ليعتبروا
العثمانيين المسلمين منقذين ومخلصين لهم من ظلم
البيزنطيين . لولا أنهم وجدوا منهم كل تسامح ومعاملة
طيبة كريمة .

ويروي أحمد رفيق أن أورخان بن عثمان . عندما
فتح الله عز وجل عليه مدن مالتية . وازميت . وازنيك .
عامل أهالي هذه المدن من النصارى معاملة طيبة . وأقام
العدل بينهم . فأسلم الكثيرون منهم . أما الذين أثروا
المقاومة على دينهم . فقد ألغى عليهم . وأعراضهم .
وأموالهم . وحرى بهم . مقابل الجزية . كما سمح لمن
أراد الهجرة منهم إلى داخل الامبراطورية البيزنطية ببيع
أموالهم . وأخذ كل ما يرغبون من أموالهم ومناعهم
معيهم .

سادساً : يقول الدكتور فاضل حسين في كتابه
« محاضرات عن مذكر لوزان وآثاره في البلاد العربية »
المطبوع في عام ١٩٥٨ م .

كان الأتراك العثمانيون أقوياء وأصحاء ، وقد حكم الدولة الجديدة سلسلة من الحكام القديريين الذين اتبعوا سياسة التسامح الديني نحو رعاياهم من غير المسلمين ، فاستطاعوا استمالة الكثير من الأمراء المسيحيين المنشقين على حكوماتهم .

سابعاً : ولقد سبق أن قلت أن الفضل ما شهدت به الأعداء ، ولذا فاني سأورد شهادات مصادر معادية للإسلام تؤكد أن العثمانيين أظهروا تسامحاً دينياً كريماً تجاه غير المسلمين .

في الصفحة رقم ٢٧٦ من المجلد الثامن من الموسوعة اليونانية الشهيرة المعروفة باسم (Megalhi Elliniki Engiklopedia) المطبوعة في أثينا في عام ١٩٣٢م تذكر الموسوعة اليونانية أن أورهان بن عثمان بعد أن استسلمت له حامية مدينة إرييك البيزنطية أعطى الأمان لجميع أهاليها من الروم البيزنطيين ، على حياتهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وممتلكاتهم .

وتدرف الموسوعة اليونانية قائمة :

أن النصارى البيزنطيين ألروا البقاء في مدينتهم وأعلاكهم تحت سيادة العثمانيين ، عندما غنروهم أورهان

بين البقاء فيها أو أخذ كل ما يريدون من أموالهم ومناعهم
والذهاب إلى أية منطقة بيرنطية أخرى إن أرادوا البقاء
على ولايتهم للامبراطورية البيزنطية .

✠ أما شهادة الكاتبة الأمريكية الدكتورة ماري
ملزبانريك فهي تعدل ألف شهادة ، ذلك أن هذه الأمريكية
عاشت في استانبول في بداية هذا القرن وألفت كتاباً
اسمته « سلاطين بني عثمان » فغنت في صفحاته ركام
أحفاد قرون طويلة من العدا للاسلام والمسلمين .

نقول ماري ملزبانريك في كتابها الذي ترجمه إلى
العربية في عام ١٩٢٢ حنا نصن وكامل مروة ، وكامل
صموئيل مسيحه :

« الواقع أن السلطان محمد قد أظهر تسامحاً عظيماً
مع المسيحيين ، وليس أدل على تسامحه معهم من قوله
لهم : « انني أقسم بحرمة مساجد الله التي تشيد بها .
إن أضمن لكم أن تجتمعوا في كنائسكم للصلاة والتضرع
إلى الله » .

✠ ويقول المؤرخ الفرنسي كارادوكو في كتابه
« مفكرو الاسلام » :

• حين دخل السلطان محمد كنيسة أياصوفيا ، أراد أن يراعي شعور النصارى ، فلم يشأ أن يحو
العديد من صور القسيساء التي امتلأت بها جدران
الكنيسة ، وقد كان بإمكانه كمنتصر أن يفعل ذلك ،
ولكنه اكتفى بأن أمر بأن تغطي لأن الاسلام يحرم
الصور . -

• ولعل شهادة المستشرق الألماني كارل بروكلمان
التي وردت في الجزء الثالث من كتابه ، تاريخ الشعوب
الاسلامية ، تعطي الدليل الناصح على أن الأتراك
العثمانيين أظهروا تسامحا كريما في معاملتهم لأهل
الكتاب ، فقد ذكر كارل بروكلمان أن تطلع شبان
النصارى الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص
السلطان العثماني ويخلصون له .

ولعمري ، انه لولا ما كان يراه هؤلاء النصارى من
تسامح كريم ، ومعاملة نبيلة ، تفرضها سماحة الاسلام ،
واخلاق الاسلام فانهم ما كانوا يطمحون الى تحقيق
مستقبل باهر في كنف العثمانيين ، وما كانوا يندفعون
بكل حماس للدخول في دين الله عز وجل .

ولعل هذا الخبر الذي نشرته مجلة نصرانية يعطي
مريداً من الأدلة على صدق التزام العثمانيين بسياسة
التسامح الديني مع أهل الكتاب ، فقد نشرت مجلة
«المشرق» التي كانت تصدر بإدارة كلية القديس يوسف
وبرأس تحريرها الأب لويس شيخو اليسوعي ، في
عددتها الصادر في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١١م ،
الخبر التالي على الصفحة رقم ٨٩٨ :

« من بين الدلائل على أن الدولة العثمانية العليا
تريد المساواة بين عناصرها المختلفين ، أنها قامت في
العام المنصرم ، بتعيين أحد مواطنينا الروم الكاثوليك
وهو السيد ابراهيم أفندي صوصا ، واليا على إحدى
الولايات العثمانية الهامة التي تضم جزائر بحر سفيدي
والأرخسبيل ، وروديس ، وكريالوس ، ويتوي ، وصافس ،
وعدالي ، ولتنوس ، واعبروس » .

وترد في المجلة قائلة :

وقد دأب دولته مؤخرًا ليشغل منصب الوزارة
لإدارة شؤون اليريد في الدولة .

ويعود إلى الدكتوراة الأمريكية عاري ملزبانريك ،
لبقدم هذه الشهادة التي أوردتها في كتابها « سلاطين
بني عثمان » .

تقول ملزباتريك :

الواقع أن السلطان محمد الفاتح أظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين (النصارى) ، وكان لكل ملة في زمنه رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان مباشرة ، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة ، وأماكن للعبادة وأديرة ، كما أنه لم يكن يحق لأحد أن يتدخل في مالياتها ، وكانت تطلق الحرية لكل ملة لتتكلم اللغة التي تريدها ،

ويعرف برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية في جامعة لندن في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » :

لقد أصبح اليونانيون الأرثوذكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني ، فلم يعودوا أعداء ، يخشى جانبهم بعد أن تحولوا إلى جيران مسلمين ،

ويردف برنارد لويس قائلاً :

كانت المسيحية (النصرانية) واليهودية ، في نظر العالم الإسلامي ، دينين سماويين ينظر إليهما المسلمون نظرة تسامح ، وقد انعكست هذه النظرة التسامحية من

المسلمين في المعاملة الحسنة . والتسامح الكبير الذي يلقاه اتباع الديانة المسيحية (النصرانية) في المجتمعات الإسلامية . بالرغم من موقف المسيحيين العدائي للإسلام كديانة منافسة .

ثامناً : ولقد كان لغير المسلمين في مجلس المبعوثان مجلس النواب . كما يروي أمير البيان شكيب أرسلان الذي كان نائباً في المجلس . خمسة عشر مقعداً للنصارى الأرثوذكس . وخمسة عشر مقعداً للنصارى الأرمن . وخمسة مقاعد لنصارى العرب . وبالإضافة إلى هؤلاء كان في المجلس عدد من النواب اليهود .

ثاسعاً : ويتبين أن أمير إلى أن رعاية الدولة العناية من غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام خاص أطلق عليه اسم « نظام الملل » . وهو نظام يرمي شؤونهم الدينية ويفصل في قضاياهم الشخصية . ولم تكن الدولة بموجب هذا النظام تتدخل في أي شأن من شؤونهم . وكانت تعبر الرؤساء الدينيين لكل طائفة غير مسلمة مسؤولين عن شؤون تلك الطائفة .

وقد وضع هذا النظام في زمن السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية مباشرة . ثم عدل وأضيفت عليه

امتيازات جديدة في عام ١٨٥٦م بعد انتصار الأتراك
على روسيا في حرب القرم ، وسمي هذا النظام العدل
باسم « خط همايون » .



والآن ، وبعد أن سبقنا هذه الوقائع والحوادث ، وعي
لبعض من قبض من منات الوقائع والحوادث المعاملة
التي يرعرع بها تاريخ الأتراك المسلمين ، والتي تصلح
كل واحدة منها لتكون دليل البرائة للعثمانيين المسلمين
من جريمة اضطهاد النصارى وغيرهم من أهل الكتاب .

الآن ، تبقى لدينا كلمة ، لا بد أن نقولها .

إن هؤلاء الذين يرمون الأتراك المسلمين بقرينة
اضطهاد النصارى ، واجبارهم على دخول الاسلام ،
مثلهم كمثل الغالية التي تحدثت عن الفضيلة ، واللص
الذي يتحدث عن الأمانة ، والمجرم الذي يتحدث عن
الشفقة والرحمة ، بل لكائي بالذي قال المثل السائد
« رميتي بدائها وانسلت » ، ما أراد بعثله هذا هؤلاء
الحاقدون المفتريين .

والأفكيف يجروا هؤلاء على أنهام الأتراك المسلمين
 بهذا الجبنان اللثيم . ثم يتناسون ما اقترفته أيديهم
 وسيوفهم من مجازر وحشية ضد المسلمين ؟
 ولئن كان أولئك الحاقدون يتناسون . فإن ذاكرة
 التاريخ لا تنسى .

فذاكرة التاريخ تقول على لسان ابن الأثير في كتابه
 " الكامل في التاريخ " :

« ان ملك الروم نيقفور يوحنا بنى على مقربة من
 حدوده مع ديار الاسلام مدينة ليكون قريباً من تخوم
 المسلمين . وكان المسلمون في طرسوس . ومصيصة في
 حال من الضك والضعف لا يقدرون معها على التصدي
 لنيقفور . فأرسلوا اليه يطلبون مهادنته . فوعدهم بذلك .
 وأرسل اليهم وفداً يعقد العهد معهم . فلما عاد الوفد
 الى نيقفور . أخبروه بما وجدوا عليه المسلمين من ضعف
 وجوع . حتى بلغ بهم الأمر أن يأكلوا الكلاب الميتة .
 فأمرهم ذلك بالغدر . وتفجرت الأحقاد في قلبه . فانكر
 وعده . وهجم على مصيصة . فاقتحمها في الثالث عشر
 من رجب من عام ٢٥٤هـ - ٩٦٥م . وأعمل السيف في

المسلمين ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم استباح المدينة
واسرق من بقي من أهلها المسلمين رجالا ونساء وأطفالا
وشنتهم في سائر بلاد الروم ، وكانوا قريبا من مئتي
الف انسان .

ثم مضى نحو طرمسوس ، فلقية أهلها ببرايات
الاستسلام ، فدخلها ، وعمد الى مسجدتها الكبير ، فحوله
الى اسطبل لحيوله ، ثم عمد الى المسلمين ، فخيرهم بين
الدخول في النصرانية ، أو أن يطردهم خارج ديارهم
وأموالهم ، فتنصر منهم من تنصر ، وآثرت الكثرة منهم
الهجرة الى ديار المسلمين فرأوا بدينهم وأعراضهم .

وذاكرة التاريخ تقول أن الألوف من جنود الحملة
الصليبية الرابعة ، عندما وصلوا الى القسطنطينية ،
وكانت آنذاك عاصمة النصرانية ، الشرقية ، لم يكثرثوا
لاخوة الدريس التي تجمعهم بأهالي القسطنطينية ،
فاستباحوها ، ونهبوا كنائسها ، وأعملوا السيف في
أهلها من اخوانهم في الدين .

وذاكرة التاريخ لم تنس ، واني لها أن تنسى ،
تلك المجزرة الوحشية التي اقترفها الصليبيون ، عند

استبلاهم على أنطاكية عام ٤٩١هـ ، حيث طفق أهل
المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم
على قتل المسلمين .

ويروي مؤلف كتاب « زبدة الجلب » أن الصليبيين
لظفروا في قتل كل من وجدوه في أنطاكية من المسلمين .
فقتل وأسروا وسبي من الرجال والنساء والأطفال ما
لا يحصى .

وذاكرة التاريخ لم تنس ، وأني لها أن تنسى .
تلك الجزيرة الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في بيت
القدس يوم اقتحموها عام ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م . إذ لبث
الصليبيون أسبوعاً كاملاً يقتلون فيه كل ما تطاله
سيوفهم من المسلمين . حتى بلغ شهيداء المسلمين في تلك
الجزيرة أكثر من سبعين ألف شهيد بين رجل وامرأة
وطفل .

وبلغ من حقد هؤلاء الصليبيين أن يكتب أحد أمرائهم
إلى زوجته في أوربا يبشرها أن « جنودنا كانوا يخوضون
حتى سيقانهم في دماء المسلمين » . بل إن المؤرخ الصليبي
وليم الصوري لا يملك إلا أن يعترف أن بيت القدس

أصبحت . مخاضة واسعة من دماء المسلمين تبعث على
الاستهزاء .

وذاكرة التاريخ تقول أن القائد المجري هونياد بعد
أن حرم جيشاً للعثمانيين المسلمين في زمن السلطان مراد
الثاني عام ١٥٢٢م . قتل جميع الأسرى المسلمين وكان
عددهم بنوف عن العشرين ألف . وأنه كان يتلذذ أثناء
سأوله لرجبات طعامه بمساعدة جلاديه وهم يقطعون
رؤوس الأسرى المسلمين . ويأمر بتجميع تلك الرؤوس
على شكل اكوام لا تلبث أن تصبح هدفاً لهونياد وحاشيته
يرشقونها بالحصى وهم يضاحكون .

وما لنا نكاد ننسى محازر الأندلس . ومحاكم
تفتيشها . وما أدراك ما محاكم تفتيشها . يوم كان
يؤتى بالمسلم مكبلاً بالحديد . فيوضع على النطع .
ويعلو من فوق رقبة سيف الجلاد . أو يؤتى به إلى
شفا حفرة لتسعر فيها النيران . ثم يخرج بين النصرانية
أو الموت قتلاً بالسيوف أو تحريقاً بالنيران . حتى لم
يبق في الأندلس كلها مسلم واحد يشهد أن لا إله إلا
الله . بل لقد اشتط الحقد بأولئك الصليبيين فصدوا
إلى مقابر المسلمين يحرقونها من على وجه الأرض .

أفبقى بعد كل هذه الأدلة وتلك ، أي شك في
براعة الأتراك المسلمين من فرية اضطهاد النصارى ؟
ثم أبقى بعد كل هذه الأدلة وتلك ، أي شك في أولئك
الذين يرمون الأتراك المسلمين بتهمة الوحشية ، هم
أنفسهم المتوحشون ، الذين انقطع بينهم وبين
الإنسانية والخير كل رباط .

العثمانيون الأتراك

لعبوا دوراً رائداً في إعادة لحمة الوحدة
الاسلامية . ولم يكونوا مستعمرين
ولا مستبدين

« الاستعمار العثماني » !

« الاستعمار التركي » !

« نير الاحتلال التركي » !

« الاستبداد التركي » !

هذه العبارات الطالة ما زالت أجيالنا المسلمة
تلقاها في معظم مدارسها . ومعاهدها . وجامعاتها .
وكانها يقين لا يرقى اليه شك . . .

ان حق الاحوة الاسلامية . وان مقتضيات الامانة
العلمية . تضمان في عنق كل مسلم ومسلمة غيور
مسؤولية النضدي لاستنكار هذا البهتان العظيم الذي
الضن بالعثمانيين الأتراك .

ان الأتراك العثمانيين لم يستعصروا البلاد العربية .
وانما اهادوا لحمة الوحدة اليها تحت الراية الاسلامية .
بعد ان رزعت طويلا في مستنقعات التشردم والخلافات
التي كانت تحدث بين الزعامات الهزيلة .

ان الأتراك العثمانيين لم يعتمدوا على البلاد العربية .
وانما همعوا لايقادها من أخطار الاطماع الصليبية التي
كانت توشك ان تنقض عليها والتي وصلت جيوشها
البرتغالية الى البصرة بعد ان سيطرت على عمان
ومسقط ومضيق هرمز . لتتخذ منها نقطة انطلاق نحو
الحجاز ومصر والشام . بينما عيادت الاساطيل
الاسبانية شمال أفريقيا العربي المسلم .

ان الأتراك العثمانيين لم يكونوا مستبدين ، ولم
يفقدوا حريات العرب أو غير العرب . ويكفي الأتراك
العثمانيين فخرا ان المواطن العثماني ، عربيا كان ،
أو تركيا . أو كرديا أو آيا ما كان امتناؤه القومي .
كان يجوب أرجاء الدولة العثمانية من اسلام بول وحتى
طنجة واليمن . وهو مطمئن انه ينقل في وطنه . لا
يساله احد عن جواز سفر ولا تتبعه عيون السلطة .

ويكفى الأتراك العثمانيين فخراً أنهم رواد الوحدة
العربية الحقيقية حين وحدوا البلاد العربية كلها تحت
راية الاسلام . فلما أن غابت تلك الراية التي تشرف
العثمانيون برفعها ، انفرط عقد الوحدة العربية
الحقيقية ، وتمزقت الراية الواحدة لتصبح بضعا
وعشرين راية ، وأصبح المواطن العربي لا يستطيع
السفر من بلد عربي الى آخر ، الا بعد ان ينتظر ساعات
طويلة على الحدود ، وقد يسمح له بالسفر ، وقد لا
يسمح له فيعود من حيث أتى ، وقد يقذف به في دهايز
المخابرات فلا يدري أحد متى يعود :

فيا أيها الذين يبحثون عن الحق والحقيقة ،
اسمعوها صريحة داوية :

ما كان العثمانيون الأتراك مستعمرين ولا مستبدين
والما كانوا رواد الوحدة الاسلامية الحقيقية وحماة لها .
اقول هذا وبين يدي أكثر من دليل .

اننا حين نقرأ التاريخ القديم والحديث ، نجد أن
كل الهجرات الاستعمارية ، أيا كانت أراياها ، كانت
تطلق بدافع الاطماع الاقتصادية ، أو السياسية ،

أو الدينية ، التي كانت تسخوذ على عقول المستعمرين ،
لفرضهم باستعمار غيرهم من الشعوب .

وحيث ندرس تاريخ العثمانيين الأتراك نجد أنهم
كانوا حريصين على أن لا يرفعوا سيوفهم إلا في وجه
أعداء الاسلام : البيزنطيين الأرثوذكس ، وحلفائهم
صاري أوروبا الكاثوليك ، ونجد أن الأتراك العثمانيين
لم يرفعوا سيوفهم في وجه مسلم إلا بعد أن يكونوا قد
استنفدوا جميع الوسائل لمنع ذلك ، فكانوا يضطرون
لذلك مرغمين ، ومن الأوصاف أن نذكر أن معظم الذين
كان العثمانيون يحاربونهم من شرادم أمراء الأمارات
السلجوقية كانوا يستعينون على العثمانيين بأعداء
الاسلام من البيزنطيين أو البنادقة .

لقد كانت أنظار العثمانيين الأتراك منصوبة نحو
القسطنطينية باعتبارها السد المنيع الذي يحول بين
الاسلام وبين التقدم في أوروبا النصرانية ، ولم يكن
يشغلهم عن هذا الهدف إلا ما كان يقتضيه بعض أمراء
السلاجقة من مكائد ضد الدولة العثمانية ، كما حدث
حين أعلن الأمير علاء الدين أمير سلطنة قرمان السلجوقية

النور على السلطان مراد بن أورخان ، زاعما أنه
الورث الاحق بالسلطنة باعتباره الوارث الشرعي
لزعامة دولة سلاجقة الروم . فاضطر السلطان مراد
آنذاك الى ارجاء خطته لغزو القسطنطينية ليتفرغ للقضاء
على فتنة علاء الدين .

وفي الوقت الذي حرص فيه العثمانيون الانراك
على تحميم القوى الاسلامية في الاناضول التركي لمواجهة
العدو البيزنطي - الأوربي . فقد حرصوا على توثيق
العلاقات الاخوية الاسلامية مع المراكز الاسلامية الأخرى
واعتبروا أهمية خاصة لتوثيق علاقاتهم بدولة المماليك
التي كانت تعتبر أقوى زعامة اسلامية في البلدان العربية
بحكم خضوع مصر والشام والحجاز لسيطرتها .

وكانت اول محاولة عثمانية لتوثيق علاقات الاخوة
الاسلامية بدولة المماليك في عهد السلطان مراد بن
أورخان حين أرسل وفدا خاصا الى سلطان مصر يشرح
فيها بتحرير مدينة أدرنة عن البيزنطيين . وبرزح
الرأي الاسلامي فوقها في عام ٧٦٣هـ - ١٣٦٢م .

وحين استشهد السلطان مراد بن أورخان بضربة
قذيفة من جندي صليبي أثناء تقدمه لجرحى معركة

قوصوه (١٧٩١هـ - ١٢٨٩م) ، كان لخبر استشهاد
وفاء حزن عميق في جميع أنحاء العالم الاسلامي . وكان
السلطان المملوكي برفوق من أوائل الذين أرسلوا وفداً
للتعزية بالشهيد .

وفي عهد السلطان العثماني بايزيد الصاعقة ابن
مراد ، عرض السلطان بايزيد على سلطان مصر المملوكي
برفوق تشكيل جبهة اسلامية موحدة تلاحق « أهل
الصليب » في غزى دارهم أوروبا .

وحين انضم ليمبورلك بغداد عاصمة الخلافة
العباسية التي كانت آنذاك اسما على غير حسمى ، لم
يكتف العثمانيون الأتراك بإعلان تضامنهم مع الخليفة
العباسي ، بل اتخذوا موقفاً علنياً الى جانبه ، فاحتضنوا
الأمير أحمد جلالي ، أمير بغداد الذي التجأ اليهم ،
وأمدوه بالمعونة العسكرية والمادية للتصدي لليمبورلك
وإستعادة مركز الخلافة العباسية ببغداد منه . وكان
لهذا الموقف العثماني تأثير كبير في توثيق العلاقات بين
الدولة العثمانية وبين دولة المالك التي كانت تعتبر
نفسها حامية الخلافة العباسية بعد أن التجأ اليها

الخلافة العباسي المتوكل على الله الأول ثمراً من
تيمورلنك . وقد لعب السلطان برقوق دوراً كبيراً في
افتتاح الخلافة العباسي بإسباج لقب «سلطان الروم»
على بايزيد الصاعقة . فاشتهد حتى نصارى أوروبا
وتيمورلنك . فقد اعتبروا هذا التكريم لبازيد بمثابة
اعتراف رسمي من أكبر سلطة دينية إسلامية في ذلك
الوقت متمثلة في الخلافة العباسي . بسلطة بايزيد على
الأجزاء الأوربية التي استولى عليها من البيزنطيين .

واردات العلاقة الأخوية الإسلامية بين الدولة
العثمانية ودولة المماليك حين بعث السلطان محمد
الفاتح بوفد ينقل إلى سلطان مصر أبنال شاه بشرى
إسبلا، المسمى على القسطنطينية . وينقل ابن أبياس
في كتابه «بدائع الزهور» وصفاً لوصول وفد السلطان
الفاتح إلى القاهرة فيقول :

« لما وصل وفد الفاتح ، زفت البشائر بالقلمة .
ونودي في القاهرة بالزينة . ثم إن السلطان عين برصباي
أمير أخور رسولاً إلى ابن عثمان لتهدئته بالفتح .

وبفضل المزاج المصري ابن تغري بردي في كتابه
 « حوادث الدهور » أن وفد السلطان الفاتح وصل إلى
 القاهرة في الثالث والعشرين من شوال من عام ٨٥٦هـ
 وفق ٢٧ تشرين أول من عام ١٤٥٢م . وكان مع الوفد
 هدايا وأسيران من عظماء الروم . فسر السلطان والناس
 قاطبة بهذا الفتح العظيم . ودقت البشائر لذلك .
 وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً . ثم طلع الوفد ومعه
 الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين ، الخامس والعشرين
 من شوال . بعد أن اجتاز الوفد شوارع القاهرة .
 وكان الناس قد زينوا الحوائط والأماكن . وأمعنوا
 في ذلك إلى الغاية . وعمل السلطان الخدمة (الضيافة)
 بالحوش السلطاني في قلعة الجبل .

وكان نفع القسطنطينية أثر كبير في إيقاف مشاعر
 الاحوة الإسلامية التي كانت ظروف التشرذم السياسي
 المستحكمة آنذاك في العالم الإسلامي قد كبتها عقوداً
 طويلة .

بيد أن حرص العثمانيين الأتراك على تعزيز الروابط
 الأخوية الإسلامية مع دولة المماليك الشراكسة بدأ
 يقابل مشيء من الغشور من قبل المماليك بعد أن شعروا

بتعاطف شعبية العثمانيين بين المسلمين نتيجة لاستيلائهم
على القسطنطينية ورفعهم راية الاسلام فوق ربوعها .
ولم يطل الامر حتى بدأ المماليك الشراكسة يتوجهون
خيفة من العثمانيين الأتراك . فتبدلت نظرتهم الى
العثمانيين من مشاعر الاعتزاز الى مشاعر الغيرة . ولم
يعودوا يعتبرون العثمانيين اخوانا في الدين . بل منافسين
لهم على زعامة المسلمين التي كان المماليك الشراكسة
يعتبرون انفسهم الأحق بها باعتبار انهم كانوا يحتضنون
ال خليفة العباسي . رمز الخلافة الاسلامية .

ولس كانت الوقائع التاريخية تشير الى إرادة
العثمانيين الأتراك من السبب في تلك الأزمة التي
اعتبرت علاقتهم بالمماليك الشراكسة . فان من مقتضيات
الحق والحقيقة . أن نومي ، بأصابع الاتهام الى المماليك
الشراكسة ، ونحميلهم مسؤولية ما وصلت اليه العلاقات
العثمانية المملوكية من فتور . لم يلبث أن تطور الى
مهاجمة مكشوفة . حين أقدم المماليك في عام ٨٧٦هـ -
١٤٧١م على مهاجمة مقاطعتي مرعش وديار بكر اللتين
كانتا تخضعان للحماية العثمانية . وازداد الامر سوءاً
حين أقدم المماليك على اعدام حاكم المقاطعتين شهوار بك .

تطيق زوجة السلطان محمد الفاتح ، وتعليق رأسه
على باب زويلة في القاهرة .

ومع ان ذلك الاستفزاز السافر قد اغضب السلطان
محمد الفاتح ، الا انه آثر ان يكظم غيظه ، حقنا للدم
المسلم ان يتساب في حجر الهدف الذي ينبغي ان يسيل
من أحله ، خاصة وانه كان يواجه في ذلك الوقت احلافاً
صليبية متواصلة تكبد للدولة العثمانية المسيلة .

بل لقد عمد السلطان الفاتح الى تناسي تلك الحادثة
الاستفزازية ، وارسل الى الملك الأشرف سيف الدين
قائماً يطلب اليه السماح له بإنشاء استراحات
لاستضافة حجاج بيت الله الحرام على طول طريق الحج
الى مكة المكرمة على حسابه الخاص ، فبا كان من السلطان
قائماً الا ان اشتط في استفزازه للسلطان الفاتح ،
فرفض طلبه ، بعد ان خشي ان تزيد هذه الاستراحات
من شعبية السلطان الفاتح في بلاد الشام ومصر
والعراق .

وينبغي ان نشير هنا الى نقطة في غاية الأهمية ،
وهي ان السلطان الفاتح آثر ان يكظم غيظه ، وينجم

لخصه . استجابة لمقتضيات الاخوة الاسلامية التي كثر
العثمانيون يحرصون على ابرازها في جميع تصرفاتهم .
ولو انه اراد أن يقابل استفزاز المماليك الشراكسة
واساتهم لاستطاع أن يفعل ذلك بكل تأكيد . ولو انه
فعل ذلك فانه سيجد من المسلمين في مصر وبلاد الشام
عاطفا وتأييدا . باعتباره بطلا اسلامياً حظي بشرف
قيادة الجيش الذي شرفه الله عز وجل بفتح
القسطنطينية . وطراً لان المماليك الشراكسة لم يكونوا
يستمعون آنذاك بشعبية صادقة سواء في مصر أو الشام .

ولقد ذكرنا ان المماليك الشراكسة صنعوا
استفزازاتهم للدولة العثمانية في وقت كانت تواجه فيه
أخطار المكافحة الصليبية . التي تمثلت آنذاك في تشكيل
حلف صليبي اتفق عن مؤتمر ترأسه البابا بول الثاني
في رمضان من عام ٨٧٥هـ (كانون ثاني ١٤٧١م) .
وانضم اليه ملك نابولي وملك الاراغون . وزعماء
جمهوريات البندقية . وفلورنسة . وسينى ولوكوس .
وزعماء دوقيات ميلانو . وفراري . ومودينا . وسافوي .
ولقد بلغ استفزاز المماليك الشراكسة للعثمانيين مداً
حين قبلوا التفاوض مع مندوبي هذا الحلف الذين

عرضوا على المماليك الدخول في الحلف ضد الدولة
العثمانية . أسوة بالأمير حسن الطويل الذي قبل
الحلف مع الصليبيين ضد العثمانيين المسلمين .

ولئن كان المماليك الشراكسة قد اعتذروا عن
الدخول في الحلف . إلا أنهم وعدوا بأن يمدوا يد العون
إلى المأوئين للدولة العثمانية في الأناضول المتاخم لحدود
بلاد الشام . وخاصة للأمر حسن الطويل .

بعد أن مكر الله عز وجل كان أكبر من مكر المماليك
الشراكسة وحليفهم حسن الطويل . فبينما كان المماليك
الشراكسة يمدون استعدادهم لتقديم أية مساعدات إلى
حسن الطويل بما في ذلك المشاركة الفعلية في النشاطات
الحربية ضد العثمانيين في المناطق المناخنة لحدودهم
مع الدولة العثمانية . كان الغرور قد بلغ بحسن الطويل
مبلغا جعله يعتقد أنه صاحب الحق الوحيد في وراثة
الدولة العثمانية ودولة المماليك الشراكسة معا . فبعث
برسالة إلى زعماء البندقية . يقترح عليهم تعديل خططهم
بحيث لا يقصر هجوم جيوش الحلف الصليبي على
الدولة العثمانية وحدها . وإنما على مصر والشام أيضاً .
وكان من حسن حظ العثمانيين أن يقع رسول حسن

الطويل في قضية العثمانيين ، فالتكشفت حقيقة حسن
الطويل ، وما كان من السلطان الفاتح الا ان ارسل
الرسالة الى السلطان الاشرف قايتباي في مصر ، الذي
ادرك بعد ان تكشفت له حقيقة حسن الطويل ، ان
عليه ان يثق على الحياد ، رغم ما كان يضمرة في
سريره من عداوة للدولة العثمانية .

ويذكر ان تشير الى انه لو نجح البابا بول الثاني
في جر المماليك الشراكسة الى التحالف الصليبي الذي
ترأسه ، أو لو ان حسن الطويل لم يقدم على
خيانة المماليك الشراكسة ، واستمر في تعاونه معهم
بإخلاص ، فإن الدولة العثمانية كانت ستجد نفسها
في مأزق خطير يهدد كيانها بالانهيار الكامل ، حيث
كانت ستقع بين مطرقة الحلف الصليبي ، وسندان
التحالف المملوكي مع حسن الطويل .

ولم تلبث العلاقات العثمانية المملوكية ان عادت
الى التوتر اثر التحالف الأمير جم ابن السلطان محمد
الفاتح الى السلطان قايتباي بعد ان استتب أمر السلطنة
العثمانية للسلطان بايزيد ابن السلطان الفاتح ، وقد
تعهد قايتباي ان يبالح في اكرام الأمير جم لتدعيم مركزه
السياسي في العالم الاسلامي .

وقد بلغ ثولر العلاقات العثمانية المملوكية مداه في عهد السلطان سليم الأول الملقب بياورز . أي الفاطم . ففي الوقت الذي كان فيه السلطان سليم قد عقد معاهدة صلح لمدة طويلة مع دول عديدة من بينها سلطنة مصر المملوكية . والسندقية والمجر وروسيا . ليفرخ للتصدي لخطر الدولة الصفوية الشيعية . فبحر اقدم سلطان المالك الجراكسة البرجية فاصود الغوري على عقد تحالف عسكري وسياسي مع الشام اسماعيل الصفوي ضد الدولة العثمانية . وكان من نتيجة هذا التحالف اصطدام الجيوش العثمانية الموجهة الى محاربة الصفويين . بعراقيل عديدة اثناء احتيازها للمناطق التي تخضع لسيطرة دولة المالك الشراكسة البرجية . ولم يقف استفزاز المالك للعثمانيين عند هذا الحد بل صعد المالك استفزازهم بسماعهم لوفد الشام اسماعيل الصفوي بالمرور من الأراضي التي يسيطرون عليها في طريقهم الى الهندية لطلب المساعدة ضد العثمانيين .

وحين حقق العثمانيون نصراً حاسماً ضد الدولة الصفوية الشيعية . ورفعوا الراية العثمانية الاسلامية

فوق البلاد التي كانت تخضع لحكم الصفويين وأسماء
العراق . تقاض نفوذ الراية الصفوية الشيعية وخاصة
في البلاد العربية . ولم يبق في أفق العالم الاسلامي
غير الرايتين العثمانية والمملوكية . وكان استمرار هذه
الازدواجية يعني استمرار حالة التشرذم الاسلامي .
وكان من الطبيعي أن يدرك المسلمون أن وحدتهم التي
يشتملونها لن تتحقق الا اذا طويت احدى هاتين
الرايتين . وكان لا بد للأصلح . والاقوى . ان يغلب .
فانخفضت راية المولة المملوكية . وأصبح سماء العالم
الاسلامي حكرا لراية واحدة هي راية الدولة العثمانية
الاسلامية . بعد ان حسمت الجيوش العثمانية معركة
بلاد الشام في مرج دابق التي أسفرت عن مقتل السلطان
المملوكي قانصوه الغوري في يوم الاحد ٢٥ رجب من
عام ٩٢٢ هـ (٢٥ آب ١٥١٦ م) . ثم معركة مصر في
٨ محرم من عام ٩٢٣ هـ (٢١ كانون ثاني ١٥١٨ م) .

واتساءل الآن :

هل من الانصاف ان نتهم العثمانيين الانراة بتهمة
استعمار مصر والشام ؟

بل ان من الظلم الفادح ان نرعى الأثر الك العثمانيين
 بهذا الشهان العظيم . اننا حين نراجع تسلسل المراحل
 التي مرت بها العلاقات العثمانية المملوكية نجد ان
 العثمانيين كانوا حريصين على توثيق علاقاتهم الاخوية
 الاسلامية باخوانهم المسلمين في مصر وبلاد الشام ،
 ولذلك حرصوا على توثيق علاقاتهم بدولة المالك حرصاً
 على ان يظهر الصف الاسلامي صفاً موحداً في وجه المطامع
 الحاقدة . ولكن المالك لم يقابلوا هذه العواطف
 الاسلامية الصادقة بما تفرضه مقتضيات الاخوة
 الاسلامية . بل عمدوا الى افعال المشاكل لاستفزاز
 الدولة العثمانية . وبلغ بهم الامر الى درجة المجاهرة
 بالعداء للعثمانيين . والدخول في ائتلاف مع اعدائهم .
 نارة مع حسن الطويل . واخرى مع البنادقة . واخيراً
 مع الصفويين الشيعة . ولم يتركوا مناسبة يتدخلون
 فيها في شؤون الدولة العثمانية الداخلية الا وانتهزوها ،
 فطفقوا يحضنون المعارضين للدولة . ويمدونهم
 بالمساعدة . بل بلغ بهم الامر الى حد الهجوم على بعض
 المناطق الخاضعة للدولة العثمانية . واعدام حاكمها

شقيق زوجة السلطان محمد الفاتح . وتعليق راسه في
باب رواية في القاهرة .

ان العثمانيين الأتراك لم يفعلوا المشكلات للكب
ضد دولة المالك . بل ان المالك هم الذين كانوا
يفعلون المشكلات .

وان العثمانيين لم تكن لهم قوايا ظاهرة . ولا
مسترة . ضد دولة المالك . بينما ثبت بأكثر من
دليل سوء نية المالك ازاء الدولة العثمانية . ولقد
تواترت الروايات . ومنها ما ذكره الدكتور عبد العزيز
سليمان نواز في كتابه «الشعوب الاسلامية» . تؤكد
ان السلطان سليم لم يكن مصرا على اكمال زحفه على
مصر بعد انتصاره على السلطان قانصوه الغوري في معركة
مرج دابق . وانه عرض على السلطان الجديد طومان
باي ان يعلن خضوعه للدولة العثمانية في مقابل ان
يسند له السلطان سليم حكم مصر . ولكن طومان باي
أصر على الحرب التي انتهت بالقضاء عليه وعلى دولته .
ومن هنا نستطيع ان نجد في موقف السلطان العثماني
سليم دليلا جديداً على عدم وجود النية المسيئة لدى
العثمانيين لاختلال مصر . وانهم انما كانوا يهدفون

الى تحقيق الوحدة الاسلامية تحت راية واحدة ، ولو
ان طومان باي تنازل عن غروره ورضي بعرض
السلطان سليم . لتست الوحدة الاسلامية آنذاك بروح
اخوية ، ولم يكن العثمانيون ليضطروا لتحقيقها عنوة .

ثم ، هل من الانصاف ان نلوم الأتراك العثمانيين
اذا هم تصدوا للرد على محاولات الماليك للأجهاز على
كيانهم السياسي بتحالفهم مع حسن الطويل ، ثم مع
السادقة ، ثم مع الصفويين ؟

وبأي منطق يصبح توحيد المسلمين تحت راية واحدة
استعماراً ؟

لقد كانت حال البلاد العربية قبيل ارتفاع الترابية
العثمانية الاسلامية فوقها ، كمثل حالها اليوم ، دويلات
متشرذمة متناحرة ، هذه تسك بخناق تلك ، وتلك
تأمر على أخرى ، والكل هدف لاطماع الطامعين .

كانت مصر والشام تحت سيطرة الماليك ، وكانت
البلاد قد وصلت في أواخر عهد الماليك الى حالة بائسة
من الاضطراب والفقر والظلم والفساد ، ولم يقتصر
عداء الماليك للعثمانيين على الدخول في تحالفات ضدهم

مع الصفويين . بل لقد رفضوا السماح للجيوش
العثمانية بالمرور من الأراضي التي يسيطر عليها المماليك
في بلاد الشام وهم في طريقهم للتصدي للجيوش الصليبية
البرتغالية التي احتلت عدن ومضيق هرمز ووصلت إلى
البصرة في عام ٩٢١ هـ .

وكانت العراق تحت سيطرة الدولة الصفوية
الإيرانية الشيعية المذهب . وهي الدولة التي اشتط بها
الحشد ضد العثمانيين إلى درجة عقد تحالف مع
البرتغاليين الصليبيين ضد الدولة العثمانية .

وكانت بلاد شمال أفريقيا تواجه خطر تكرار غزاة
الأندلس على أراضيها . وكانت طرابلس الغرب (ليبيا)
تزدح تحت سيطرة الاحتلال الإسباني الذي بدأ في
عام ٩١٦ هـ . ثم ملأوا سيطرتهم إلى الجزائر فاستولوا
على مليلة وجرجرة بينون والمرسى الكبير .

وكانت معظم موانئ مراكش (المغرب) على طول
الساحل الأطللس تحت سيطرة البرتغاليين .

وأينم إلى الاضطبوط حين تعد أذرعهم لتنهش في
فريست من كل جانب . . . ٩

كذلك كانت حال البلاد العربية آنذاك . فتلما هي
حالتها اليوم . فقد كان الخطبوط الاطماع الصليبية
يشرب أطعاره في كل جزء منها .

وكان من الطبيعي ان يتطلع المسلمون الى من ينقذهم
من هذه المحن . فخرجوا الى دولة المماليك الشراكسة
البرجية . فراعهم ان يجدوها تنظر الى الأمر نظرة
المفرج . وكان الأمر لا يعنيها . فقد كان العداء للعثمانيين
قد أصبى بصيرتها عن الخطر الصليبي الماحق .

وكان من الطبيعي ان توجه انظار المسلمين نحو
دولة بني عثمان التي ملأت شهرتها الآفاق باعتبارها
العدو الأول لاطماع الصليبية . فتوالت الوفود الشعبية
الى السلطان سليم مستنجد به لانقاذ بلاد العرب المسلمة
من خطر الصليبية الحديد المتمثل بالبرتغاليين
والاسبان .

أما استجاب العثمانيون لصرخات واصلهاء التي
انطلقت من أفواه الملايين من مسلمي البلاد العربية في
المشرق والمغرب . فقدموا بجيوشهم لطرد البرتغاليين
والاسبان منها . البرى الحاقدون ليزعموا ان ذلك كان
استعبارا عثمانيا . وسيطرة تركية . . .

ونأتي الآن إلى الحرية التي تزعم أن العثمانيين
الأتراك مارسوا سياسة الاستبداد ضد العرب . فأنتم
إلى براف العثمانيين الأتراك من هذه الحرية . بل إنهم
هم الذين خلصوا العرب المسلمين من الاستبداد والظلم
والعنت . الذي كان يلحقه بهم رجالات دولة المماليك
الشراكسة الرجعية . وكتب التاريخ التي أرخت للمماليك
ملينة بالروايات المتواترة عن أشكال العنت والارهاق
التي كان يتعرض لها المصريون وأهل الشام من أمراء
وقواد وعساكر المماليك . وكيف كان هؤلاء يتغنون في
ابتكار الأساليب الهجية لأرغام الناس على دفع الأتاوات
والضرائب لهم . ويصف الدكتور علي حسون في كتابه
« تاريخ الدولة العثمانية » حالة البلاد العربية بقوله :
« كانت البلاد العربية مفككة الأوصال . تحكمها
دويلات صغيرة » .

ويصف المزارع المرحوم محمد كرد علي في الجزء
الثاني من كتابه « خطط الشام » حالة بلاد الشام قبيل
الفتح العثماني لها بقوله :

« كانت أمور السلطنة «العوية» في كثير من الأدوار بأيدي
ضعاف الأحمال من أسرة ذلك السلوك (السلطان المقيم

بصره . وقد اشتد الظلم حتى قال العالم ابن الفرقد
النابغى المولوى لنائب السلطان :

لقد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسنا .

فاستاء نائب السلطان المملوكى واسع العالم
الشيخ ما يكره .

ويرد محمد كرد علي قائلا :

لقد ازمت الفوضى في أرجاء الدولة وساءت حالتها
الاقتصادية والاجتماعية . وأحس الناس مما وصلت
إليه الدولة (المملوكة) من ضعف فأخذوا يتطلعون إلى
الدولة العثمانية . وكان الناس لا فرق عندهم إذا
سوى عليهم الترك الأعاجم . إذ لا فرق في الإسلام بين
عربي وأعجمي في الحقوق والواجبات . وأقصى ما يتطلبه
الناس سلطان عادل عاقل .

ويستطرد محمد كرد علي قائلا :

إن ما نال السكان في أواخر حكم المماليك قد عجل
بالقضاء عليهم . وفتح قلوب السكان للسلطان سليم
الأول . وخدمه كثير من أهل الشام قبل مجيئه . فكانوا

برافوته بالأخبار ويطلعونه على مواطن الضعف عند
 الماليك . وحين انتصر بنو عثمان لم يبك على الماليك
 الا من كانوا يتمتعون بخيراتهم . واصبحت الشام بالفتح
 العثماني آمنة من غزوات الشمال والشرق والجنوب .
 أما العثمانيون فقد حرصوا على ان يطمئن جميع
 الناس الى انهم يعاملون كمواطنين مسلمين في دولة
 مسلمة تصون كرامتهم . لا كرعايا يساقون بالسياط
 وتحتن كرامتهم صباح مساء . وتبتز أموالهم من دون
 حساب .

ويذكر الدكتور علي حسون في هذا الصدد في كتابه
 « تاريخ الدولة العثمانية » (ص ٥٩) ان السلطان سليم
 ومن بعده السلطان سليمان القانوني كانا يهدفان الى
 جعل البلاد العربية جزءا من الكيان العثماني (الاسلامي)
 الواحد . واتهما حرصا على منع أية اجراءات من شأنها
 المساس بالعرب . وان العلماء المسلمين من العرب كانوا
 يتمتعون بسلطات واسعة . وانهم كانوا على اتصال
 مباشر بالعاصمة اسلامبول .

ويذكر الدكتور احسان حقي في تعليقاته على كتاب
 « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الذي ألفه المرحوم

محمد فريد بك المحامي ، ان الأتراك كانوا لا يفرقون
بين مسلم ومسلم مهما كان انتماءه العرقي واللغوي ،
وان العرب كانوا شركاء للأتراك في الحكم ، وان اللغة
العربية كانت اللغة الرسمية المستعملة في البلاد العربية
في القضاء والادارة .

ويرد الدكتور احسان حقي قائلا :

لقد ظلمنا العثمانيين اذ سميناهم مستعمرين ونحن
منهم ، وظلمناهم اذ قلنا انهم مخربون ونحن منهم ،
وظلمناهم اذ قلنا انهم اساءوا الى البلاد ونحن منهم .

ويذكر الأستاذ محمد جميل بيهم في كتابه ، العرب
والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ان حالة البلاد
العربية قبل الفتح العثماني كانت قد وصلت الى أشد
درجات السوء ، وان العالم الاسلامي كان يتطلع الى
مسجد بلطمة من الهاوية التي سقط فيها ، فلما خرج
آل عثمان الى ميدان الكفاح وظهرت بوادر نجاحهم في
حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية ، علق المسلمون
عليهم الآمال ، واتجهوا بقلوبهم اليهم ، فالعالم الاسلامي
الذي كان قد استولى عليه اليأس من جراء الكوارث

التي حاققت به في الشرق والغرب . شعر الرعية
الانتصارات التي أحرزها العثمانيون . سواء في البر
أو البحر . بحياة جديدة ردت اليهم الآمال . ورفعت
رؤوسهم ككرة أخرى .

ويستطرد الأستاذ محمد جميل بيهم ، فيشير إلى
أن العثمانيين الأتراك قد خلفوا العرب في رفع راية
الاسلام . وأن المسلمين الذين كانوا فريسة لغزاة الشرق
والغرب . وجدوا في آل عثمان ذلك المنقذ الذي كانوا
يتربصونه . بل وجدوا فيهم أكثر من هذا امبراطورية
استعادت كرامتهم . ورفعت رايتهم ككرة أخرى فوق
الدعوة التي كانت تطفئ عليها في أمس القريب .

ويذكر الدكتور عبد العزيز سليمان نوار في كتابه
« الشعوب الاسلامية » ، ان فتح العثمانيين للشرق
العربي (مصر وبلاد الشام والعراق والحجاز واليمن)
كان سهلا وسريعا بعكس فتوحاتهم في البلقان وفارس .
وحين يحاول تفسير مقولة الدكتور نوار نجد ان التفسير
المنطقي لسهولة الفتح العثماني في الشرق العربي يرجع
إلى ان سكان المشرق العربي وكلهم مسلمون كانوا لا
يرون في العثمانيين عدواً ينبغي معارضة . ولذلك

كانت استجابتهم للمصاليك فائرة . فلم يلتحقوا بأعداد
كبيرة في الجيوش المملوكية ، مما سهل على العثمانيين
الانصراف على الجيوش المملوكية الرسمية .

ويردق الدكتور عبد العزيز سليمان نوار موضحاً
الدور الجليل الذي لعبه العثمانيون في إبعاد الخطر
الصليبي البرتغالي الحبشي عن الأراضي المقدسة ،
فيقول :

لقد كسب الحجاز كثيراً من وراء ذلك الارتباط
السريع بالدولة العثمانية ، فقد كانت حملات البرتغاليين
على البحر الأحمر متتالية وبلغت حدتها في عام ١٥١٧م
حين وصلت إلى جدة بالذات ، فقام العثمانيون بإرسال
قوات حشدها من تكرار العدوان البرتغالي .

ومن ناحية أخرى كان إرسال العثمانيين حملاتهم
إلى اليمن ومساعدتهم لإمارة عدلاء الإسلامية ضد
الحلف البرتغالي الحبشي ، سبباً في إبعاد الخطر
الصليبي عن الأراضي المقدسة الإسلامية .

وإذا كنا نلوم العثمانيين في أنهم فشلوا في تجميع
قلوب أهل اليمن حول الحكم العثماني ، فإن اللوم

يجب ان يوجه الى امة اليمن أنفسهم من حيث انهم
فشلوا في ادراك ان القوات العثمانية لم تأت الى اليمن
ابغاء الكسب المادي منه ، وانما ابغاء الدفاع عن بلاد
المسلمين عامة واليمن بصفة خاصة ، ولقد اثبتت
سيطرة العثمانيين على سواطي الخليج العربي ، انهم
كانوا يقومون بدور الدولة الاسلامية العامة المسؤولة
عن الدفاع عن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ،
وعلمنا بذل العثمانيون جهوداً بحرية كبيرة في المياه
البحرية ضد البرتغاليين ، فانهم بذلوا جهوداً مثلها
في شمال افريقيا ضد الاسبان .

ولكن تذكر أهمية هذه الشهادة التي اوردتها
الدكتور تولز . ينبغي ان نشير الى أن الخطر البرتغالي
والاسباني لم يكن خطراً عاجزاً ، وانما كان خطراً ماحقاً
كاد يعصف بشرق الوطن العربي ومغربه لولا ان الله
عز وجل ساق العثمانيين الأتراك للتصدي له .

فالبرتغاليون ، اندفعوا الى المياه الجنوبية الاسلامية
وهم يحملون فكرة صليبية واسعة ، تؤججه أحقاد قرون
طويلة كان سكان شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا
والبرتغال) يفسرونها ضد الاسلام والمسلمين ، وكان

بابوات روما يؤججون هذه الأحقاد الصليبية في قلوب
البرتغاليين . وما زالوا يشجعونهم على تصعيد حملاتهم
ضد السواحل الإسلامية . حتى أصبح البرتغاليون
لا يتورعون عن المجاهرة بأن تدمير المقدسات الإسلامية
في الحجارة يأتي في مقدمة أهدافهم .

أما الخطر الإسباني . فقد كان مثلاً آخر للحقد
الصليبي ضد الإسلام والمسلمين . و زاد من حدة خطورة
الخطر الإسباني . أن نقوة نصرهم ضد المسلمين في
الاندلس . قد أغرتهم بتوسيع نطاق نشاطاتهم الحربية
إلى شمال أفريقيا لاجتثاث المسلمين منها كما فعلوا في
الاندلس .

ويؤكده الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه . العرب
والترك . حقبلة الدور الرائع الذي لعبه الأتراك
العثمانيون في حماية البلاد العربية من الخطر الصليبي .
فيقول :

يحتل العثمانيون الأتراك مركزاً فريداً في تاريخ
الحرب لا تحتل مثله أية دولة أخرى في التاريخ . وعندما
عجز المماليك عن حماية العالم العربي من البرتغاليين

والاسبان والصقويين الشيعة ، تدخل العثمانيون كحمى
ومحررين ، ورحب العرب ، ولا سيما في بر الشام
بقدوم العثمانيين ، ونظروا اليهم كمنقذين ، ونجى
العثمانيون في حماية العالم العربي من اعدائه الخارجيين
اكثر من ثلاثة قرون ، وتمكنوا من منع الكائنات
الافرنجية (البرتغالية الاسبانية الجرمانية) من الاطباق
على العالم العربي .

وبعد ...

فلعلنا نكون قد اقصت الدليل على بطلان الفرية
التي ترسم ان الاتراك العثمانيين كانوا مستعمرين
ومستبدين للبلاد العربية .

ولعل الأيدي الحريضة على الحق والحقيقة تمتد
الى كتب التاريخ التي ما زالت آجبالنا تقرا فيها هذه
الفرية الطائفة ، فزيلها منها ، وتستبدلها بالحقيقة
الباضعة التي تؤكد ان العثمانيين الاتراك لم يستعمرُوا
البلاد العربية ، ولكنهم اعادوا اليها لحة الوحدة
الحقيقية تحت راية الاسلام ، وحموها من اخطار الاحقاد
الصليبية ، برتغالية واسبانية وبابوية ، وان العثمانيين

الأتراك لم يستبدوا بالشعوب العربية ، وإنما تأخروا
معهما تحت ظلال الإسلام .

وعلى الذين يجاهرون بفرحتهم بزوال ما يطلقون عليه
بهنا « وطننا » الاستبداد العثماني ، أن يقارنوا حالنا
اليوم . بهالنا بالأمس يوم كنا جزءاً من الدولة العثمانية ،
والى لاكاد أجزم أنهم لم يفعلوا ذلك . لترحبوا على
أيام « الاستبداد العثماني » . ولجنوا عودتها . إلا إذا
كانوا يظنون أن وجود بضع وعشرين راية في سماء
وطننا العربي أفضل من وجود راية واحدة . والا إذا
كانوا يظنون أن ضياع فلسطين أفضل من بقائها ، والا
إذا كانوا يعتقدون أن الانتظار على مراكز الحدود التي
تحول بين المواطن العربي وبين اخوانه الآخرين أمر
يسعد على البهجة والسعادة . والا إذا كانوا يظنون أن
وجود اضيارة لكل مواطن عربي في دهاليز المخابرات
أمر يشعر المواطن العربي بالأطمئنان على مستقبله
ومستقبل عائلته . والا إذا كانوا يعتقدون أن علاقاتنا
بالانجليز والأمريكان قد جلبت لنا العسل واللبن .
والعزة والكرامة . والحرية والتقدم . التي حرمتنا منها
العثمانيون الأتراك .

الجيش العثماني

لم يكن جيشا انكشاريا تشكل من اطفال
النصارى ، بل كان جيشا اسلاميا ،

قوامه ابطال الاسلام

من حيث الافراءات التي الصفقتها الأحقاد الصليبية
اليهودية بالأتراك العثمانيين المسلمين ، تلك القرية التي
تزعّم أن العثمانيين كانوا ينتزعون اطفال النصارى من
احضان آبائهم وامهاتهم ، ليكرهوهم على اعتناق الاسلام ،
ثم يلحقونهم بالجيش العثماني .

وقد تبني هذه القرية اللينة معظم المؤرخين
الأجانب ، واذكر منهم كارل بروكلمان ، وجيبوتز ،
وجب ، وسومرفيل ، وموردتميل .

وتزعّم القرية أن العثمانيين كانوا ينتزعون اطفال
النصارى من بين اعماليهم ويجبرونهم على اعتناق
الاسلام ، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى
بنظام «الدشمة» ، وزعموا أن هذا النظام كان يستند
الى ضريبة اسلامية شرعية اطلقوا عليها اسم « ضريبة
الغلمان » ، واسموها احيانا « ضريبة الابناء » ، وهي

ضريبة زعموا انها تبيع للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا
خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية ، باعتبارهم
خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين .

وينقل كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب
الاسلامية (العثمانيون الأتراك وحضارتهم) ، تفاصيل
من ضريبة الفلمان المزعومة فيقول :

ان ضريبة الفلمان كانت تجمع كل خمس سنوات
ثم تقامرت المدة في ما بعد حتى صارت تجمع آخر
الأمر مرة كل سنة . وكان الاختيار يقع في يادي الأمر
على فلان واحد من كل خمسة فلمان ، ثم صارت
الدولة تلتزم فيما بعد جميع الفلمان السليمي البنية
من تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشر .

ويزعم بروكلمان أن الموظفين العثمانيين كانوا
يأخذون الرشوى من آباء الفلمان الأثرياء ليتركوا
لهم أبنائهم ويعود بروكلمان ليؤكد أن ضريبة الفلمان
على ما كانت عليه من قسوة لم تولد لدى الآباء الذين
كان أبنائهم ينتزعون منهم مصدر قلق ، أو ألم كبيرين
بسبب ما كان هؤلاء الآباء يؤملونه لأبنائهم من مستقبل
ياهر من انضمامهم إلى الجيش الجديد .

كلام يهدم بعضه بعضاً .

إذا . ما دام أن الآباء لم يكونوا يجدون في التحق
أبنائهم بالجيش الجديد مصدر قلق ، بل يجدون في
ذلك مصدر أمل بمستقبل باهر لأبنائهم ، فلماذا
يدفعون الرشاوى . ليحولوا بين أبنائهم وبين ذلك
المستقبل الباهر الذي ينتظرهم ؟؟ ١٢

على أن الأمر الذي يبعث على الدهشة والعجب ،
أنك لا تقرا في أي مصدر من تلك المصادر التي تنفت
مثل هذه المزاعم وتبحث عن ضريبة الفلماں أو عن
ضريبة الكراء النصارى على الاسلام ، الا ويتولد لديك
الطباع أن هذه المزاعم هي من صياغة مؤلف المصدر
نفسه ، فكل واحد منهم ينفت الضريبة بمعلومات تختلف
عن المعلومات التي تنفتها المصادر الأخرى ، وتزداد
الدهشة أنك لا تجد في مصدر من هذه المصادر يسند
روايته بأي سند تاريخي ، كان يذكر اسم المصدر الذي
نقل عنه مزاعمة سواء كان كتاباً أو مخطوطة أو مؤرخاً
معيناً . ويزداد العجب أن هؤلاء الزاعمين لا يقدمون بين
يدي مزاعمهم أية نصوص من مواد تلك الضريبة الغريبة
المعجبية التي يطلقون عليها اسم ضريبة الفلماں ، ولا
يشيرون إلى اسم واضعها ، ولا إلى تاريخ وضعها وما

يؤكد بطلان هذه المزاعم ، وبرائة العثمانيين المسلمين
من وزرها .

وأجدي هنا مضطراً للتوقف قليلاً عند عبارة وردت
على لسان كارل بروكلمان وهو يتحدث عن معاملة
العثمانيين للعلماء النصارى الذين يزعم أنهم كانوا
يسرعون من بيوت آبائهم بوحشية ويكرهون على ترك
معتقداتهم ويجبرون على اعتناق الاسلام .

يقول بروكلمان بالحرف الواحد :

وكان العلماء يصنفون أصنافاً خمسة (لا يذكر
شياً عن حدود هذه الأصناف الخمسة أو مواصفاتها) ،
وكان تلاميذهم يلتزم المبادئ الانسانية الى أبعد
الحدود . على الرغم من صرامته .

عجيباً . كيف يجتمع الضدان في شيء واحد . كيف
يكون العثمانيون المسلمون في غاية الانسانية تارة ،
ثم يكونون في غاية الوحشية تارة اخرى في نظر
بروكلمان . . .

الا ما أشد جرأة هؤلاء على الباطل ، ولتأني بالذي
وضع مثل القاتل (رمى بدائها وانسلت) ما أراد

بسلطة هذا الأهلأء الخافدين من أعداء الاسلام ، الذين
يتناسون مجازرهم التي أوقعوها بالمسلمين . ليرموا
المسلمين العثمانيين بهذا البهتان العظيم . وهم أول
من يعلم أن أهالي المدن البيزنطية التي فتحها الله على
المسلمين العثمانيين كانوا يعتبرون المسلمين مخلصين
ومخلصين لهم من البيزنطيين وفسادهم .

أما كلمة «دوشرمة» ، فهي كلمة تركية تكتب باللغة
التركية Doaorme ، دوشرمة وكانت تكتب في السابق
دوشرمة بزيادة الفاء . ولكن الأصح أن تكتب بدون
الفاء . وهي تعني في اللغة التركية الاسقاط أو السقوط ،
وتطلق عادة على المواليد حديثي الولادة الذين تجهض بهم
أمهاتهم فيخرجون إلى الدنيا أمواتاً ، أو على الذين تلدهم
أمهاتهم سراً . ثم يقدفون في الطرقات أو على أبواب
الملاجئ . ثم انسحبت هذه الكلمة على كل طفل لقيط أو
مضرد لأي سبب من الأسباب .

وفي بلاد العرب يجري اللسان كثيراً بهذه الكلمة
ويقال : رجل داشر ، يراد به الرجل الذي لا يعرف
له ولي أمر يرجع إليه في شؤونه . ويقال : امرأة

دائرة . . يراد بها المرأة التي لا يعرف لها ولي أمر
يرجع اليه في شؤونها .

ويزعم مقترحو هذه القرية ان نظام الدوشرمة كان
يستلزم كما ذكرت قبل قليل ، الى ضريبة غريبة من
نوعها . زعموا ان المسلمين العثمانيين فرضوها على
تضاريف المدن البيزنطية المفتوحة واطلقوا عليها اسم
ضريبة الأبناء أو الغلمان . وزعموا ان هذه الضريبة
كانت تمثل حصة بيت مال المسلمين من غنائم المدن
المفتوحة . يستعمل خمس عدد اطفال كل مدينة .

ويشرح مطلقو هذه القرية في هرائهم . فيزعمون
ان السلطان كان يرسل وكيلاً الى كل مدينة وقرية
عسائية . ويطلب من قسيسها كشفاً بأسماء الاطفال
الذين قام بتعميدهم . فيختار الوكيل من بينهم عدداً
يعادل خمس مجموعهم الكلي . ممن تتراوح أعمارهم
بين الثامنة والعاشرة . ثم ينقل هؤلاء الاطفال الى
العاصمة حيث للقطع الصلة نهائياً بينهم وبين ذويهم .

ويضفي المقتررون في هذيانهم فيزعمون ان هؤلاء
الأولاد كانوا يكرهون على التحول الى الاسلام . بسجود

وصولهم إلى العاصمة ، ويجري ختانهم ، ثم ينتحون
بمدارس خاصة زعم يروكلمان أنها كانت أربع مدارس
أحدها في السرايا القديمة في استانبول وأخرى في
السرايا الجديدة في استانبول ، علماً بأن استانبول لم
تكن قد فتحت للمسلمين في زمن السلطان أورخان
والسلطان مراد وهذا اللذان تزعم الغربة أن أحدهما
هو الذي ابتدع ضريبة العلمان ، والثالثة في إدنة
والرابعة في بيزة ، يتعلمون فيها عبادي الإسلام والنفا
التركية ، والتاريخ الإسلامي العام ، والتاريخ العثماني
والنظم العثمانية ، وفق مناهج وضعت خصيصاً لتجود
كل أثر من آثار أصولهم وعواظفهم النصرانية الأولى ..

والحقيقة ، أن نظام الدشرمة المزعوم ليس سوى
غربة دأبت على تاريخ مراد بن أورخان والسحب
من بعده على العثمانيين قاطبة . فلم يكن نظام الدشرمة
هذا كما يزعم الحاقدون لأرغام النصاري على الإسلام ،
والما كان نظاماً إنسانياً أخذت الدولة على عاتقها بموجبه
مسؤولية رعاية اللقطاء والمشردين من الأطفال النصاري
الذين تركتهم الحروب المستمرة ابتلاء أو مشردين ..

والاسلام الذي يدين به العثمانيون . ويحترمون به ،
ويستبدون به في شؤونهم . يرفض رفضاً قاطعاً تلك
الطريقة غير الانسانية في انتزاع الاطفال من احضان
آبائهم وامهاتهم . وقطع أية صلة لهم بهم . وليس في
الاسلام ذكر لهذه الطريقة العجيبة القريصة التي
يسونها طريقة الغلمان . الاساء ما يفترون .

ولو اننا عدنا الى دراسة ظروف الفتح الاسلامي
العثماني للمدن البيزنطية . فاننا سنرى ان عددا كبيرا من
الاطفال قتلوا آباءهم وامهاتهم نتيجة موتهم في المعارك
التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين . او في أثناء حرب
آبائهم وامهاتهم . وهو امر يحدث في كل حرب .

ولم يكن غريباً ان يذهب المسلمون . بعد عرق عنهم
من ساحة وشغلة . اولئك الاطفال اليتامى والمشردين
الذين غاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم
آبائهم وامهاتهم . ولا عجب اذن ان يسعى المسلمون
لاحضان هؤلاء الاطفال وتأمين مستقبل كريم لهم .
وعمل من مستقبل كريم وآمين الا في الاسلام .

افسان عرصي المسلمون على ان يعتنق الاطفال
المشردون الناهيون الاسلام . انبرى المفترون يزعمون

أن المسلمين كالسوا يتزعمونهم من احضان آباؤهم
وامهاتهم ؟ ويكرهونهم على الاسلام ؟

من هنا جاءت الفرية ما يسمى بنظام «الدشرفة» .
فلقد راع الحاقدين أن يرعى المسلمون العثمانيون
هؤلاء الأبطال الناهيين المشردين ويسبقون عليهم حنان
الاسلام وساحة الاسلام ويلحقونهم بركب الاسلام .
لقد حالهم ذلك ، واعى بصائرهم ، وفجر براكين
الحقد في صدورهم فلم يحدوا طريقة ينقون بها حقدهم .
الا في اطلاق هذه الفرية . والصاقها تارة بأورخان بن
عثمان وتارة بمراد بن أورخان . ومن بعدهما بالعثمانيين
قاطبة .

ومن العجب الذي يصت على الأسي أن هذه الفرية
الحاقدة . وهذا البهتان اللئيم ما فتى أبناء المسلمين
ينلقونه في مدارسهم وجامعاتهم . وكأنه أمر مسلم به
لا يرقاه شك .

ولكم يشهد الأسي في نفس المسلم ويتعاطم . حين
يكشف أن هذه الفرية . لا بل هذا البهتان العظيم .
اللئيم . قد انطلق على العديد من المؤرخين المسلمين .
وبعضهم يشهد له بالغيرة على الاسلام . ولا نزكي على

لله أحبا ، فطفقوا . وما برحوا حتى يومنا هذا ،
يرددون هذا البهتان في مؤلفاتهم .

فالمؤرخ المسلم محمد فريد بك المحامي . يزعم في
كتابه . تاريخ الدولة العلية العثمانية ، أن السلطان
« كان يأخذ الشبان من أسرى الحرب النصراني ويفصلهم
عن كل ما يذكرهم بأصلهم وجنسهم ويربيهم تربية
إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان ،
ولا حرفة غير الجهاد في سبيل الله » .

ويزعم الدكتور علي حسون في كتابه « تاريخ
الدولة العثمانية » . أن هذا الجيش الجديد قد تكون
« من أبناء الدول الأوروبية المفتوحة الذين دربوا عسكرياً
وللقنوا الإسلام منذ الطفولة في رعاية السلطان العثماني
حيث كان هو المختص بهم » .

ويزعم المؤرخ المسلم محمد كرد علي في كتابه
« خطط الشام » . أن الجيش الجديد « تشكل من أولاد
المسيحيين (النصارى) من الرعايا العثمانيين كالبوشتاق
والرؤوم والصرب والبلفار والألبان . بحسب اللزوم »
وبسوجب قانون التجنيد المعروف عندهم بقانون الـ
«دفنرمة» . وذلك من أهل الرؤوم إيلي ومن سكان

الأصول على قلة ، ويعفى من ذلك الأرمن وسكان
جزيرتي ساقز ورودى ، ويأخذونهم من أهلهم في سر
العائنة الى الخامسة عشرة ، ويربونهم تربية اسلامية
ثم يجعلونهم في النكنات في الأستانة .

ويقول المؤرخ المسلم عمر عبد العزيز هذه الحرية
في كتابه : محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ،
التي يدرس في بعض الجامعات العربية .

ومن المؤسف أن مثل هذه الروايات رغم ما يبشئ
من تناقض ، وما فيها من ضعف سمعيته بعد قليل ،
وعلى الرغم من أن آراء من الذين تناقلوها في مؤلفاتهم لم
يستندوا بسند تاريخي موثق ، فإنها قد انطلت على
معظم المؤرخين العرب والمسلمين ، وتناقلتها مؤلفاتهم .
وما حنت أحيانا العربية المسلمة تتلقى هذه الحرية في
مدارسها ، ومعاهدها ، وجامعاتها ، وكأنها يقين لا يرقى
اليه شك ، وما هي في حقيقة الأمر الا بهتان نفثته
الأحقاد المعادية للإسلام ، فتلقفه معظم المؤرخين العرب
والمسلمين ، ولا أحسب الا أن هؤلاء قد تغفلوا ما ذكروه
من غير تحييص ، من مصادر لا يحسب واضعوها
للإسلام أى حساب ، بل وربما كانوا من المؤرخين الذين

يقتضون الاسماء للإسلام عن طريق الطعن في العثمانيين
والافتراء على تاريخهم .

ولشد ما أمتي أن أجد المؤرخ المسلم الغيور محمد
كرد علي رحمه الله . في كتابه . خطط الشام . . يتبنى
هذه الفرية من غير تردد وكأنها يقين لا يرقى إليه
شك . ويشدد الأسى ويتعاطف . حين يراه رحمه الله
بهم العثمانيين صراحة بمخالفة الشريعة الإسلامية إذ
يقول

« أسس العثمانيون جيش الانكشارية (الجيش
الجديد) على غير مثال في التاريخ . وخالفوا فيه الشريعة
الإسلامية التي لا تجيز للملك أن يكره الذميين على
استرقاق أولادهم . »

ويبالغ الأسى منهاه حين يتبنى رحمه الله رأي
المؤرخ النصراني مورديسان . الذي يزعم فيه أن الجيش
الجديد بدأ يدخل إليه الوهن . ويضرب إليه الفساد .
بسبب تساهل السلاطين في السماح . بإدخال أناس
من المسلمين . واليهود . والنور إلى الجيش الجديد .
والأسفاء . والأسفاء . والأسفء .

كيف يرضى المذبح المسلم الغيور محمد كرد علي
رحمه الله أن يقرن المسلمون مع اليهود والنصارى
مقام واحد . . .

ونعود الى الرواية الأولى ، رواية الاستاذ محمد
لمريد بك ، فنجد أنها تحمل بين طياتها أدلة بطلانها .
فنحن اذا عدنا قليلا الى زمن عثمان ، ثم انتقلنا الى
زمن أورخان ، فاننا سنجد أن المدن البيزنطية التي
فتحها الله عليهما ، كان بعضها يفتح بدون قتال بسبب
تقبل أهلها للإسلام ، أو بسبب فرار حاكمها وحاميتها ،
فبدخلها المسلمون ويقيمون العدل بين أهلها ، فيجدهم
فيهم الناس مخلصاً لهم مما كانوا يقاسونه من ظلم الحكم
البيزنطي . ثم لا يلبث أكثرهم حتى يسلموا ، وأن
بعضها كانت تقبل أن تدفع الجزية وهي قليلة ، وأن
بعضها كانت تختار الحرب ، فيفتحها الله على المسلمين
بعد قتال .

ولقد تواترت الروايات الكثيرة تؤكد أن عثمان
ومن بعده أورخان ، كانا يتركان للبيزنطيين الذين
يؤثرون البقاء على دينهم ، سواء فتحت مدينتهم سلباً أو
حرباً ، حرية الاختيار بين البقاء في تلك المدن مستسلمين

بحريتهم الدينية والشخصية ، أو الهجرة الى داخل
 أراضي الدولة البيزنطية حاملين معهم ما يشاؤون من
 مال وصناع من دون أية قيود ، ومن هذه الروايات اذكر
 على سبيل المثال لا الحصر ما اوردته الموسوعة اليونانية
 الشهيرة (Megalia Elliniki Engiklopedia) في صفحتها
 رقم ٢٧٦ من مجلدها الثامن .

كما ان عثمان واورخان لم يكن من سياستهما اخذ
 اسرى حرب ، وفي الحالات القليلة التي حدث فيها مثل
 هذا ، فان عدد الاسرى لم يكن كبيراً ، وكان معظمهم
 يخل في الاسلام لينتخلص من الأسر ، فينعهد لهم العلماء
 بالتربية الاسلامية ، وكان أكثرهم يحسن اسلامهم
 ويستقيمون عن ايمان وصدق على الاسلام ، ونذكر
 على سبيل المثال الأمير خوسيه ميخائيل ، والأمير
 افرسيوس حاكم بورصة البيزنطي ، اللذين أصبحا قيما
 بعد من مشاهير القادة في الدولة العثمانية بعد ان هداهما
 الله الى الاسلام وحسن اسلامهما .

وينبغي ان نشير الى انه على عكس ما يزعمه
 الحاقدون من ان العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال
 النصارى ويجبرونهم على اعتناق الاسلام ، كان الأهالي

البيزنطيون يقومون بأنفسهم بتقديم أطفالهم إلى السلاطين
العثماني لتربيتهم تربية اسلامية ، وفي هذا الصدد
يذكر الاستاذ عمر عبد العزيز عمر في كتابه « محاضرات
في تاريخ الشعوب الاسلامية » أن العديد من المؤرخين
النصارى يعترفون أن الآباء البيزنطيين كانوا يتشوقون
إلى تقديم أبنائهم عن طواعية للسلطان العثماني لتربيتهم
تربية اسلامية .

ومن هنا فإن مقولة أن أورخان كان يأخذ الشبان
من أسرى النصارى ليحبرهم قسراً على الاسلام ، لا
تستند إلى بنية قوية .

ثم كيف يستقيم القول أن الأسرى كانوا يخضعون
لعملية فصل كاملة عن بيئتهم السابقة لينقطع كل
صلة لهم بها ؟ . ثم يقال أنهم من الشبان ، أي أنهم
في مرحلة من النضج والادراك لا يمكن لأية وسيلة أن
تنجح في إجبارهم على نسيان أعتابهم ومعتقداتهم الدينية
والسياسية حتى لو تظاهروا بذلك .

أما الروايتان الثانية والثالثة ، روايتا الدكتور علي
حسون ، والاستاذ محمد كرد علي فدليل بطلانهما أن

الأمر ملك الدين . . . الأخ الأكبر لأورخان . . . والذي كان
يقول مسؤولية الصغير الأعظم أي رئاسة الوزراء . هو
الذي انبار على أخيه أورخان بفكرة الجيش الجديد وقد
تولى ملك الدين عام ٧٣٥ هـ - ١٣٢٥ م . ونحن نعلم
أن أورخان لم يسيطر على أية أرض بيرلطة داخل
الحدود الأوربية إلا في عام ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م عندما
استولى على غاليبولي وجيميك وغيرهما من المدن والقلاع
البرلطة .

من هنا نستطع مقولة أن الجيش الجديد كان من
أبناء أسرى البلاد الأوربية المفتوحة . لأنها لم تكن
مفتوحة عند تشكيل الجيش الجديد .

أما إذا فصلت الرواية بالبلاد الأوربية تلك القلاع
داخل البرلطة داخل آسيا الصغرى . فما قلناه في
قصة نسخة الرواية الأولى يصلح هنا لتفصيل هذا
الادعاء .

وإذا كان أورخان يختار الأطفال الصغار لجيشه
الجديد فمعنى ذلك أن أعدادهم للقتال سيأخذ سنوات
طويلة . فهو المبرهن أن معدل أعمارهم عشر سنوات
ثم سيحتاجون إلى عشر سنوات أخرى لأعدادهم
ليكونوا قادرين على القتال . فإذا علمنا أن أورخان قد

استعان في حروبه بهذا الجيش الذي كان قوامه عند
بداية تأسيسه ألف جندي ، بمجرد الفراغ من تأسيسه
ونظيحه ، تأكد لنا بطلان مقولة أن الجيش الجديد
« قد تكون من أطفال النصارى » .

وهناك رواية تبناها مؤرخ مسلم آثرت أن أفصلها
عن الروايات السابقة آنفة الذكر لأسباب ثلاثة :

الأول : أنها اشتملت كثيراً وأغلظت القول بحق
العثمانيين الأتراك ، بصورة لم نألفها في الروايات الأخرى
المماثلة .

الثاني : أنها وردت في كتاب قيل أنه ينصف
الأتراك العثمانيين ، باعتبار أن تاريخهم وتاريخنا
العربي هما فصلان من كتاب واحد في تاريخ العرب
والمسلمين .

الثالث : أن مؤلف الكتاب مؤرخ مسلم ، واستاذ
جامعي عربي ، له باع طويل ، وخبرة ذائعة في تدريس
التاريخ الإسلامي في العديد من الجامعات العربية
العريقة والحديثة .

وقد وردت هذه الرواية في كتاب الدكتور عبد
الكريم غرايبة المعلنون بـ « العرب والأتراك » ، الذي
طبعته جامعة دمشق في عام ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .

تقول الرواية :

لقد شعر السلطان (لم تحدد الرواية اسمه) انه بحاجة الى «كلاب» لتحرس قطعانه أو رعيته . وتغير على قطعان غيره . فلم يجد أمامه من وسيلة الا أن « يصادر الانسان » ويدجنه ، ويدربه ، كما يفعل مع الحيوان . ودون أن يتدع العاطفة تفسد عليه عمله وخطئه .

ثم يكرر الدكتور غرايه هذا الكلام في موضع آخر من كتابه بصيغرات أخرى تقول : وأخيراً ابتدع أحدهم .. (لم يحدد من المقصود بكلمة أحدهم) فكرة مصادرة أولاد النصارى . وتدجينهم . وتأسيس جيش محترف منهم لا يدين بالولاء الا للسلطان .

ويضي الدكتور في روايته قائلاً :

كان السلطان (من غير تحديد الاسم) يرسل كل عام اشخاصاً أو هيئة مدربة على فهم الانسان وتقدير مكانته . لتصادر العدد المطلوب من الدواجن البشرية . ليدربوا لربية قاسية اسلامية . ودون أن يفرض عليهم اعتناق الاسلام .

وقبل أن نشرع في تنفيذ هذه الرواية يصعب في
نشر إلى أن الدكتور الغرايبة ينسبها إلى المؤرخ
المستشرق وجب الذي لا يمكن في نظري الاطمئنان إلى
سلامة نواياه تجاه الاسلام وتاريخ الاسلام . ثم إلى
المؤرخ النصارى موهرفيل . الذي يغشى الشك في
سلامة نواياه اسلم في نظري من حسن الظن بها . ثم
إلى المؤرخ المسلم الفيور أمير البيان شكيب أرسلان .
من كتابه ، تاريخ الحروب العرب في فرنسا وسويسرا
وريطاليا والبحر المتوسط . . والتي لأخشى أن يكون
أمير البيان قد قل ما قلناه عنه الدكتور الغرايبة عن
«حجب» . أو عن غيره من المؤرخين الذين هم موضع التهام
من جهة نواياهم تجاه الاسلام وتاريخ الاسلام . ولقد
حاولت جهدي أن أظفر بكتاب أمير البيان لاستوثق
من الأمر . فما ظفرت به .

وأعود إلى رواية الدكتور الغرايبة . فأسأله .
بإحدى ذي بدء بالتساؤل :

أين التوثيق العلمي التاريخي في هذه الرواية التي
تعمل تهيئة خطيرة بحق الأنوار العثمانيين وتكساد
تجردهم . بل أنها قد جردتهم فعلا من صفة الانساب

في الإنسانية . حين أظهرتهم شعباً من غير عاطفة .
بحسب الناس كلاًياً . ويعاملهم كالكلاب أو الأرانب
التي يذبحها الإنسان .

من هو ذلك السلطان الذي اكتفت الرواية بالرمز
إليه نارة بقولها (وابتدع أحدهم) ونارة أخرى بقولها
(فقد قرر السلطان) . . .

ومنى ثم ذلك الأمر بالحديد . وفي أي عام . بل
في أي عهد من عهود سلاطين بني عثمان الأولين ؟ . . .

ثم من أين استقى «جب» . وسومرفيل . روايتهما
التي نقل عنها الدكتور لمراية روايته ؟ ما اسم الكتاب
أو المرجع التاريخي الذي نقل عنه . . .

ليس من مقتضيات الوثائق العلي والتاريخي .
التي يقدم من يدي أية رواية تاريخية بالبيانات التي
تسم صحتها . من تحديد الأسماء . وتحديد المكان
والزمان . وسكان سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية
حتى وصلت إلى الراوي الأخير . . .

ليس من مقتضيات الوثائق العلي . أن لا يكتفى
في رواية تحفل نهمة خطيرة لشعب بأسره . بل لأمة

بأسرها ، بل للإسلام ذاته الذي كان العثمانيون الأتراك
يمثلونه آنذاك ، بالتعميم المبهم وبالعبارات المبهمة . . .

ونستغرب كيف ينقل الدكتور الغرايبة . هذه
الرواية ، وبهذا الأسلوب الجارح ، وكأنها أمر لا يرقى
إليه شك . ثم نراه يؤكد في موضع آخر من كتابه أن
إمارة عثمان أصبحت النفس الوحيد للحماس الديني
في الإسلام ، وأنها اجتذبت إليها أعداداً من المتحمسين
لنصرة الدين ، الراغبين في الجهاد في سبيل الله ، الذين
كانوا يتقاطرون بالدفاع شديد ليقاتلوا تحت راية
العثمانيين . . .

اليس من حطاً أن نتساءل : ما حاجة عثمان ، ومن
بعضه أورخان ، ومن بعده مراد ، وهم الذين تناوشتهم
سهام الاتهام بتلك الفرية ، ما حاجتهم إلى بضع مئات
من أطفال النصارى الذين يتطلب أعدادهم للجندية
سنوات طويلة ، بينما تنهمر جموع المسلمين المتحمسين
لنصرة الدين والراغبين في الجهاد في سبيل الله ، لتتخرط
في كتاب الجهاد تحت راية آل عثمان ، كما يؤكد
الدكتور الغرايبة في كتابه . . .

الأمر الوحيد الذي نلتقى فيه مع رواية الدكتور
 براهيمية ، هو ما ذكره عن عدم قيام أحد من السلاطين
 بكره أحد من أطفال النصارى على اعتناق الاسلام .
 ذلك لأن السلطان العثماني المسلم ، لم يكن بحاجة الى
 زمام أحد من أطفال النصارى على اعتناق الاسلام لأن
 حالة الأطفال الذين كانوا يربون تربية اسلامية خاصة
 لم يكونوا نصارى وإنما كانوا ، كما أوضحنا في ردنا
 على الروايات الثلاثة الأولى ، أبناء مسلمين انتقلوا
 من النصارية ، واعتنقوا الى الاسلام ، وطفقوا من تلقاء
 أنفسهم وعن طواعية لا عن اكراه ، يقدمون أبناءهم
 لسلطان ليستكمل تربيتهم تربية اسلامية ، أما باقي
 الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أقررتهم
 الحروب فاحتضنتهم الدولة المسلمة .

لكن بما هي حقيقة هذا الجيش الجديد . . ؟

الحقيقة التي نراها ، تؤكد أن أوردخان بن عثمان
 لم يجبر أحدا من أسرى النصارى سواء كانوا شبانا
 أم أطفالا على الاسلام ، لا بموجب نظام اللقطاء
 المشهورة ، ولا بموجب ضريبة الفلجان المزعومة .
 لكونوا من بعد نواة لجيشه الجديد .

نقول هذا ولدينا أكثر من دليل :

للاسلام يرفض مبدأ الاكراه في الدين ، لا يكره
في الدين ، وأورخان رجل مسلم متدين كآبيه . بل
إن أخاه علاء الدين الذي أشار عليه بتشكيل الجيش
كان عالماً في الشريعة ومصلواً . فلا يعقل أن يشير على
أخيه بأمر لإبادة الشريعة . ثم ما حاجة أورخان إلى
وضع مئات أو حتى إلى ألف من أسرى النصارى ليشكل
منهم جيشاً سيكون عماد الدولة وحاميتها . في الوقت
الذي يجد فيه من حوله عشرات الآلاف من المسلمين
المجاهدين المؤمنين بالاسلام يتفادون اليه من جميع
الامارات التي حوله جبا في الجهاد في سبيل الله . في
وقت كان فيه الجهاد في سبيل الله ممارسة فعلية في
مياطين الشمال . لا مجرد نرف فكري على صفحات الكتب
والصحائف . أو على السنة مجاهدي الصالونات
والمؤتمرات .

إن الرواية الحقيقية لكيفية تشكيل الجيش الجديد.
تؤكد أن المعارك التي كان يخوضها أورخان كان يعتمد
فيها على (مجاهدي النفر) الذين كان يطلق عليهم
بالتركية اسم «Akincilar» وترجمتها بالمربية

(المسلمون) وبالنسبة للإسلامي هم أهل النفرة الذين
كانوا يستجيبون لنداء الجهاد تجسيدا لقوله تعالى :
« اعزوا أنفسكم وتقاتلوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم
وأفئدتكم » . فهو إذن لم يكن يمتلك جيشا نظاميا وإنما
كان لديه بضعة مئات من فرسان عشيرته ، ومن المجاهدين
ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام إلى
قلوبهم . وحين كان يحتاج إلى عدد أكبر مما لديه كان
يطلق الفتح (حتى على الجهاد) فتنقاطر عليه جموع
المجاهدين من كل جانب فإذا وضعت الحرب أوزارها
عاد المجاهدون من حيث أتوا .

وحين بدأت تبغات مجاهدة البيزنطيين تزايد ،
كان أورخان يحدد صعوبة في تجميع المقاتلين في الوقت
النااسب . إذ كان الجميعهم يستغرق وقتا طويلا ، وأدرك
أن الأوان قد آن للتفكير في طريقة جديدة لتجميع
المجاهدين تناسب مع ازدياد تبغات مقاومة البيزنطيين .

وحين استشار أخاه الأكبر ووزيره الأول علاء
الدين ، وقواده الآخرين ، أشار عليه علاء الدين وقائده
قره خلیل بفكرة إبعاد جيش نظامي يكون دائم الاستعداد

والتواجد قريباً منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء .

واقترح أورخان بهذه الفكرة وبأشرف فورته بتنفيذها . فجمع ألفاً من المجاهدين الذين تشبه لهم المعارك التي خاضوها معه بالكفاءة والشجاعة . وكانوا خليطاً من فرسان عشيرته . ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام قلوبهم . وحسن إسلامهم . ومن مجاهدي النفي الذين كانوا يسارعون لأجابة داعي الجهاد كلما انطلق .

وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع إلى حيث يقبع العالم المؤمن النقي الحاج بكتاش شيخ الطريقة البكتاشية . لطلب منه أن يدعو لهم خيراً . فنشأهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود . ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم . ويجعل سيوفهم حادة قاطعة . وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الإسلام .

ثم مال لرجاء أورخان فسأله . هل اتخذت لهذا الجيش اسماً . قال : لا . قال : فليكن اسمه «بني جري» وتلفظ «بني تجري» أي الجيش الجديد .

وكانت راية الجيش الجديد من فسات احمر في
وسطها هلال ، ولتحث الهلال صورة لسيف اطلقوا عليه
اسم «ذي الفقار» تبعاً بسيف سيدنا علي كرم الله
وجهه .

ولعل في شهادة كارل بروكلمان أنصح دليل على
صحة ما ذكرناه . فهو يقول في الجزء الثالث من
كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » المخصص للحديث
عن الأتراك العثمانيين وحضارتهم :

« لقد كانت حرب الحصون والمراكز المتبعة (التي
حاشها أورخان تتطلب مقدرات (قدرات) عسكرية
أخرى ، والحق أن الحاجة كانت أمس ما تكون الى
البناء جيش من المشاة ، ولقد عمل السلطان (أورخان) ،
بادئ الأمر ، على تأليف ذلك الجيش من الأتراك
أنفسهم . وكان هذا الجيش مقسماً الى وحدات تتألف
من عشرة ألفار ، ومئة نفر ، وألف نفر ، وقد اقترح قره
خليل جاندرلي على أورخان احياء العرف الاسلامي
القديم (الواقع أنه ليس عرفاً وانما هو جزء من النظام
الحالي الاسلامي) الذي يقضي بأن يحتفظ بيت المال

بمخس الغنائم ، وبذلك ضمن للدولة مورداً يمكنها من
الاتفاق على ذلك الجيش النظامي الجديد . -

بيد أن كارل بروكلمان لا يلبث أن ينحرف عن
جادة الموضوعية . ليبدأ في دس السم في الدسم بإيراد
مزايع لم ينسبها إلى أي مصدر تاريخي قديم أو حديث .
عثماني . أو غير عثماني . ولم يستند بها أية أدلة تاريخية
موثقة . محاولاً الصاق ثرية أحبار النصارى على اعتناق
الإسلام بالسلطان أورخان ليشسئ له ادخالهم إلى جيشه
الجديد . -

يقول بروكلمان :

ولقد حاول (أورخان) أن يستعصى عن فرقة المشاة
الأتراك بفرقة يؤلفها من النصارى الذين كانوا يلقون
هذا النوع من الخدمة العسكرية . وإذا كان من أهم
المبادئ التي يقول بها الشرع الإسلامي أن المسلمين
وخدمهم الحق في حمل السلاح . فقد تعين على الدولة
أن تكرم النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد .
على الدخول في الدين الإسلامي . وهكذا افتتحت الدولة
هذه الحملة بأن التزعت ألف غلام نصراني من بيوت

أبائهم ، وأكرهتهم على رفض معتقدتهم . بَيِّنْهَ أَنْ تَطْلُعَ
مَوْلَا، إِلَى مُسْتَقْبَلِ بَأْمَرِ جَعَلَهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِشَخْصِ السُّلْطَانِ
وَيُخْلِصُونَ لَهُ .

وَقَبْلَ أَنْ أَشْرَحَ فِي تَفْصِيلِ هَذِهِ الْمَزَاحِمِ الَّتِي أَطْلَقَهَا
بِرُوكْلَمَانِ . أُرِيدُ أَنْ أَشِيرَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَزَاحِمَ تَكَادُ تَكُونُ
مُطَابِقَةً مَعَ مَا أُورِدَهُ مُعْظَمُ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُسْلِمِينَ كَالْإِسْتِاذِ
مُحَمَّدِ كَرْدِ عَلِيِّ ، وَالْإِسْتِاذِ مُحَمَّدِ فَرِيدِ بَكِ الْحَامِي ،
وَالدَّكْتُورِ عَلِيِّ حُسُونِ ، وَغَيْرِهِمْ . بَلْ لَعَلِّي لَا أَكُونُ
مُطَالِماً أَنْ قُلْتُ أَنَّهُمْ جَمِيعاً رُبِمَا اسْتَقْوَا مَا ذَكَرُوهُ ، أَوْ
عَلَى الْأَصَحِّ رُبِمَا تَقْلَدُوا مَا ذَكَرُوهُ عَنْ كَارِلِ بِرُوكْلَمَانِ
نَفْسِهِ . فَكُنْتُ كَأَنَّ هَذَا الْمُسْتَشْرِقِ ، وَلَعَلَّهُ مَا يَزَالُ مَعَ
الْأَسَدِ الشَّدِيدِ قَلِيلَةَ أَنْظَارِ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَمَرْجِعاً أُسَاسِيّاً
لَهُمْ فِي مَا يَخْصُ بِتَارِيخِ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَأَعُودُ إِلَى مَزَاحِمِ بِرُوكْلَمَانِ فَانْسَآلُ :

لَمَّاذَا يَسْتَعِيشُ أَوْرَخَانُ عَنْ فِرْقَةِ الْمُنَاقَاةِ الْأَتْرَاكِ
الْمُسْلِمِينَ بِفِرْقَةِ مِنَ النَّصَارَى ؟؟ ؟؟

أَيُحَقُّقُ أَنَّ أَوْرَخَانَ ، وَهُوَ الْمُجَاهِدُ الْمُسْلِمَ ، الَّذِي
نَدَّرَ نَفْسَهُ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى خَطِيئَةِ أَبِيهِ وَجَدَّهِ .

يمكن أن يرتاب في كثافة وإخلاص وشجاعة جنوده الذين
كانوا . حتى قبل أن ينظموا إلى الجيش الجديد .
يهرعون إلى ميادين القتال . لا يدفعهم إلى ذلك إلا حب
الجهاد في سبيل الله .

الفيصل أن أورخان يمكن أن يستبدل الذي هو أدنى
بالذي هو خير . فينتقل عن جنوده الذين عمر الإيمان
قلوبهم . واستحوذ الإسلام على أفئدتهم . وملك حب
الجهاد في سبيل الله لقلوبهم . يجنود نصارى ليس
بينهم وبين الإسلام صلة . ولا يدركون من معاني
الجهاد في سبيل الله شيئا ٢٠٠

وكيف يتجرأ كارل بروكلمان على الزعم أن أورخان
أراد أن يستبدل جنوده المسلمين بجنود نصارى لأن
جنود بينطقة النصارى يالفون ذلك النوع من الخدمة
العسكرية بينما أن جنود الإسلام من العثمانيين الأتراك
لا يالفونها ٢٠١

لو أن بروكلمان خلع عن عيشه غشاوة الحقد على
الإسلام والمسلمين . لأدرك أن ذلك النوع من الخدمة
العسكرية . لم يبرع به أحد مثلما برع به المسلمون .
وخاصة الأتراك العثمانيون . وناديتهم خير دليل .

بل قال أذهب بعيداً ، وبين يدي شهادة أدل بها
بروكلمان نفسه يرد فيها بنفسه على نفسه ، ويحضى
بها ما زعمه من عدم كفاءة الأتراك العثمانيين في مجال
الخدمة العسكرية .

يقول بروكلمان بالحرف الواحد :

« والواقع أن الأتراك اشتهروا منذ خروجهم من
الولاي . بأنهم فرسان يارعون وجريئون إلى حد
التهور . »

ثم كيف يتجرأ بروكلمان على الخوض في أمور
شريعة إسلامية لا يملك الخوض فيها إلا مسلم توفرت
في شروط عديده لأجله للأفتاء . . .

كيف يبيح بروكلمان لنفسه ، وهو النصراني ،
أن يزعم بأنه يستعين على الفولة (يعني العثمانية المسلمة)
أن تكبره النصراني من الذين اختبروا لتأليف الجيش
الحديث ، على الدخول في الدين الإسلامي . لأن الإسلام
لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح . . .

أما أن الإسلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح ،
فذلك كلمة حق أريد بها باطل . ذلك أن الإسلام فرض

القتال على المسلمين باعتبارهم مسلمين يدينون بالولاء
للإسلام . وليس من شأن الإسلام أن يفرض الجهاد أو
القتال على الناس لا يدينون به .

بل إن الإسلام يفرض على المسلمين أن يدافعوا
عن أرواح وأموال غير المسلمين الذين يعيشون في كنف
المسلمين ويؤدون لهم الجزية . ومن دون أن يكلف
هؤلاء بالمشاركة في أعباء القتال . وإن حكم الإسلام في
هذه المسألة واضح لا لبس فيه ولا غموض : لا اكراه
في الدين قد تبين الرشيد من الذي .

ويزعم بروكلمان . ويا لهول ما يزعم . أن الدولة
العثمانية افتتحت حملة الأسلمة الإجباري . بأن انتزعت
ألف غلام نصرائي من بيوت آبائهم وأكراهتهم على رفض
معتقدهم . بيد أن تطلع هؤلاء إلى مستقبل باهر جعلهم
يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له .

كلام يهلم بعضه بعضا :

إذا . لماذا تضطر الدولة إلى انتزاع ألف غلام
نصرائي قسرا من بيوت آبائهم . لتنضمهم إلى جيش
السلطان . بينما أن هؤلاء النملان . كما يشهد بذلك

بروكلمان نفسه ، كانوا يطمحون ان يملحوا بحيش
السلطان ليحققوا لانفسهم مستقبلا باعرا ٥٥

بل ان ما يزعمه بروكلمان من ان اورخان انتزع
العلمان النصارى انتزاعا من آباءهم يتهاوى امام ما ذكره
الدكتور عمر عبد العزيز عمر في كتابه ، محاضرات في
تاريخ الشعوب الاسلامية ، من ان العديد من المؤرخين
النصارى يعرفون ان الآباء البيزنطيين الذين امتدوا
الى الاسلام ، كانوا يتشوقون الى تقديم آبائهم عن
طاعة للسلطان العثماني ليربيهم تربية اسلامية
ويلحقهم بالجيش .

ثم ، ماذا نكرم الدولة (العثمانية) هؤلاء العلمان
على اسرار معتقدتهم ، بينما ان هؤلاء العلمان انفسهم
يسعون لتحقيق مستقبل باهر لانفسهم من خلال تعلقهم
بالسلطان والاخلاص له ، ولا يتم ذلك الا اذا انخلعوا من
الله انفسهم ، ومن غير اكرام عن معتقدتهم القديم .
وانفسوا معتقدات سيدهم الجديد الذي سيحقق لهم
مآلهم في مستقبل باهر ٥٥

ونحنتم الرد على تلك الغريبة بايراد بعض الروايات
التي وردت في مصادر تركية اذ يروي الصدر الأعظم

كامل باخدا في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العثمانية
العلية » ، أن أورخان بن عثمان أراد أن يزيد عدد
جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة
البيزنطيين ، فاختار عدداً من شباب الترك وعدداً من
شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم ،
نظّمهم إلى الجيش وأهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية
إسلامية جهادية .

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده ،
وأصبح يضم الآلاف من المجاهدين في سبيل الله .

وإذا علمنا أن الجهاد في سبيل الله والغيرة على
شر الإسلام كانا الدافع الذي انطلق منه عثمان بن
أرطغرل ومن بعده ابنه أورخان ، في جميع معاركهما ضد
البيزنطيين ، لذا فإن من الطبيعي أن يكون هذا الدافع
ذاته هو المطلق الوحيد للجيش الجديد .

وتأكيداً لهذا القول ، يذكر المؤرخ التركي أحمد
رفيق في كتابه « بيوك تاريخ عمومي » أن أورخان
وعلاء الدين كانا متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل
الجيش الجديد ، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين
ولفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها .

والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الاسلام
بعد ان يكونوا تلقوا تربية اسلامية وجهادية وترسخت
في قلوبهم مبادئ الاسلام سلوكاً وجهاداً .

خلاصة القول . ان السلطان أورخان . لم ينتزع
علاماً نصرانياً واحداً من بيت أبيه . ولم يكره غلاماً
نصرانياً واحداً على اعتناق الاسلام . وان كل
ما زعمه الزاعمون من أمثال كارل بروكلمان . انما هو
مراء . في مراء . ينبغي ان ننسحي آثاره من كتب تاريخنا
الاسلامي .

ولعل من المفيد أن نشير الى أن وجود عدد من
المسلمين البيزنطيين . امراء وعساكر . في عذا الجيش ،
هو الذي أوجد للمباكرين ثغرة يفتنون من خلالها قريتهم
وبنائهم . فيزعمون ما زعموه من أن العثمانيين يجبرون
أطفال النصارى على الاسلام ليشكلوا منهم جيشهم
الجديد .

الاساء ما يفكرون . كان هؤلاء لا يعلمون أن الاسلام
يحب ما قبله . وأن هؤلاء المسلمين البيزنطيين الذين
هضروا على تسميتهم بالنصارى لم يعودوا نصارى منذ
اللحظة التي دخل الاسلام فيها الى قلوبهم . وكانهم

لا يعلمون أن هؤلاء المسلمين البيزنطيين قد دخلوا
الجيش الجديد ليجاهدوا في صفوفه تحت راية الاسلام
الذي آمنوا به بعد أن انخلعوا من نصرانيتهم .

وبعد . . .

لأن مقتضيات الأمانة العلمية ، ومقتضيات الأخوة
الاسلامية ، تضع في عنق كل مسلم غيور ، وخاصة
المؤرخين ، والمدرسين ، والباحثين ، والاعلاميين ، أمانة
النصدي لهذه الحرية ، وثقافة مؤلفاتهم وكتاباتهم من
بها لهما .

ولقد آن الأوان لتوقف كل يد مسلمة وكل لسان
مسلم عن ترديد هذا البهتان اللئيم . .

وتبثت كل يد نصر ، من بعد ما تبين لها الرشيد
من الغي ، على ترديد هذا البهتان .

ما هي حقيقة الفتوى الشرعية المزعومة

التي تبيح للسلطين قتل أبنائهم واخوانهم ؟

من القلب لينظر هذا . حتى تجد عشرات الدراسات التاريخية التي افندتها مؤرخون مسلمون ، بعضهم يشهد لهم بالغيرة على الاسلام . قد حفلات بغرية خبيثة لليلة الصلها العائدون بالعثمانيين المسلمين .

تلك الغرية الشنيعة التي لا يكاد يخلو منها الا النذر اليسير من الكتب التي توارث للعثمانيين المسلمين . والتي ارم ان السلطين العثمانيين كانوا يسلكون الحق . بموجب فتوى شرعية اسلامية . في قتل من يشاؤون من احوالهم او بني رحمتهم . او اقاربهم . بحجة الحفاظ على رحمة المسلمين . ولقطع الطريق على أية فتنة يمكن ان تنزل اذا حاول احدتهم المطالبة بالسلطة لنفسه .

وكان آخر ما وقع عليه نظري من ترديد لهذه الغربة . ما جاء في مقال للاستاذ ابراهيم محمد الفحام في عدد المحرم ١٤٠٢ هـ نوفمبر ١٩٨١م من مجلة العربي التي تصدر في الكويت . حيث ذهب الى القول ان

السلطان العثمانيي الجدد اعتادوا عند توليهم مقاليد السلطة أن يقتلوا اخوانهم جميعاً ، ليأمنوا محاولات الخصاب الملك ، وأن هذه الظاهرة تكررت مراراً في تاريخ الدولة العثمانية حتى شمل القتل الأخوة الأصغر سناً .

ولئن كنت لا أنفي ، ولا أنكر ، وقوع العديد من حوادث الصراع على السلطة بين بعض السلاطين العثمانيي وبين بعض اخوانهم ، بل وأحياناً بينهم وبين أبنائهم ، وأن بعض هذه الصراعات كانت تنتهي بقتل أحد الأطراف المتصارعة ، إلا أنني أنفي ، وبكل شدة ، وبإصرار ، ما يرمعه الراجعون عن وجود فتوى شرعية اسلامية تبيح لكل سلطان عثماني جديد أن يقتل من يشاء من اخوانه ، أو بني رحمه ، بحجة المحافظة على وحدنة المسلمين . ومنعاً لوقوع الفتنه .

اقول هذا •• واتساءل :

اليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي ، ان يقدم بين يدي أية رواية تاريخية بالبينات التي تدعم صحتها ، من تحديد للأسماء ، والأمكنة ، والأزمنة ،

وكان سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية . الى ان
وصلت الى رابعها الاخير . ٩٠٠

ثم : ليس من مقتضيات اعانة التوثيق العلمي
والتاريخي . ان لا يتكفى بالتعميم المبهم . بعبارة
مبممة . في رواية لحمل تهمة خطيرة لشعب باسمه
هو الشعب التركي المسلم . بل لامة باسمها . هي امة
الاسلام . بل للاسلام ذاته الذي كان العثمانيون يحملون
لواءه ويمثلونه آنذاك . ٩٠٠

اين هي الفتوى الشرعية التي يزعم الزاعمون انها
تبيح للسلطان العثماني قتل بني رجبهم من غير أي
منوط شرعي . ٩٠٠

اين اسماء العلماء المسلمين الذين افلوا بهذه الفتوى
المزعومة . ٩٠٠

والى زمن أي من سلاطين بني عثمان على التحديده .
صدرت هذه الفتوى . ٩٠٠

لقد قرأت بطبعاً وعشرين مرجعاً عربياً ، و تركياً ،
وانجليزياً . نؤرخ للعثمانيين المسلمين ، فما وجدت
من بينها مرجعاً واحداً يذكر نص الفتوى المزعومة .
أو يذكر اسماً لشيخ واحد تنسب الفتوى اليه . بل

لقد انقضى كل مرجع عند ذكر هذه الغرية بسرد ما
وكانها يقين لا يرقى اليه شك ، لا يحتاج الى توثيق .

بل لقد تضاربت تلك المراجع تضارباً فاضحاً في
تحديد اسم السلطان الذي تزعم الغرية أنه كان وراء
استصدار هذه الفتوى المزعومة ، فتارة يزعمون أنه
السلطان عثمان بن أرطغرل ، ويستندون في زعمهم الى
مقولة تزعم أن عثمان قتل عمه دوندار بناء على تلك
الفتوى ، وتارة يزعمون أنه السلطان مراد بن أورخان ،
ويستندون في زعمهم الى حادثة اعدام السلطان مراد
لوالده ساوجي بعد أن نشأت خيانتة حين حارب في صفوف
البيزنطيين ضد المسلمين ، وتارة يزعمون أن السلطان
بايزيد الأول (الصاعقة) هو الذي استصدر تلك
الفتوى ، ويستندون في ذلك الى قيامه باغتيال أخيه
الأصغر يعقوب ، بل لقد امتد لهيب البهتان الى السلطان
محمد الفاتح ، انعم به من فاتح ، فزعم الزاعمون أنه
هو الذي استصدر الفتوى ، ويستندون في ذلك الى
حادثة غرق أخيه الطفل الرضيع أحمد حين غفلت عنه
مربية أثناء عملية غسله في الحمام ، وتارة يزعمون
أن السلطان سليم الأول هو صاحب تلك الفتوى ،
وأحياناً يتسبون الى السلطان سليمان القانوني .

وقيل إن انحلت بشيء من التفصيل عن تلك
 الأحداث التي تشبهت بها الزاعمون ليرفدوا بها فريتهم ،
 يحذر من أن أؤكد أن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً هذا
 البراء . ولا يغفل مطلقاً أن تهون حياة المسلم ، أي
 مسلم ، إلى درجة تباح فيها حياته لمجرد شبهة ، أو
 من أجل وعاظ وواوهم تستر وراء الزعم بالغيرة
 على جماعة المسلمين من أن تقع في فتنة مزعومة لم يقم
 على وقوعها ، أو على مجرد الشك بوقوعها ، دليل
 شرعي .

إن طبيعة الإسلام ، والأخلاق الإسلام ، وأمنانية
 الإسلام ، لرفض رفضاً قاطعاً أن تصدر باسم الإسلام
 فتوى تسمح لأي إنسان مهما بلغ شأنه ، أن يقتل مسلماً
 إلا في الحالات التي نص عليها الشرع ، النيب الزاني ،
 والمفارق لدينه التارك للصلاة (المرتد) ، والقاتل عمداً
 (النفس بالنفس) .

إلا ، وإن كل مسلم مهما كان مستوى علمه ، يعلم
 أن قتل النفس ، أي نفس ، محرم في شرع الله عز وجل
 إلا ضمن الحدود التي حددها الله عز وجل .

ولقد ندد الله عز وجل أيما تشديده . بذلك الجريمة
التي اقترفها قابيل ابن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام
يوم طوَّعت له نفسه قتل أخيه هابيل فقتله .

• والى عليهم لبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا
فتتقيل من أحدهما ولم يتنقبيل من الآخر قال لاقتلتك
قال إنما يتقبل الله من المتقين • لئن بسطت اليدي
لنقتلن ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك اني أخاف الله
رب العالمين • اني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من
أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين • فطوَّعت له نفسه
قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين • فبعث الله
غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف ينواري سواء أخيه
قال يا ويلتنا أتعجزات أن أكون مثل هذا الغراب فأواري
سواء أمي فأصبح من النادمين • سورة المائدة ٢٧ - ٣٠

بل ان الله عز وجل ، لم يكشف بالتشديد بجريمة
قابيل . بل جعلها مطلقاً لحكم رباني يؤكد حرمة
النفس البشرية تأكيداً قاطعاً لا لبس فيه ولا غموض .

• من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من
قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل

الناس جميعاً ومن أحيائها فكاننا أحياء الناس جميعاً ،
سورة المائدة : ٣١ .

للك هي الحليقة ، حليفة تؤكد براءة الاسلام من
لك الفتوى المزعومة ، وتؤكد رفض الاسلام لهذا
الهرء . .

من أين جاءت هذه الفرية إذن ؟ . . ؟
وما هي دوافعها ، وماذا يقصد مروجوها من
ورائها . . ؟

أما الدوافع التي تكمن وراء ترويح هذه الفرية ،
فلا أمك إلا أن أقول إنها نابعة من الحقد الأسود الذي
تملئ به قلوب العديد من المؤرخين الصليبيين من أعداء
الاسلام ، ضد الاسلام والمسلمين . .

فلقد انتهر بعض المؤرخين الصليبيين الحاقدين ،
وقلدهم في ذلك عن قصد أو عن غير قصد ، بعض المؤرخين
الذين يجعلون أسماء اسلامية ، وقوع بعض حوادث
الصدراع الدعوى على السلطة في الدولة العثمانية ، وهو
أمر لم تسلم منه أمة من الأمم على مدار التاريخ ،
فوجدوا في تلك الأحداث مغلغلة ليتغشوا من خلاله

أحقادهم الدفينة ضد الاسلام والمسلمين ، فوجهوا
سهام الفتراءاتهم ضد العثمانيين المسلمين ، وهم في حقيقة
الامر يوجهونها الى الاسلام التي كان العثمانيون يمثلونه
آنذاك .

بل لقد اشتط الحقد بهؤلاء الحاقدين ، قطفوا
ينالطون بعض الحوادث العادية ، فيحرفونها عن
حقيقتها ، وينسجون من حولها الاقاويل الكاذبة ،
ليرددوا بها الفتراءاتهم ضد الاسلام والمسلمين .

القول هذا ، وبين يلي اكثر من دليل :

وابدا بحادثة مقتل الأمير دوندار عم السلطان
عنان . وهي حادثة توردتها المؤرخ التركي المعاصر
اسماعيل حامي دشمند في كتابه « موسوعة التاريخ
العثماني » الذي ألفه في عام ١٩٤٥ . أي في الوقت
الذي كانت فيه أنوار الثورة الأتاتوركية في اصعب
حالات صوبها على تركيا ، بكل ما تحمله من مشاعر
العداء للعثمانيين المسلمين ، وزعم فيها أن عنان ابن
أرطغرل استنصر عمه دوندار البالغ من العمر تسعين
عاما ، في امر عزمه على محاربة البيزنطيين ، فعارضه

عنه في الرأي ، فلم يتحمل عثمان معارضة عمه ، فقام
بإعداده بهذه الطريقة بسهم انتقاماً منه بسبب معارضته
لعمه .

ولئن كانت هذه الرواية بنصها هذا من الضعف
بحيث خلت منها معظم المراجع التي تؤرخ لعثمان بن
أرطغرل ، ولئن كان من أدلة ضعفها أن إسماعيل
حامي دشمند لم يوثق روايته لهذه الحادثة بإيراد اسم
المراجع ، أو اسم المؤرخ الذي نقل عنه الرواية ، فإن
الحالفين على العثمانيين المسلمين ، بل على الإسلام الذي
يمثله العثمانيون ، للفقوا هذه الحادثة ، ونسجوا عن
حولها من سواد حطهم ما لا تحتمل ، فزعموا ، وبئس
ما زعموا ، أن عثمان قتل عمه دوندار وبناء على فتوى
شرعية يبيح له قتله خشية أن يزاحمه على السلطنة ،
وما قد يؤدي إلى وقوع الفتنة بين المسلمين .

ولئن كان من الانصاف أن نشير إلى أن ما نقلته
المراجع الموثوقة التي آدرخت لعثمان بن أرطغرل ، عن
شدة تعلق عثمان بأحكام الشريعة الإسلامية ، وعن
التزامه الصادق بالإسلام ، عبادة ، وخلقا ، ونواضع ،
وما نقلته عن توقيفه الشديد لعمه الشيخ الكبير دوندار ،

يجعلنا نستبعد تصديق مقولة أن عثمان قد قتل من
لجده معارضة له في الرأي . ويجعلنا على يقين أنه ما
فعل ذلك إلا لسبب جليل . أكبر من مجرد الاختلاف في
الرأي .

ويرسخ لنا علنا ما أورده المؤرخ التركي المعاصر
قادر مغلو في كتابه « عاصمة بني عثمان » المطبوع
في استانبول في عام ١٩٧٩ . في وقت كانت المساعر
الاسلامية في تركيا تشهد فيه شيئا من اشكال الحرية
التي تستطيع معها أن تعبر عن حقيقة رفضها لمساعر
العداء التي حاولت الردة الأناطورية ترسيخها ضد
العلمانيين المسلمين في نفوس الأتراك .

ففي كتابه ذلك . ينقل قادر مغلو ، عن
المؤرخ التركي خير الله أفندي الذي عاصر عثمان بن
الطغرل . أن دولدار كان طرفا في مؤامرة اتفق على
تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة « بيله جك » البيزنطي ،
تسليمه الخليل عثمان . تسهيذاً لوتوب دولدار إلى
الزغامة خلفا لعثمان . فلما انفضح أمر المؤامرة . أصبر
عثمان . وهو الحريص على تطبيق أحكام الشريعة
الاسلامية . على تنفيذ حكم الله في عه جزاء اقترافه

تعزية هؤلاء أعداء الاسلام . والتأمر معهم ضد جماعة
السلطان .

ولذلك لعمرى ، نقطة بيضاء ، ووقفه سيما شامخة ،
سجل في حسان عثمان بن أرطغرل ، اذ أكد من
خلال حرصه على تطبيق شرع الله في عمه ، على صدق
التزامه بالاسلام ، وصدق خضوعه لحكمه ، وصدق
نفسه لوشيجة العقيدة ، وارتباطه بها ، فوق وشيجة
الدم والحرابة .

تلك هي حفيظة قصة السلطان عثمان بن أرطغرل
مع عمه دوتدار ، لتهاوى أمامها أباطيل الحافدين ،
والرجال المرجفين .

أما قصة السلطان مراد بن أورخان مع ولده الأمير
سايحى ، فهي أيضا علامة بارزة تؤكد صدق التزام
مراد بالاسلام ، وصدق خضوعه لأحكام شريعته .

ففي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه أشرس
الغارات الملاحقة التي تمتلئ في العديد من الأقاليم
القسطنطينية المقدسة التي تجتمع تحت أوائها ملوك
وأمراء المجر والصرب والبغار والأرناؤوط (البانيا) .

بمباركة من بابا روما أوربيان الخامس . وبحريره
سافر منه (٧٦٦هـ - ١٢٦٥م) ، وفي الوقت الذي كان
فيه السلطان مراد يواجه فيه خطراً آخر تمثل في قيام
الأمير الإيطالي اميديو بتجميع جيش من الإيطاليين تحت
علمار الانتقام للصلب من العثمانيين المسلمين
(٧٧٠هـ - ١٢٦٨م) . وفي الوقت الذي ازداد فيه الخطر
قد الدولة العثمانية المسلمة . بقيام امبراطور بيزنطية
يواليس الخامس بزيارة روما في عام (٧٧١هـ - ١٢٦٩م)
مستنجداً باباها ضد العثمانيين المسلمين ، ومعلنًا تحوله
عن مذهبه الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي في محاولة
لاسترضاء بابا روما لاقناعه بمده بالنجدة التي يطلبها
ضد العثمانيين المسلمين .

وفي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه خطراً
داعياً جديداً تمثل في نجاح البابا بتجنيد أكثر من
سنتي ألف مقاتل صليبي بقيادة ملك بلاد الصرب
الجديد دوقاشين (٧٧٢هـ - ١٢٧٠م) .

في ذلك الوقت الذي كان السلطان مراد لا يكاد
يتجمع في التغلب على إحدى مكائد الأعداء . حتى يواجه
مكيدة أخرى . كان ولده الأمير سلاجي يتأمر سرا مع

الأمير البيزنطي أندرونيقوس ، الابن الثاني للإمبراطور
 يواكيم ، لتدبير مؤامرة للإطاحة بالسلطان مراد ،
 ونسب السلطة للأمير ساوجي ، وسرعان ما انتقلت
 المؤامرة من مرحلة التدبير ، إلى مرحلة التنفيذ ، فسار
 الأميران ساوجي وأندرونيقوس على رأس جيش كانت
 غالبية جنوده من البيزنطيين ، وتركزا بجيشهما في
 منطقة لا تبعد كثيرا عن القسطنطينية ، فسارع السلطان
 مراد للاقائهما ، فلما كان يقترب منهما حتى خسرت
 معنويات الحاميين ففر الجنود البيزنطيون عن أنصار
 أندرونيقوس ، ولحق الجنود العثمانيون من أنصار الأمير
 ساوجي إلى جيش أبيه السلطان مراد ، فأصبح ساوجي
 وأندرونيقوس من غير جيش ، فلم يجدوا أمامها مفرأ
 من الهرب ، ففروا إلى مدينة «ديسوق» ، فلاحق بهما
 السلطان مراد ، واضطرها إلى الاستسلام .

وجمع السلطان نخبة من القادة والعلماء والقضاة
 لحاكمية ولده ساوجي ، فحكموا عليه بالموت جزاء خروجه
 عن طاعة ولي الأمر ، وجزاء موالاته للكفار أعداء الإسلام
 والتحالف معهم قتولا وفعلأ في محاربة المسلمين .

وأمر السلطان مراد بتنفيذ حكم الشرع في ولده .
مسجلاً بذلك صدق ولائه لحكم الشريعة . وصدر
الفرمان بالإسلام . ولكاني به وهو يفعل ذلك . كان
يستشعر قوله تعالى عز وجل :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو
أخوتهم أو عشيرتهم أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان
وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك
حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون » سورة المجادلة
آية ٢٢ .

أما اندرونيقوس فلم يشأ مراد أن يقتله ، وكان
يستدوره أن يفعل ذلك ، دون أن يجزؤ أحد على مجرد
معابته ، بله الاعتراض عليه . ولكنه آثر أن يترك
أمره لأبيه ، فأرسله إليه ، ففقا عينيه ، ثم تفاء خارج
القسطنطينية وبقي منفياً حتى مات ، وما أحسب إلا
أن الإمبراطور قد فعل ما فعل بإبنة اندرونيقوس خوفاً
من السلطان مراد ، وليس عن قناعة .

والله كان من الطبيعي أن يستغل الحاقدون حادثة
قتل سامي ، لتلقفوها بلهفة حاقدة ، وطفقوا ينسجون
من حولها ، كدأبهم في كل حادثة مماثلة . الاقاويل
والانرايات ليرفدوا من خلالها فريتهم عن الفتوى
الشرعية المزعومة التي تبيح للسلطان العثماني المسلم
قتل من يشاء من بني رحمة ، الا ساء ما يصفون .

وكان من الطبيعي أن يشتط الحقد بأعداء الاسلام ،
فبدلوا حقدهم ضد السلطان مراد ، وريتمونه بالوحشية
وتحجر عاطفة الأبوة في قلبه . وما دروا أن صدق
الالتزام بالاسلام يجعل وشيجة العقيدة فوق كل
وشيجة . وصلوات الله وسلامه على نبينا محمد الذي
علم المسلمين هذه الحقيقة الایمانية . حين قال : والله
لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وانتقل الى حادثة قتل السلطان بايزيد بن مراد
(الصاغقة) لأخيه الأصغر يعقوب ، فلا أجد غضاضة في
تأكيد وقوعها . ولا أجد حاجة الى محاولة تبريرها ،
فقد استهل بايزيد عهده فعلا يارتكاب جريمة بشعة
حين أقدم على قتل أخيه الصغير يعقوب . بتحريض من
بعض أنصاره الذين طفقوا يوغرون صدره ضد أخيه .

الذي كان تسجاعاً ، قوي الشخصية ، ووجدت ودية
المعترضين هوى في نفس بايزيد الذي خشي أن يراى
يعقوب على السلطنة ، واستطعت به وسائسه حين أخذ
الوشاة يذكرونه بأن جده أورخان بن عثمان ولي
السلطنة رغم كونه الأصغر سناً من أخيه الأمير علاء
الدين .

عنايك تطلب الحاقدون على الاسلام تلك الحادثة .
فوجدوا فيها متغصاً جديداً لأحقادهم وساعدتهم على
ذلك أن جريمة قتل بايزيد لأخيه قد تمت غيلة وبوحشية
فطغوا يرددون فريتهم التي تزعم أن بايزيد قتل أخاه
يعقوب بناء على تلك الفتوى الشرعية المزعومة .

ولئن كنت لا أنكر أن بايزيد قد ارتكب جريمة
البشعة فعلاً ، بعد أن تلبه هواء ، وزينت له وسائسه
أن يقترب تلك الجريمة ، وطوعت له نفسه قتل أخيه
فقتله ، فأنسى الدفع بكل عزم لأؤكد براءة الاسلام من
تلك الجريمة ، واستنكاره لها ، فالجريمة يتحمل وزرها
بايزيد وحده ، وليس من العدل ، ولا من الانصاف ،
ولا من المنطق أن يزوج بالاسلام في عملية تبريرها .

ويشعر ان اشهر عنا الى أن الجفاء كان مستحقا
بن العلماء والسلاطان بايزيد . لدرجة أستبعد معها أن
يجد بايزيد عالما واحدا يستجيب له فيصدر تلك الفتوى
التي ينسب استصدارها في بعض المراجع الى بايزيد .
ولقد بلغ من حدة ذلك الجفاء ، أن العالم المؤمن
القاضي شمس الدين محمد حمزة الفخاري . رد شهادة
سلاطان بايزيد في إحدى القضايا . فلما راجعه بايزيد
في ذلك . أجابه القاضي المؤمن بأنه رد شهادته لأنه
لأنه لصلاة الجماعة .

بل لقد بلغ الجفاء بين العلماء والسلاطان بايزيد
إلى حد اقرب ما يكون الى الطبيعة بسبب استنكارهم
لوفاته تحت سيطرة وتأثير زوجته النصرانية الأميرة
أوليفرا شقيقة ملك الصرب لازار . ولما ديه بتحريض
مها على ارتكاب شرب الخمر . وإقامة حفلات اللهو .
وبذكر المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامى دنشمنه
في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، أن بايزيد
ذهب ليستفيد العمال في بناء مسجد «اولو جامع» في
بورصة وكان قد أوشك بناؤه على الانتهاء . فالتقى
خلال تجواله في المسجد بالعالم المؤمن شمس الدين

الفتاوى ، فسأله على من سمع من الناس عن رأيه في
المسجد ، وهل يرى في البناء أي نقص ؟ فاجبه
العالم المؤمن بجواب ساخر يحمل بين طياته مضامير
عدم الرضى عن سيرة بايزيد المنافية للإسلام ، فقال له

بالنسبة لنا نحن المسلمين ، قائلنا لا نجد أي نقص
في بناء المسجد ، أما بالنسبة اليك يا بايزيد ، فأنى
أخشى أن تكون قد نسيت أن تضع خزانة تحفظ بها
خمورك بجانب المحراب .

أفيعقل بعد هذا ، أن يجد بايزيد ، عالماً واحداً
يفسر له بقتل أخيه من غير مسوغ شرعي ؟

ولقد وجد الحاقدون واحداً جديداً يدعمون به
فريتهم فيما وقع من صراع دموي بين أبناء بايزيد
الصاعدة ، حين قتل محمد بن بايزيد أخوته عيسى ،
ثم سليمان ، ثم موسى لينفرد بحكم السلطنة .

ولئن اشتط المفرضون في حقهم فزعموا أن محمد
ابن بايزيد قد قتل أخوته بموجب تلك الفتوى الشرعية
المزعومة . فإن الحقائق التاريخية تؤكد أن ما جرى
بين أبناء بايزيد من اقتتال دموي ، كان اقتتالاً مصطنعاً

من أجل الطموحات الشخصية لكل واحد من أبناء بايزيد
الجلوس على عرش السلطنة . وليس من العدل . ولا
من الانصاف . أن يزج بالاسلام في هذا المقام .

ويسعى أن أشير الى أن شهوة الجلوس على عرش
السلطنة قد اشتطت بأبناء بايزيد لدرجة لم يجدوا معها
لخاضعة في الاستعانة بأعداء الاسلام من البيزنطيين
فقد بعضهم البعض . كما فعل سليمان بن بايزيد حين
تلازل تلك الروم ايمانويل الثاني عن مدينة سلانيك
وسواحل البحر الأسود مقابل الوقوف الى جانبه ضد
أخويه الآخرين عيسى ومحمد .

هذا . ويسعى أن أشير الى أن بعض المؤرخين
المعرضين . زعموا أن الفتوى الشرعية المزعومة التي
تبيح للمسلطان قتل بني رحمه من غير مسوغ شرعي .
هي تلك الفتوى التي أصدرها الشيخ سعيد أحد تلاميذ
الشيخ التفتازاني . والتي ورد نصها على النحو التالي :
« من أياكم وأمركم جميعاً على رجل واحد . يريد أن
يشق عصاكم . ويفرق جمعكم . فاقتلوه » .

والحقيقة أن هذه الفتوى قد صدرت عام ١٢٢٢هـ .
 ١٢٢٠م . كما يورد المؤرخ التركي عبد القادر دانه
 أولغلو في كتابه « التاريخ العثماني المصور » ضد أحد
 قضاة العسكر وهو الشيخ بدر الدين والذي تازع
 السلطان . وتزعم حركة ثورية كنادي بإلغاء التفرقة
 بين الأديان . وبتوزيع الأموال سواسية بين الناس .
 وقد ألقى في حركة الشيخ بدر الدين . كما يروي
 الأستاذ محمد فريد في كتابه « تاريخ الدولة العلية
 العثمانية » عدد من اليهود والنصارى . وعندما وقع
 بدر الدين في الأسر بعد معركة حامية الوطيس حوكم
 أمام هيئة من كبار العلماء والقضاة . فصدرت بحقه
 الفتوى بنصها الذي أوردته آنفاً . وبتوقيع الشيخ
 سعيد . ويروي المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي
 دنشمن في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » أن
 الشيخ بدر الدين قد وقع بنفسه أيضاً على الفتوى
 اعترافاً بذنبه . وتم إعدامه شنقاً على ملا من الناس في
 السوق الرئيسي في مدينة سراز .

ولقد وجد المعرضون مبرراً آخر لرفض بهتانهم
 بخصوص الفتوى المزعومة . في حادثة إعدام السلطان
 مراد الثاني لعمه مصطفى بن بايزيد .

وحليفة الأمر أن مصطفى بن بايزيد كان قد اختفى
 وانطقت أخباره بعد هزيمة بايزيد الصاغقة في معركة
 مرة أمام إسطنبول . ثم ظهر فجأة في زمن أخيه
 السلطان محمد جلبي بن بايزيد . مطالبة بالسلطنة
 لنفسه . واستنجد بأعداء الإسلام من البيزنطيين فأمدوه
 بالساعات . وأوعزوا لأمر بلاد الفلاح بإعداده بجيش
 كبير . ولكن مصطفى فشل في تحقيق أي نجاح . واضطر
 إلى اللجوء إلى سلاتيك التي كان الأمير سليمان بن بايزيد
 قد أعادها إلى السيطرة البيزنطية مقابل وعدهم له
 بمساعدته ضد أخوته كما أسلفت قبل قليل . وانفق
 السلطان محمد جلبي مع امبراطور بيزنطية على إبقاء
 أخيه مصطفى في سلاتيك تحت مراقبة الامبراطور ،
 مقابل مبلغ من المال . واستمر الأمر على هذا النحو إلى
 أن ولي السلطنة السلطان مراد الثاني ابن محمد جلبي .
 فنهض به الامبراطور إيسانويل الثاني في محاولة منه
 لإعادة عبيدة الامبراطورية . وطلب منه عقد معاهدة
 بتعهد مراد بموجبتها بعدم القيام بأية محاولة لغزو
 القسطنطينية . فلما وقع السلطان مراد موقفاً حازماً
 في وجه إيسانويل . ورفض مطالبه . عمد إيسانويل إلى

استدعاها الأمير مصطفى وأمه بعشر سفن حربية مدججة
 بالجنود والسلاح ، فتمكن مصطفى من الاستيلاء على
 مدينة وميناء غاليبولي ، ثم تمكن من التغلب على الجيش
 العثماني الذي أرسله السلطان مراد لمحاربته بقيادة
 وزيره بايزيد باشا ، فسار السلطان مراد الثاني بنفسه
 للاقاة عبه مصطفى الذي لم يلبث أن وقع في أسر مراد ،
 ليواجه عقوبة الاعدام شنقاً ، جزاء خيائته لله ولرسوله
 وللمؤمنين ، وحمل من خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أعظم
 من موالاته الكافرين والاستعانة بجنودهم واستولهم في
 حرب المسلمين .

أما لقد مراد حكم الله في عبه مصطفى ، جزاء
 موالاته للكفار ضد المسلمين ، وجزاء انارته الفتنة في
 جماعة المسلمين ، يهري الحاقدون ليزعموا ، وبئس
 ما يزعمون ، ان الاسلام يبيح للسلطان قتل بني رحمه
 كيفما يشاء . . .

فرية باطلة . . وبهتان عظيم

واجبني هنا مضطراً للتوقف وقفة أرد بها فرية
 غريبة ، ودنيئة ، الصبغت بالسلطان محمد الفاتح ، أنهم

به من فاتح . فقد درج بعض المؤرخين ، وهم يورخون
لعباءة محمد الفاتح على الزعم بأنه قام بقتل أخيه
الرضيع أحمد جلبي بعد أيام قليلة من تسلمه مسؤولية
السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان مراد ، خشية أن
يراحمه على السلطنة ، ومن المؤسف أن هذا الزعم لم
يقصر عن المؤرخين غير المسلمين ، وإنما وقع في
أحواله عدد من المؤرخين المسلمين .

ولئن كانت هذه الحرية التي ألصقت بالسلطان
محمد الفاتح تكاد تكون أوهن من بيت العنكبوت ، إلا
أن أحد من الواجب التوقف عندها ، وتفتيدها ، لكي
لا يبقى من بعد ذلك عذر لأي مؤرخ يحترم نفسه ،
ويعتزم شرف الكلمة التي يورخ بها ، أن يستمر في
إزدياد هذا الجهل العظيم ضد السلطان محمد الفاتح ،
العم به من فاتح .

ونبدأ بمناقشة الدافع الذي زعمه المفترون أن
السلطان محمد الفاتح قد قتل أخاه الرضيع أحمد
بسبه ، والذي يزعمون أنه كان بسبب خشية السلطان
محمد الفاتح من قيام أخيه الرضيع بمناقضته على
السلطنة . . .

ثالثاً . ما سمعت كلاماً بمثل هذا السخف في تبرير
عملية قتل طفل رضيع . . .

أهل بعقل أن سلطانا ولي السلطنة في عهد أبيه ،
ولدت كلفه . لم وليها من بعد وفاة أبيه ، وقد اشتد
ساعده ، ونضجت خبرته . والتفت الأمة من حوله
تحولته بالحب والطاعة . أفيقول أن هذا السلطان يغار
من أخ له رضيع ، فيخشي أن ينارعه على السلطنة . . .
وكيف يسئلي لطفل رضيع ، وأني له . أن ينارعه على
السلطنة . وهو الرضيع الذي أن تأخرت أمه عليه
بالحليب يوماً مات جوعاً .

ثم . هل يصدق انسان سوي عاقل ، أن محمداً
الفاصح . ذلك الشاب المؤمن الذي تربى على مائدة
القرآن . على يد خيرة علماء عصره الشيخ أحمد بن
إسماعيل الكوراني الذي كان الفاصح يسميه « أبا
حيفة زمانه » . والشيخ تمجيد أوغلو ، والشيخ محمد
جنبي زادة ، والشيخ مولا إياس . والشيخ الفوراني ،
والشيخ سراج الدين الحلبي . والشيخ آق شمس
الدين ، يمكن أن يفكر بمثل هذا الأمر الفظيع . . .

بل . لعرض جدلا أن محمدا الفاتح كان يوجب
لميلة أن يثأره أخوه الرضيع على السلطنة ، أقما كان
يستطيع أن يحتويه تحت كنفه ، ويربيه على الاخلاص
، بدل أن يقتله ٥٠٠ ٩

ولذا يستبق محمد الفاتح الامور فيقتل اخاه
الرضيع . وقد كان بإمكانه أن ينتظر وهو مطمئن
الى بضعة عشر عاما حتى يكبر اخوه ، فيتحقق من
تولاه ولواياه ٥٠٠ ١٢ من هنا . نستطيع أن نتبين
الغناء المصاحبة الشخصية للسلطان محمد الفاتح من
قتل أخيه .

ولنتقل الآن الى مناقشة الطريقة التي تمت بها
عملية القتل المزعومة ، فقد زعم مروجو هذه الفرية أن
السلطان محمد الفاتح أرسل أحد قواده واسمه علي
بك الى جناح النساء لقتل أخيه الرضيع ، فلما علم علي
بك أن الطفل موجود في حمام النساء حيث تقوم مربته
بمسله ، اقتحم الحمام وأمسك بالطفل الرضيع وغطسه
تحت الماء حتى مات مغنقا غرقا .
أي سخط هذا ٥٠٠ واي هراء ٥٠٠ ٩

وهل يصدق عاقل أن محمداً الفاتح ، وهو الذي
الحك ، يقدم على قتل أخيه الرضيع بهذه الصورة
المكتومة الساذجة ؟

وهل يصدق عاقل أن محمداً الفاتح كان عاجزاً
عن تكليف إحدى النساء ، كزوجته ، أو إحدى
خادمتها ، بتنفيذ عملية القتل من دون إثارة انتباه
أحد ، بدل أن يرسل رجلاً إلى جناح النساء وهو أمر
غير مألوف ، بله أن يسمح بأن يقتحم هذا الرجل حمام
النساء ، حيث يكن فيه متحلات من حجابهن ، ومتخففات
من كبر ملابسهن ، وفي ذلك ما فيه من خروج مستهجن
عن المألوف ، من شأنه لو تحقق فعلاً أن يثير من عياض
النساء ، وضجيجهن ، وصخبهن ، مما يضطر ذلك
الرجل إلى الفرار قبل أن يلفظ ماربته ، مهما بلغت به
الجراءة والندالة ؟ إذن ، ما هي حقيقة هذه القرية ؟

الحقيقة هي أن المربية التي كان موكلها إليها أمر
العناية بالطفل الرضيع أحمد ، انشغلت لبعض شأنها
بينما كانت تفسله ، فتوقع في حوض الماء ، فسات مختلقة
غرفاً قبل أن تتداركه الأيدي التي احتوت لانقاذه بعد
فوات الأوان .

وما كان خبر غرق الطفل الرضيع أحمد يسري بين
الناس ، حتى وجد فيه الحاقدون متنفساً يبتون من
خلاله حقدهم ، فطفقوا يشيعون بأن السلطان قتل
أخاه الرضيع خشية أن يزاحمه على السلطنة ، وتصادق
بعد ذلك بإيام قليلة أن أحد ضباط الجيش واسمه علي
بك ارتكب جريمة عقابها الإعدام ، فلما أعدم ، وجد
الحاقدون مادة جديدة خيل اليهم أنها تدعم بهتانهم ،
فطفقوا يزعمون أن علي بك هو الذي أغرق الطفل
الرضيع أحمد ، وأن السلطان محمد الفاتح خشي أن
يلحق هذا الرجل سره ، فقتله ، ومن هنا جاءت
الغربة على النحو الذي أشرت إليه ، وينبغي الإشارة
إلى أن إدوارد سي كريسي يتبنى هذا الزعم في كتابه
« تاريخ العثمانيين الأتراك » المطبوع بالانجليزية في
بيروت في عام ١٩٦١ ، ويدعي أن السلطان الفاتح أقدم
على قتل الضابط علي بك متهماً إياه بقتل أخيه الرضيع
دون أن يكون للسلطان علم بذلك .

إلا ساء ما يفترون وثبت يدا كل من يجري قلمه ،
أو لسانه بهذا البهتان اللئيم .

ولو أن الحافدين توقفوا عند هذه القرية وحذر
 لها الأمر ، ولكنهم ما برحوا أن بدأوا ينسجون من
 حولها المزيد من الافتراءات ، فزعموا ، وبش ما زعموا
 أن محمداً الفاتح ، أنعم به من فاتح ، لم يكشف بقل
 أخيه ، بل أصدر قانوناً ترفده فتوى شرعية مزعومة ،
 أعطى للسلطان الحق في قتل من يشاء من أخوته
 وأبنائه وأبناء عمومته وخزولته ، لقطع الطريق على أي
 منهم أن ينافسه على السلطنة .

ولقد كنت في موضع آخر من هذا الكتاب قد فنت
 هذه القرية ، بيد أن بشاعة هذه القرية وخبيثتها تجعلني
 أعود من جديد لتأكيد بطلانها ، ذلك أن القانون الذي
 أصدره السلطان محمد الفاتح ، ودعّمته فتوى شرعية
 من علماء المسلمين ، لم يكن على هذا النحو الذي يزعمه
 المخرضون ، وإنما كان تأكيداً لحكم الإسلام في كل من
 يخرج عن طاعة ولسي الأمر ، أو يوالي الكافرين ضد
 المسلمين ، أو يثير الفتنة بين المسلمين .

ولقد أوضح المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي
 دشمند في كتابه ، موسوعة التاريخ العثماني ، الدافع

الذي جعل السلطان محمد الفاتح يصدر هذا القانون
قال :

حين وجد السلطان محمد الفاتح أن أكبر خطر كان
يهدد الدولة العثمانية في الفترة التي سبقت توليه
عاليه السلطنة ، نجم عن تكرار حوادث الانشقاق التي
كانت تقع بين الأمراء العثمانيين والتي كانت تصل في
أكثر الأحيان إلى درجة الاقتتال ، وتؤدي إلى انقسام
الدولة إلى فريقين أو أكثر ، مما كان يؤثر على وحدة
الدولة ويفرغها من خصوم الإسلام بها ، فقد رأى السلطان
محمد الفاتح ، أن يضع قانوناً أسماه « قانون حفظ النظام
للعربية » ، أكد بموجبه أن الموت سيكون مصير كل
من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان ويتعاون مع
أعداء الإسلام ضد المسلمين .

يردف اسماعيل حامي دنشمنه ، أن هذا القانون
كان سبباً في انحصار ، أو على الأقل في تقليص حوادث
العصيان المسلح ، التي كادت أن تصبح أمراً شائعاً
في الدولة العثمانية قبل صدور هذا القانون .

وان المرء لتتملكه الدهشة ، حين يرى ان كل
دول الدنيا ، قديمها وحديثها ، لا تخلو قوانينها من
مثل هذا القانون ، ومع ذلك فلا تجد أحداً يعترض
عليها أو يشوه مقاصدها كما يفعل المفرضون تجاه
الدولة العثمانية . . .

ما هي حقيقة القرية التي تزعم أن الأتراك
العثمانيين لم يكونوا أمة دعوة ، وهداية ،
وحضارة ، وإنما كانوا أمة حرب وقتال ..

يستند الاسي في قلب المسلم حين يرى أن معظم
أجيالنا المسلمة ما فشتت تفرا في مناهج التاريخ في معظم
مدارس ، ومعاهد ، وجامعات وطلتنا العربي والاسلامي ،
أن العثمانيين الأتراك لم يكونوا أمة دعوة ، وعداية ،
وحضارة ، وإنما كانوا مجرد مقاليد تحجرت العواطف
الاسيائية في قلوبهم ، وأعمت ابصارهم شهوة القتل
والدمع ، فطفقوا يقتلون ، ويهجون ، ويشردون الأمم
والشعوب ، من غير أن يردعهم والزع من شعور انساني ،
أو ضمير ، أو دين .

فإنما إن الأتراك العثمانيين كانوا أمة قتال وحرب ،
فذلك حقيقة لا ننكرها ، ولا نماري فيها ، فقد اعترف
بمسألة الأتراك الأعداء قبل الأصدقاء ، قديما وحديثا .

وأما أنهم كانوا يسهون القتال أرباباً ، وأفساداً
في الأرض ، فذلك هو البهتان العظيم الذي نكروا ،
ونسبوه ، ونسبوا الاتراك العثمانيين منه .

لقد انطلق الاتراك العثمانيون في جميع حروبهم
الهجومية والدفاعية من منطلق إسلامي بحت ، فقد
كانوا كما ذكرنا في صفحات سابقة من هذا الكتاب
يعتبرون أن نشر دين الله في الأرض ، وعداية الناس
إليه ، هو من أهم واجباتهم ، ولقد حرصوا على أن
يقوموا بهذا الواجب ضمن الحدود التي وضعها الإسلام ،
فكانوا يخبرون البيزنطيين بين الإسلام أو الجزية ، أو
الحرب ، ولكن إصرار البيزنطيين على الحرب كان يدفع
العثمانيين إليها دفعاً ، لا حباً في القتال من أجل القتال ،
وأما جهاداً في سبيل الله عز وجل نشر الدين وأعلى
لكلمته .

وأنا لنأخذ هذا الفهم الإسلامي الصافي لفهم
القتال عند العثمانيين الاتراك من خلال مطالعتنا لرسالة
البشرى التي بعث بها السلطان محمد الفاتح للزعامة
الإسلامية الماصرة له ، يبشرهم فيها بفتح القسطنطينية ،
ففي رسالته إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة في

عن السلطان اينال شاه . التي تسلمها في الثالث
والعشرين من شهر شوال من عام ٨٥٧ هـ وفق السابغ
والعشرين من شهر تشرين الاول من عام ١٤٥٣ م .
كما يروي المؤرخ المصري ابن نغوي بردي في كتابه
« حوادث الدغور » . يقول السلطان الفاتح .

ان من احسن سنن اسلافنا . انهم مجاهدون في
سبيل الله عز وجل . ولا يخافون لومة لائم . واننا على
هذه السنة قائمون . وعلى تلك الامنية دائمون .
ممثلين بقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » .
ومستمكنين بهدي نبينا صلى الله عليه وسلم « عن
الحرب قدام في سبيل الله حرمه الله على النار » .

ويستطرد السلطان الفاتح في رسالته قائلا :

ولهذا فقد هممتنا هذا العام . معتمدين بحبل الله
في الجلال والاكرام . ومستمكنين بحبل الملك العلام .
الذي اداء فرض الغزاة (من الغزو) الذي فرضه علينا
الاسلام . مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين يلونكم
من الكفار » . وقد جهزنا عساكر المجاهدين من البحر
والبحر . لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا . وبقيت لمدة
طويلة وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخرا .

ونفس الروح الإسلامية الصادقة في اقبال الأتراك
العثمانيين على القتال ، ونحن نطالع نص دعاء السلطان
مراد بن أورخان في الليلة التي سبقت معركته الحاسمة
ضد التحالف الصليبي في منطقة « قوصوه » ، والذي
نقله المؤرخ التركي خوجا سعد الدين في كتابه « تاريخ
النوارج » ، والذي نقتبس منه هذه العبارات :

« يا الهي - اني اقسم بعزتك وجلالك اني لا
ابتعن من جهادي هذه الدنيا الفانية ، ولكنني ابتغي
رضاك ، ولا تشي - الحير رضاك . »

يا الهي - لقد شرفني بأن هديتني الى طريق الجهاد
في سبيلك . فردلي تشريفا بالموت في سبيلك . »



أما في حروبهم الدفاعية ، فقد كان العثمانيون
الأتراك يسطفون لخوضها من منطلق اسلامي واضح ،
استوحوه من قول الله عز وجل :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا
فلا تولوهم الأدبار . »

بن الذين يسمون الأتراك العثمانيين بأنهم كانوا
لما قال وحرب ، وأنهم لم يتركوا وراهم في البلدان
هي رفعوا رايهم فوقها أبة بصمات حضارية ، بل
الربوعا بنصص الطفيان والظلم والحرمان ، يشتمسون.
وهم في حاة حقدهم يسمون ، أن العثمانيين الأتراك
كانوا يواجهون دكام قرون طويلة من الأحقاد الصليبية
التي لم ينقطع أوارها ، ولم تقتر مؤامراتها ، طوال
سيرة حكم الدولة العثمانية .

والتي لأعجب ، كيف لا يكون الأتراك العثمانيون
لما قال وحرب ، وهم الذين كانوا يواجهون أحقاداً
صليبية أضر مضاجعها اعتدواهم للإسلام ، وذلزل
الأرض من تحت أقدامها ، وبلغ من شدة هذه الأحقاد
أن ينطلق لسان أحد ساداتها المستشرق الألماني فولدكه ،
معلقاً في مقال نشره في مجلة « دار اسلام » الألمانية في عام
١٩٢١ ، أن دخول الأتراك في الاسلام كان أكبر نكبة
في التاريخ .

وينقل أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقه على
كتاب حاضرم العالم الاسلامي ، عن المؤرخ دجوفارا ،

وهو وزير روحاني سابق ، قوله في كتاب ، مئة مشرد
للتقسيم تركيا ، :

ان اصل العداوة المزمعة التي يشعر بها الأوروبيون
للأتراك ترجع الى العداة الشديد الذي يكنه النصارى
للاسلام .

وقد بلغ الحقد عداة في قلب راهب دومينيكر
اسمه غلبوم دادان ، فالف كتابا في عام ١٣١٤ م أطلق
عليه عنوان ، كيفية استئصال المسلمين . دعا فيه
نصارى أوروبا الى غزو الامبراطورية البيزنطية
الارثوذكسية . وتحويلها الى مملكة لاتينية . ودعمها
بكل قوة لظف في وجه المد التركي الاسلامي . وتكون
منطلقا للانقضاض على الأتراك المسلمين في الاناضول
التركي لاستئصال شاكلتهم نهائيا .

ونفس الحقد الصليبي ضد العثمانيين في اقدام
البابا بيوس الثاني على عقد مجمع شارك فيه ملوك
أوروبا في عام ١٥٠٨ م قرروا فيه تشكيل حلف صليبي
لمحاربة العثمانيين . كما نفس الحقد الصليبي ضد
الأتراك العثمانيين . في بيان الملك الفرنسي لويس
الحادي عشر الذي نشره في عام ١٤٧٨ م والذي يقول فيه

، انسى ان يهل الى مريم القديسة المجيدة ان تخلص
ولم يزل يعزى كارلس شرفاً عظيماً وذلك بان تمكنه من
الطاع بنفسه الى الشرق ، ومعه نبلاء فرنسا وفرنسانها ،
البحر ، التركي ، المكروه وغيره من الجاحدين .

ولا يلبث كارلس الثامن ان يتجاوب مع رغبة
لويس الحادى عشر ، فيشر منشوراً يقول فيه :

انا القداء ، بأبالنا ملوك فرنسا المسيحيين
الصادقين . نريد ان نطلع بكل ما اوتينا من قوة هذه
الوطاء الكثيرة التي يرتكها ، الاثراك ، بحق الديانة
السيحية . وقد اخطانا على انفسنا عهداً ان لا نبخل
بالفسا ولا بشيء من امكانياتنا في دفع هؤلاء
الطواغيت ، الاثراك ، عن الممالك التي انتزعوها من
ايدي المسيحيين .

وفي عام ١٥١٢ م خاطب الملك لويس الثانى عشر
المراب الفرنسيين المجتمعين في مدينة ، مالن ، قائلا :
انا بالاتفاق مع صانئ ملوك المسيحيين تفكر في
عائلتنا المحبودة المقدسة على ، الترك .

وفي عام ١٥٢٠ م نشر المحكر الهولندي إيرلوم عدو
الى ملوك أوروبا يدعوهم فيه لحرب الأتراك ، وجاء في
النداء قوله : ان المسيحي لا يمكنه أن يعيش اذا لم
يصرع . الترك .

وفي عام ١٥٢٢ م نشر الراهب الهولندي نابونير
لنداء خاطب فيه نصارى أوروبا قائلا : ان محاربة المسلمين
أصبحت ضرورة من الضرورات لا مناص فيها ، فلا
لم نحارب . التركي . نحن ، فانه سيأتي هو ليحاربنا .
فلا بد اذا من أن ينقل جميع النصارى لمحاربة «الترك»
وابادتهم .

وفي عام ١٥٢٢ م وضعت في بلجيكا نشرة موجهة
الى نصارى أوروبا يدعوهم الى الاتحاد والزحف نحو
«الأتراك» لظهر تلك الأمة الجاحدة . . .

وفي ٢٥ نون من عام ١٥٧١ م أعلن البابا بيوس
الخامس عن قيام حلف صليبي يضم البابا وملك اسبانيا
فيليب وجمهورية البندقية لحرب «الأتراك» واسترداد
جميع المواقع التي احتلوها .

وفي عام ١٦١٩ م نشر الأب يوسف مستشار
الكاردينال ريشيليو كتابا بعنوان « كيف تظهر الأمة

التركية الملعونة . . . ونشر قصيدة عنوانها « التركية »
قال فيها ان امينته الوحيدة أن يتجج في اجبار الأتراك
للان على اعتناق المسيحية .

وفي عام ١٦٢٠ م وضع دوبريف سفير فرنسا في
اسلام بول خطة قدمها لملك فرنسا هنري الرابع كان
عنوانها « خلاصة بحث في اضمن الطرق لحجس سلطنة
العثمان » .

ولم يتورع نصارى أوروبا عن انتهاج أي سبيل .
شرعى . وغير شرعى . في الكيد ضد الأتراك العثمانيين .
ومن أمثلة ذلك ما قام به الكاردينال سيزاريني الذي
بعث به البابا لافناخ ملك المجر لاديسلاس بالمشاركة
في حلف مقدس ضد الأتراك . فلما أبلفه لاديسلاس
أنه أقسم على الكتاب المقدس أن يرفع معاهدة الصلح
التي عقدها مع السلطان مراد . استنأه الكاردينال
سيزاريني نصفا . وأمر الملك لاديسلاس بنقض المعاهدة
التي لم ينفذ عليها أكثر من خمسين يوماً فقط . مؤكداً
أنه إن الالتزام بالعهود مع المسلمين خطيئة . وإن حنتها
لخطيئة . وإن قسه على الانجيل لا يلزمه بشئ . تجاه
الأتراك الجاحدين .

ان الذين يتجهون الأتراك بأنهم لم يعرفوا طول
فترة حكمهم غير الفصال والحرب . يقتاسون أنهم كانوا
هدفا للأحقاد الصليبية على مدى الستة قرون التي
حكمت فيها دولتهم . وفي هذا الصدد يذكر الدكتور
احسان حقي في تعليقه على كتاب « تاريخ الدولة العلية
العثمانية » للاستاد محمد فريد بك المحامي . ان
الغريين (النصارى) اشغلوا العثمانيين في حروب
متواصلة . فصرفهم عن الاهتمام بشؤون دولتهم
الحضارية .

ويذكر امير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على
كتاب حاضر العالم الاسلامي . ان الأتراك العثمانيين
واجهوا على مدى فترة حكمهم مائة خطة صليبية للأجناد
على الدولة العثمانية . وقد قام الموزج الروماني دجوفارا .
وهو وزير روماني سابق . بفضح هذه الخطة في كتاب
اطلق عليه اسم « مئة مشروع لتقسيم تركيا » . وقام
امير البيان بمرء هذه الخطة المئة بشكل موحى في
تعليقاته .

وينبغي أن نشير الى ان هذه الخطة المئة لم توضع
جميعها موضع التنفيذ . بل ان بعضها ولد ميتا . ولكن

الخط الذي وضعت موضع التنفيذ كانت ذات خطورة
بالغة .

وبعدنا القول أن أول حلف صليبي واجهته الدولة
العثمانية كان في المراحل المبكرة لتأسيسها ، عندما
يأتى أمراء بورصة وعادانوس وأدره نوس وكثي
ركنته البيزنطيون في عام ٧٠٠ هـ وفق ١٣٠١ م
لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل
مؤسس الدولة العثمانية ، ولكن عثمان تمكن من تشتيت
الجوش الصليبي في موقع يقال له دينبور ، بيد أن
هذه الهزيمة لم تمت في عهد البيزنطيين ، فعادوا بعد
سنوات قليلة في عام ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م ، متحالفين
مع المغول ، لالتمصاص على الدولة الفتية ، فسارع
عثمان إلى إرسال ابنه أورخان لمواجهة جيوش هذا
الحلف الصليبي - المغولي ، ونزل نصر الله على
المسلمين ، والهزم المتحالفون .

وفي عام ٧٦٦ هـ - ١٣٦٥ م عقد ملوك وأمراء
الغرب والبلغار والمجر حلفاً صليبياً مقدساً حتى
ببشارة البابا أوربيان الخامس ، تعاهدوا بموجبه
على معارضة الأتراك حتى يقضوا عليهم قضاء مبرماً .

وتجميع لهذا الحلف مئة ألف مقاتل بقيادة ملك النصارى
لوتري ، وملك الصرب أورديش ، ولكن عكر الله كان أقوى
من مكر المتحالفين ، فهزمتهم الجيوش العثمانية
الاسلامية على مقربة من نهر مريخ ، وبلغ من شدة
هلعهم أن عشرات الآلاف منهم قذفوا بأنفسهم في نهر
مريخ طلبا للنجاة ، فغرقوا في مياهه .

ولم يضر على مرة ذلك الحلف الصليبي أربع سنوات
حتى قام حلف صليبي جديد بقيادة الأمير الإيطالي
الأصل أميديو ، الذي تحج في تجميع جيش من الفرسان
الإيطاليين تحت شعار الانتقام للصليب من الأتراك
المسلمين ، وتمكن في عام ٧٧٠ هـ - ١٣٦٨ م من
استرداد مدينة غاليبولي من العثمانيين ، وسلمها إلى
البيزنطيين ، الذين ارتفعت معنوياتهم ، وراودتهم من
جديد أحلامهم السابقة في القضاء على الأتراك
العثمانيين ، فسارع الإمبراطور يوانيس الخامس
بالذهاب إلى روما في عام ٧٧١ هـ - ١٣٦٩ م ، وقابل
البابا أوربانوس الخامس (أوربان الخامس) ، وطلب
منه المساعدة للوقوف في وجه الخطر الاسلامي المتمثل
في العثمانيين .

وعلى حثى الامبراطور يواكيس الخامس أن
 يتنازل البابا الكاثوليكي عن نصرة بيزنطية الارثوذكسية.
 بناء على اعلان تحوله عن العقيدة الارثوذكسية الى
 العقيدة الكاثوليكية البابوية خلال قداس خاص حضره
 البابا ، واربعة من الكرادلة ، وجميع نفير من القسس
 والرهبان ، في اليوم الثامن عشر من تشرين الاول من
 عام ١٢٦٩ م .

وكان من الطبيعي ان يتحارب البابا أوربانوس
 الخامس مع استغاثة امبراطور بيزنطية ، فأطلق نداء
 الى جميع ملوك وامراء أوروبا الكاثوليكية ، يدعوهم الى
 عقد حلف مقدس جديد ضد العثمانيين ، محذراً إياهم
 من خطر اجتياح العثمانيين المسلمين لأوروبا النصرانية
 كلها . واستمرت جهود البابا الى عقد حلف صليبي
 جديد في عام ٧٧٢ هـ - ١٢٧٠ م . انضوى تحت رايته
 حوالي سبعين ألف مقاتل بقيادة ملك الصرب الجديد
 " دوقاشين " ، ولكن الله عز وجل رد كيدهم الى
 نحورهم . فهزمتهم الجيوش العثمانية بعد معركة عنيفة
 على مقربة من سيوف بلدة صباغ . ولكن هذه الهزيمة
 لم تقف في عتد المتحالفين ، إذ سرعان ما اعتدى ملك

الصرب الجديد لازار على الحماية العثمانية في ،
 بازار ، واستولى عليها ، ولكن الجيوش العثمانية
 حكتت من استعادتها ، فاضطر لازار الى عقد معاهدة
 صلح مع العثمانيين في عام ٧٧٧ هـ - ١٢٧٥ م . ولم
 يلبث ان لحقه ملك البلغار شيمان ، فوقع معاهدة صلح
 مع العثمانيين في عام ٧٧٨ هـ - ١٢٧٦ م . ثم لحقهم
 امبراطور بيزنطية اندرونيقوس بالاً اولوغوس الرابع ،
 فوقع معاهدة صلح مع العثمانيين في عام ٧٨١ هـ -
 ١٢٧٩ م .

وعلى الرغم من توقيع تلك المعاهدات ، فان نيران
 الأحقاد الصليبية كانت لتفاعل بعنف في نفوس
 الصليبيين ، الذين كانوا يتحينون الفرص لينقضوا
 أحقادهم ضد العثمانيين المسلمين . ولم تلبث الفرصة
 ان وانهم في عام ٧٩١ هـ - ١٢٨٩ م ، فأعلن ملك
 الصرب لازار وملك البلغار شيمان ، نقضهما لعهدهما
 مع العثمانيين . فسارح السلطان مراد لمواجهة ملك
 البلغار شيمان ، فهزمه وأسره ، وحين وصل خبر هزيمة
 شيمان الى ملك الصرب لازار ارتبك ، واهتزت
 معدنياته ، فسارح الى الاستنجاد بأمرأه اليوسنة ،

والهريك . وأولاح . وبعض أمراء الأرتاؤوط . فنجحت
لهم قوات ضخمة سار بها للاقاة العثمانيين الذين
تركزوا في منطقة قوصود . حيث وقعت معركة حاسمة
أسفرت عن تنزل نصر الله عز وجل على المسلمين والدخار
الصليبيين . ووقوع لآزار في الأسر .

وفي عام ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م . واجهت الدولة
العثمانية خطراً جديداً تمثل في نجاح البابا بونيفاسيوس
الثامن في تشكيل حلف صليبي يصفه كارل بروكلمان
بأنه كان يمثل عملية إحياء للفكرة الصليبية التي كان
الأوربيون قد نسوها في الظاهر . وقد انظم في هذا
الحلف ملك المجر ماثيو . ودوق برغويتا
الفرنسي . وأينس الكونت دي لير . وأمير بافاريا
الابيا . وأمير أستوريا (النمسا) . وفرسان
المقدس يوحنا الأورشليمي الذين كانوا يتخذون من
جزيرة رودس قاعدة لهم . ووقعت المعركة الحاسمة
بين الصليبيين وبين الجيش العثماني بقيادة السلطان
بايزيد الصاعقة . على مقربة من نيغبولي . وأسفرت
عن انتصار المسلمين . ووقوع عدد كبير من أمراء أوروبا
وأشرافها في الأسر . ولكن بايزيد أخرج عنهم بعد أن

القسوة أعامة بأن لا يعودوا الى محاربة المسلمين ثانية
لم عاد فاحلهم من قسمهم قائلا لهم :

اذا رغبتم في العودة لحربنا، فثعالوا حينما تريدون.
فوافق لا شيء، أحب اليينا من محاربة جميع نصارى
أوروبا والاتصار عليهم .

ولم يكن بايزيد يقضي على خطر ذلك الحلف
الصليبي . حتى جاء التقدير بخطر جديد تمثل في اجتياح
ليومورليك . بتحرير من نصارى أوروبا ، للأناضول
التركي . ووقعت المعركة الحاسمة في سهل شوبوك
أولاً في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ذي الحجة
من عام ٨٠٤ هـ (٢٨١ لموز ١٤٠٢ م) . وأسفرت عن
هزيمة ساحقة للعثمانيين . نهلت لها أسارى نصارى
أوروبا . فسارعوا الى اعلان تمردهم على الدولة العثمانية،
فاعلان ملك الصرب لازار نقضه لمعاهدة الصلح التي
عقدتها مع العثمانيين . ثم تبعه في ذلك ملك البلغار،
ثم أمير الفلاح .

وبعد وفاة بايزيد . خلفه ابنه محمد جلبي الذي
بدل جهوداً كبيرة للتصدي لأكثر من مؤامرة استهدفت

الصاء على الدولة العثمانية ، وقد نجح محمد جلبي
 في استعادة شيء من هيبة الدولة العثمانية التي اعتزت
 بهزيمة بايزيد أمام تيمورلنك ، ولما توفي محمد
 جلبي ، ولي السلطنة ابنه مراد الثاني ، فأكمل مسيرة
 أبيه في استعادة هيبة الدولة العثمانية ، لكنه واجه
 خطراً جديداً تمثل في قيام حلف صليبي جديد انتظم
 أمير بلاد الفلاح الملقب بالشيطان ، وملك المجر ، وأمير
 الصرب ، ولكن السلطان مراد الثاني تمكن من هزيمة
 جيوش هذا الحلف الصليبي في عام ٨٢٩ هـ - ١٤٢٦ م.
 ويبدو أن هذه الهزيمة لم تكن في عضد أمير الصرب
 ميخائيل برنكوفتش ، الذي سرعان ما عاد ليعلن
 العصيان من جديد ، فصار إليه السلطان مراد ، ففر
 برنكوفتش والتجأ إلى حليفه الجديد الملك لاديسلاس
 الذي خلف الملك سيجسموند على عرش المجر ، ووقعت
 معركة الحاسمة في عام ٨٤٦ هـ - ١٤٤٢ م ، وانصر
 الجيش الصليبي بقيادة القائد المجري الشهير هونياد ،
 واستشهد في المعركة عشرون ألف مسلم ، ووقع عدة
 آلاف مسلم في الأسر ، فأمر هونياد بقطع رؤوسهم
 جميعاً ، وبش من جباجمهم عدة أهرامات .

وفي العام التالي ٨٤٧ هـ - ١٤٤٣ م ، واجه
العثمانيون خطراً آخر تمثل في انتصار هونيات على
جيش عثماني قوامه ثمانون ألف مقاتل ، بعد معركة
ضارية قرب مدينة « يالو واز » ويبدو أن هذين
الانتصارين أغريا هونيات فقرر مهاجمة السلطان مراد
لنفسه ، وتمكن من هريبته بعد معركة ضارية على مقربة
من مدينة تيش ، فاضطر السلطان مراد الثاني إلى
عقد معاهدات صلح مع ملوك وأمرأ الصرب والمجر
والفلاح ، كنازل لهم بموجبها عن كثير من المناطق التي
كانت خاضعة للدولة العثمانية ، بيد أن هذه المعاهدات
لم يدم معمولها طويلاً ، إذ أن أخبار انتصارات هونيات
التيالفة ضد العثمانيين حركت أطماع بابا روما في
القضاء على الأتراك العثمانيين المسلمين ، فسارع إلى
إرسال الكاردينال لاديسلاس إلى ملوك وأمرأ الصرب
والمجر والفلاح ، لتحريضهم على تشكيل حلف جديد
للقضاء نهائية على الدولة العثمانية ، وحين علم الكاردينال
بميزاديتهم قد عقدوا معاهدات صلح مع العثمانيين ،
استشاط غضباً ، وأجبرهم على نقض المعاهدات مؤكداً
لهم أن الوفاء مع المسلمين يعتبر خطيئة .

ولعل الكاردينال سيزاريني من اقناع ملكي
 النمسا والبربر وأمبر الفلاح وأمبر الاولاح . وأمبر الافلاق
 تحول حلف صليبي جديد . وأصدر البابا أوامره الى
 الكاردينال كوندولمر قائد الاسطول البابوي بالاتصال
 مع الامبراطور البيزنطي يواخيم باليه أولوغوس .
 لإقناعه بالانضمام الى الحلف الجديد . وقامت السفن
 البابوية بالهلال في البحر الفاصل بين آسيا وأوروبا في منطقة
 « جنق قلعة » لمنع عبور النجذات العثمانية من البحر
 الأسود الى البحر الاوروبي . وزاد من خطورة هذا
 الحلف الصليبي الجديد انضمام الآلاف من الفرسان
 الألمان والاطليان اليه . ووقعت المعركة الحاسمة في ٢٨
 ايار من عام ٨٥٨ هـ (١٠ تشرين ثاني ١٤٤٤ م) .
 في قرية من مدينة « وارسو » . وأسفرت عن هزيمة
 متكررة للصليبيين . وعن مقتل ملك المجر لاديسلاس .
 وموت البابا الكاردينال سيزاريني . وفر قائد الحلف
 القائد المجري هونياد .

ولم تضر سنوات قليلة حتى واجه السلطان محمد
 الفاتح . الذي خلف والده مراد . خطرا جديدا تمثل في
 قيام الامبراطور البيزنطي قسطنطين على مناشدة بابا

روما وملوك وأمراء أوروبا الكاثوليكية لتشكيل حشد
 صليبي لمحاربة العثمانيين ، وأبدى الإمبراطور
 قسطنطين استعداداه لتوحيد كنيسة الأرثوذكسية
 بالكنيسة البابوية الكاثوليكية وأراد أن يعبر عن صدق
 رغبته في توحيد الكنيستين ضد الخطر التركي
 الإسلامي ، فجسم على رغبته بين يدي الكاردينال
 الكاثوليكي «أيريدور» طالباً بركته في قصره الإمبراطوري
 في القسطنطينية ، وعلى مرأى ومسمع رجالات دولته
 وأشرفها ، في الثلاثين من شهر ذي القعدة من عام
 ٨٥٦ هـ - (١٢ كانون أول ١٤٥٢ م) .

ويروي الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في
 كتابه « السلطان محمد الفاتح » أن الإمبراطور
 قسطنطين بعث إلى البابا برسالة يندره فيها بأنه إذا
 لم تسارع أوروبا الكاثوليكية لنصرة القسطنطينية ، فإن
 هدف الأتراك القادم سيكون روما ، مركز البابوية
 دانيها .

ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تلاشى حين جوبه
 قسطنطين بمعارضة شديدة من رجسالة الكنيسة
 الأرثوذكسية الذين رفضوا فكرة توحيد الكنيستين

بعد زعامة البابا الكاثوليكي . وبلغ من حدة المعارضة
في الدول الكبرى لاطوراس أعلن عن رفضه لتلك
الفكرة قائلا :

« ليس أفضل جماعة المسلم البيضاء » على قبعة
الكاردينال الكاثوليكي الحمراء » .

بعد أن الخطر لم يلبث أن اندلع من جديد في وجه
السلطان الفاتح . حين تزعم البابا نقولا الخامس حملة
سطة لتشكيل حلف صليبي مقدس . وترأس بنفسه
بإعرا في روما أسفر عن اتفاق ملوك وأمرء أوروبا
الكاثوليكية على تحييد خلافتهم . وحشد جميع
قواهم لتصدى للأتراك العثمانيين . واستنقاذ عاصمة
الكنيسة الأرثوذكسية . القسطنطينية . منهم .

وكان الأمر فيليب الطيب بورغونديا من أشد
أعداء أوروبا تحمسا لتشكيل الحلف الجديد .
وأسفر عن جهوده عن اقتناع امبراطور ألمانيا فريدريك
الثالث . وملك فرنسا شارل السابع . بالانضمام
لحلف الجديد . ولكن الحماس لتشكيل هذا الحلف
لم يلبث أن حبا اثر وفاة البابا نقولا الخامس في عام
١٤٥٥ م . فحاول خلفه البابا بيوس الثاني أن يعيد

الروح الى ذلك الحلف ، لكنه لم يلق تجاوباً مشجعاً
من أوصار الحلف المتحمسين كدوق بورجونديا ، وملك
فرنسا ، وإمبراطور ألمانيا ، ولم يستجب له غير ملك
المجر لاديسلاس الذي جهز جيشاً ضخماً بقيادة القائد
الشهير هونياد ، ثم انضم اليه ملك الصرب جورج
برانكوفيتش .

وفي منتصف عام ١٤٥٩هـ - ١٤٥٥م . باغتت
الجيوش الصليبية الحامية العثمانية التي عيّد إليها
السلطان الفاتح بالمرابطة في المناطق التي تم فتحها من
بلاد الصرب ، وتمكن هونياد من التغلب على الحامية
العثمانية ، فسارع السلطان الفاتح لمواجهة هونياد ،
ولمكن من التغلب عليه ، واضطر هونياد وحليفه ملك
الصرب برانكوفيتش الى الفرار .

ولم يكن السلطان الفاتح يقضي على خطر الحلف
الصليبي المجري الصربي ، حتى واجه خطراً صليبياً
جديداً تمثل في تحالف ملك نابولي الايطالي وزعيم بلاد
الارناؤوط (البانيا) اسكندر بك ، ولكن الفاتح تمكن
من حزيمة الجيوش الصليبية .

وفي تلك الانساء كان فرسان القديس يوحنا
يصدون لسطاتهم الحربي ضد الجزر والشواطئ
العثمانية . فسير الفاتح اسطولا بقيادة يونس باشا
تمكن من الحاق الهزيمة بهم ، فاضطر قائدهم جاكوس
دي ميللي . الذي كان يلقب بالأسناذ الاعظم ، الى
توقيع معاهدة تعهدوا بموجبها بالكف عن ايذاء
المسلمين .

بعد ان الخطر الصليبي لم يلبث ان ظهر من جديد
في عام ٨٦٠ هـ - ١٤٥٦ م . حين نجح بابا روما في
تشكيل قوة صليبية بقيادة الرابع المجري جيوفاني
دي كايستراتو . انضم اليها مئات المتطوعين تحت قيادة
القسس من ألمانيا وإيطاليا . والنساء ، وتمكنت هذه
القوة من مساعدة القائد المجري هونياد في صد الهجوم
العثماني على بلغراد . مما اضطر السلطان الفاتح الى
اصدار أوامره بالانسحاب من بلغراد بعد ان تمكن
الجيش العثماني من دخولها ، ويبدو ان انسحاب
الجيش العثماني حاس الصليبيين ، فقاموا بملاحقة
العثمانيين حتى اوصلوه الى مركز قيادته . وكادوا
يجهزون عليه ، لولا ما أبداه السلطان الفاتح من رباطة
جهد .

جاءت الهبت حماس جنوده . فصدوا أمام الصليبيين .
ثم اضطروهم الى الانسحاب .

وفي عام ٨٦١ هـ - ١٤٥٧ م . واجه الفاتح خطراً
جديداً تمثل في تحالف ملك نابولي الفونسو الخامس
مع زعيم الأرنالوط اسكندر بك ، بمباركة البابا الجديد
كاليكوس الثالث . الذي شارك في التحالف بقوة
بحرية بقيادة الكاردينال لودوفيتشي . وقد تمكن
التحالفون من اخراج النصر على جيش عثماني بقيادة
علي بن أفرينوس بك . واستولى الاسطول البابوي على
جزيرتي ليسى وناشور . لكن نشوة هذه الانتصارات
الصليبية نهاوت أمام الانتصارات التي حققها السلطان
الفاتح في شبه جزيرة القورة واليونان .

لكن الخطر الصليبي لم يلبث أن أطل برأسه من
جديد في عام ٨٦٥ هـ - ١٤٦١ م . وتمثل في تحالف
مملكة طرابزون النصرانية مع الأمير حسن الطويل زعيم
دولة « الكوينلو » التي كانت تتخذ من سيواس
عاصمة لها . والتي كانت تعتبر نفسها الوريثة
الشرعية لدولة الأتراك السلاجقة . وتزايد خطر هذا

حلف باضمام البندقية وجنوه اليه بموجب معاهدتين
بريتي . ولكن السلطان الفاتح تمكن من هزيمة حسن
الطويل . ثم يتم شطر طرابزون ففتحها .

وفي عام ٨٦٧ هـ - ١٤٦٣ م . فوجيء الفاتح بخطر
جديد تمثل في قيام حلف صليبي جديد بمباركة البابا
بوله الثاني . وانضم الى الحلف ملوك وأمرء نابولي .
والأراغون . وزعماء جمهوريات البندقية . وفلورنسا .
وميني . ولوكوس . وزعماء دوقيات ميلانو . وفراري .
وهودينا . وسافوي .

ورأت من خطورة الحلف الجديد نجاح البابا في اغراء
دولة النماليك . التي كانت تحكم مصر والشام . بمدة
العمد الى حسن الطويل ليعلم العصيان من جديد ضد
الدولة العثمانية بموجب معاهدة سرية وقعها حسن
الطويل مع أحد نبلاء البندقية واسمه كاترينو زينو في
ربيع عام ٨٧٥ هـ - ١٤٧١ م . تعهد حسن الطويل
بموجبها بطرد العثمانيين من الأناضول . وملاحقتهم حتى
عسبك الدردنيل . حيث تجمع قواته هناك مع قوات
التحالف الصليبي . للانقضاض على القسطنطينية .
وطرد العثمانيين منها .

ويمكن القول أن هذا الحلف الصليبي الجديد .
 المتعاون مع دولة المماليك ، ومع حسن الطويل ، كان
 يشكل خطراً ساحقاً لا يمكن التقليل من خطورته .
 خاصة وأن اضمحلال جمهورية البندقية إليه ، زوده
 بقوة بحرية ضخمة تزيد عن ٣٦٠٠ سفينة حربية
 بقيادة الأدميرال بييرو موسينغو ، وقد تمكن التحالفون
 في بداية الأمر من تحقيق بعض الانتصارات ضد
 العثمانيين ، إلا أن السلطان الفاتح حقق انتصاراً
 حاسماً ضد حسن الطويل في عام ٨٧٨هـ - ١٤٧٣م .

ولقد كان من الطبيعي أن تهتز أوروبا النصرانية
 غضباً عندما انتهت إلى اسماعها ألباء انتصار السفطان
 الفاتح ، فقد كان ذلك الانتصار ايذاناً بفشل
 مخططاتها في تشكيل جبهة نصرانية . إسلامية ضد
 العثمانيين ، وايذاناً باقتراب الخطر العثماني الإسلامي
 من أبوابها أكثر من أي وقت مضى ، واشتعلت الحقد
 بالأميرال بييرو موسينغو قائد أسطول البندقية
 والقائد العام للأسطول الصليبي ، فصب جام حقه على
 مدن انطاكية ، والزمر ، ومدللي . وركز على مدينة
 الزمر فهدم جميع مساجدها وأحرقها ، ولم تسلم

الكائن من التخريب . وأعمس السيف في رقاب
رجال . وانتكح الأعراض . وارتكب من الجرائم
الوحشية ضد المسلمين ما لا يخطر على بال . كما يقول
الوارث التركي اسماعيل حامي دنشمند .

ويبدو ان التصار الصليبيين في ازمر وانطاكيا
ومدلى قد أفرغهم على المضي في هجومهم ضد العثمانيين ،
تعاونوا مع فلول أمراء سلطنة قرمان . وتمكنوا من
استرداد منطقة أيشال والسيطرة عليها ، ولكن مقامهم
لم يطل بها . إذ سرعان ما استعادها العثمانيون ، وكان
ذلك في عام ٨٧٩ هـ - ١٤٧٤ م .

وما كاد السلطان الفاتح يتجسس في إيقاف التقدم
الصليبي . حتى تواردت اليه الأنباء عن نكث أمير بلاد
البيضان (شمال رومانيا) لمعاهدة الصلح التي كان
قد عقدها مع السلطان الفاتح في عام ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م ،
واعتناقه عن دفع الجزية السنوية للدولة العثمانية .
وعن قيام الأمير سليمان الرابع بتجهيز جيش كبير
لحاربة العثمانيين . فسارع السلطان الفاتح الى ارسال
قوة بقيادة سليمان باشا لمواجهة أمير البيضان ، ولكن

هذا الامر تمكن من الايقاع بالقوة العثمانية في كمين ،
ولكن بسهولة من التغلب عليها بسبب الارهاق الذي
كان يعاني منه الجنود ، وتمكن قائدهم سليمان باشا
من النجاة بنفسه بصعوبة ، وقام الامير ستيبان باعدام
جميع الاسرى المسلمين بوضعهم فوق الخوازيق وعم
أحياء ، وكان ذلك في اليوم التاسع من رمضان المبارك
من عام ٨٧٩ هـ وفق السابع من كانون الثاني من عام
١٤٧٤ م ، واستقبل البابا ليا النصر ستيبان بفرح
عظيم ، وسارع الى منح بركاته للامير ، وانعم عليه
بلقب « فارس المسيح » .

على ان هزيمة سليمان باشا لم تفت في عضد
السلطان الفاتح ، بل زادت من عزمه على تاديب « فارس
المسيح » ، الامير ستيبان الرابع ، وقرر اتباع خطة
جديدة فهاجم المستعمرات الجنوبية في شمالي البحر
الاسود وسيطر عليها ، فانهى بذلك الوجود النصراني
في البحر الاسود ، ولكن من اصابة عصفورين بحجر
واحد ، اذ احكم الحصار من تلك الجهة على بلاد البغدان ،
ودعم موقفه الدفاعي في وجه امارة موسكو النصرانية
التي بدأت في استعراض عضلاتها في وجه الدولة

عثمانية - والتي كان على رأسها الأمير الداعية «ايغان
الطيب» - الذي كان متزوجاً من ابنة الأمير توماس
لشيب آخر امبراطور بيزنطي قسطنطين الحادي عشر - .

وعندما توفي السلطان الفاتح رحمه الله في عام
٨٨٦ هـ - ١٤٨١ م ، تنقسمت أوروبا النصرانية الصاعدة ،
والامبر البابا سكتيوس الرابع أوامره بإقامة صلوات
الشكر في جميع الكنائس الكاثوليكية ، وقرعت أجراس
الكنائس ابتهاجا . وبدأت الصليبية مرحلة جديدة في
الخطط للتصدي للأتراك العثمانيين والقضاء عليهم - .

وترغم ملك فرنسا كارلس الثامن في عام ١٤٩٤ م ،
بمشاركة البابا الجديد اسكندر بورجيا أول تحريك
صليبي ضد الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان الفاتح ،
إلا انه اصطدم بمعارضة ملك نابولي ورئيس جمهورية
البندقية اللذين شكّا في نواياه العدوانية ضد بلادهما ،
وكان كارلس الثامن يعتبر نفسه الوريث الشرعي
لعرش الامبراطورية البيزنطية بموجب حثه وقعه له
الأمير البيزنطي اندريه باليولوج في السادس من تشرين
ثاني من عام ١٤٩٤ م . وكانت خطته ان يستولي على

لابولي . لينطلق منها الى القسطنطينية ، وقد تمكن
فعلا من الاستيلاء على نابولي . بمباركة البابا اسكندر
بورجيا السادس . وانضم اليه فيما بعد قائد فرسان
القديس يوحنا المتحركز في جزيرة رودس . وارسل
اليه مبعوثا يعلن التضامنه اليه قائلا انه يأمل أن يتمكن
اهل الصليب من استئصال شافة الامة الملعونة . أمة
محمد . كما ورد في ص ٤٩ من كتاب ، مئة مشروع
لتقسيم تركيا ، الذي ألفه المؤرخ الروماني دجوفارا .

وكاد الملك كارلس يحقق أغراضه لولا أن بابا
روما بدأ يشعر بالريبة تجاه نواياه ، فتحالف مع
جمهورية البندقية . والامير الفرنسي زعيم الارغوان ،
فاضطر كارلس التامن الى التخلي عن عزمه على غزو
القسطنطينية . وعاد الى فرنسا .

ولجدد الخطر الصليبي ضد العثمانيين في عام
١٥٠٨ م . عندما دعا البابا يوليوس الثاني ملوك وزعماء
أوروبا الكاثوليكية الى عقد حلف جديد ضد الانراك .
ولكن رغبته لم تتحقق الا بعد وفاته . حين نجح خلفه
البابا لاون العاشر في عام ١٥١٥ م في تشكيل حلف

صلي عليه انضم اليه امبراطور المانيا مكسيميليان
 وبسك النكسرا وملك بولوتيا ، ودوق مسكوبيا المسمر
 باريل ، وملك فرنسا فرانسوا الاول ، وملك البرتغال
 فيرديناند الحارث التي كانت متحدة بين هؤلاء ، حالت
 بين قيام أي نشاط صلي ، فأعلن البابا في عام ١٥١٧ م
 عدنة بن ملوك أوروبا لمدة خمس سنوات لينفرغوا
 خلالها لمحاربة الاتراك ، وتصادف ذلك مع ورود الاخبار
 باستيلاء السلطان سليم على مصر وضمها الى الدولة
 العثمانية ، فاستشاط ملوك أوروبا غضبا ، وسارعوا
 الى تسمية عداء البابا ، وعلى رأسهم ملوك فرنسا
 واسبانية وانجلترا والبرتغال والمجر وبولونيا
 والدنمرك والوسيا ، وشرع المتحالفون في عام ١٥١٩ م
 بجهر جيوشهم ، ولكن موت الامبراطور مكسيميليان
 الاول في عام ١٥١٩ م وضع حدا لحماهم ، فانقرط
 عقدهم .

وشهدت فترة حكم السلطان سليمان القانوني
 (٩٢٦هـ - ٩٧٤هـ) - (١٥٢٠ م - ١٥٦٦ م) تقلص
 الخطر الصليبي ، بل ان معظم زعماء أوروبا طلبوا
 معاهدات صلح مع الدولة العثمانية خوفا وهلما ، لكن

الاتحاد الصليبي عادت تظهر من جديد في عهد ولده
 السلطان سليم الثاني ، حيث عقدت جمهورية البندقية
 حلفاً مع مملكة اسبانيا بعبارة البابا بيوس الخامس
 في عام ٩٧٩ هـ - ١٥٧١ م ، وتمكنت جيوش الحلف
 الصليبي من هزيمة الجيش العثماني في معركة بحرية
 أسفرت عن أسر حوالي ثلاثين ألف جندي عثماني ،
 والاستيلاء على ١٣٠ سفينة حربية عثمانية بحالة
 سليمة ، وكان لهذا الانتصار الصليبي رنة فرح غامرة
 في قلوب نصارى أوروبا وأعقب هذا الانتصار انتصار
 آخر في عام ١٥٩٥ م ، عندما انهزم جيش السلطان
 مراد الثالث ابن سليم الثاني أمام الحلف الصليبي الذي
 تشكل من أمراء بلاد الفلاح والبغدان وترنسلفانيا ،
 وملوك المجر والنمسا وإمبراطور ألمانيا ، ولم يتوقف
 خطر هذا الحلف الصليبي الا عندما تمكن السلطان
 محمد الثالث ابن مراد الثالث من إلحاق الهزيمة
 بالجيوش الصليبية في معركة ترزت ، في عام ١٥٩٦ م ،
 ويرز اسم البابا ألكسندروس الثامن كواحد من
 أعد البابوات حقداً على الأتراك ، فقد استهل عهده
 بثور سلمه منصب البابوية في عام ١٥٩٢ م ، باستنفار

الإمبراطور الألماني رودولف . وملك روسيا ، وأمير
رسلانيا سجنونه . لحرب الأتراك وأرسل
السفير كوستا وديا غوميرندا لتحريض العجم على
الحرب بالدولة العثمانية .

وفي عام ١٦٠٠م عقد مجمعا كنسيا . دعا فيه ملوك
ولمراء أوروبا لتوحيد جهودهم لمحاربة الأتراك . واشتط
« الحساس » فأجهش بالبكاء ، وعندما انفض المجمع
أرسل الكاردينال ريموندو لاتوري الى فيينا لاستنفاذ
الإمبراطور النمسا للدخول في حلف صليبي لمحاربة
الأتراك . وبلغ من شدة حماس البابا ألكسندروس
الثامن لفكرة محاربة الأتراك انه دعا البروتستانت
لدخول الحلف المقدس ضد الأتراك ، على الرغم من
استخدام الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت .

وفي عام ١٦٠١م اشتط الغضب بالبابا ألكسندروس
أثر مقتل ابن أخيه الجنرال الدونيراندني أثناء معركة
ضد الأتراك . قبيل جهدا كبيرا لاقناع ملك فرنسا
هنري الرابع . وملك إسبانيا فيليب الثالث . بتجميد
خلافتهما والدخول في حلف مقدس لمحاربة الأتراك .

وكادت جهود البابا تفلح . لولا أن ملك فرنسا اكتشف
مؤامرة كانت تدبر ضده بتحريض من ملك اسبانيا .

وفي عام ١٦١٤ م واجهت الدولة العثمانية خطرا
جديدا عندما بارك البابا بولس جهود الدوق شارل
دوفير الذي ينسب الى العائلة الامبراطورية البيزنطية
من جهة جدته . لتشكيل حلف صليبي جديد ضد
الأتراك ينضم اليه خمسة عشر ألف مقاتل من اهل
المورة . وبضعة آلاف من الصرب والارناؤوط والبوسنة
والهرسك والبغفار والدالميا . وجرت اتصالات مع أمير
الفلج واليخاندان وملك اسبانيا وملك فرنسا وجمهورية
البندقية للمشاركة في الحلف . وكادت جهود الدوق
شارل دوفير تسجح في تشكيل الحلف بمباركة بابا
روما . لولا أن جمهورية البندقية تراجعت عن الدخول
فيه . فلما بقي الحلفاء . وانقرط عقدتهم .

وفي عام ١٦٥٧ م تمكن أسطول جمهورية البندقية
من الاستيلاء على الدردنيل . وقطعوا عن اسلام بول
جميع الطرق البحرية الموصلة اليها . ولكن العثمانيين
تمكنوا بعد عناء من فك الحصار عن القسطنطينية ودعروا
السفن العثمانية .

وفي عام ١٦٦٠ م نجح الكاردينال مازارين في
صالح العلاقات بين ملك فرنسا وملك اسبانيا ، فشكلا
خطاً صليبياً انضم اليه الآلاف من الفرنسيين والاسبان
والإيطاليين ودول توسكانا ، وبارك البابا هذا الحلف ،
وحقق اسطول هذا الحلف نصراً على العثمانيين ، لكنهم
لم يلبثوا أن هزموا جيوش هذا الحلف شر هزيمة في
معركة « قنديا » .

وفي عام ١٦٦٤ م واجه العثمانيون خطراً جديداً
أنتل في حلف صليبي جديد بداركه البابا اسكندر
السابع ، وانضم اليه امبراطور النمسا ليوبولد ، وملك
فرنسا لويس الرابع عشر ، والكونت الألماني دي كوليني
على رأس أربعة وعشرين ألف مقاتل ألماني ، والدوق
الفرنسي دي لافوياد . واندلعت المعركة قريباً من نهر
« راب » ، وسُميت المعركة باسم « معركة سان جوتار »
نسبة إلى كنيسة مهجورة وقعت المعركة قريباً منها ،
وحقق الصليبيون انتصاراً في المعركة ، لكنهم لم يستطيعوا
حسمها نهائياً ، فاضطروا لعقد معاهدة صلح حصلوا
بموجبها على بعض المكسيات الإقليمية ، ولكن ملك
فرنسا نقض المعاهدة في عام ١٦٧٠ م وأرسل اسطولاً

بحرباً لمحاربة العثمانيين . الا أنه عاد فسحبته بناء على
مشورة وزيره كولير الذي أقنعه بعدم جدوى معارضة
العثمانيين منفرداً .

وفي عام ١٦٧٢ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في قيام القائد البولوني سويسكي بمهاجمة
مدينة شرح والاستيلاء عليها ، ودحر الجيش العثماني
الذي أرسلته الدولة لمحاربته . واستمرت الحرب بينه
وبين الدولة العثمانية حتى عام ١٦٧٦ م .

وما كادت الدولة تستريح من الحرب البولونية ،
حتى واجهت خطراً جديداً تمثل في حلف روسي -
قوزاقي . واستمرت الحرب بين العثمانيين . والروس
وحلفائهم حتى عام ١٦٨١ م . حيث انتهت بعقد معاهدة
رادزين بين الطرفين .

وفي عام ١٦٨٢ م واجه العثمانيون الخطر من جديد
حين تحالف ملك بولونيا الجديد سويسكس مع أمراء
بافاريا وساكس (مقاطعة ألمانية) . وبارك البابا هذا
الحلف . وتمكنت الجيوش الصليبية من هزيمة جيش
عثماني بقيادة قره مصطفى باشا ، فأغرق هذا الانتصار

ملك النمسا ورئيس جمهورية البندقية وراهبان مالطة
وبك روسيا ، فأعلنوا انضمامهم بتحريض من البابا
الى الحلف المقدس ، وأقسموا على محو الدولة العثمانية
من الوجود . وزاد من خطورة الوضع اقدام ملك فرنسا
على قطع علاقاته الدبلوماسية مع الدولة العثمانية ،
ولمكنت جيوش الحلف الصليبي من احراز عدة
انتصارات ضد الجيوش العثمانية ، في جهات اليونان
والعراق والبلقان والجزيرة ، وحقق الصليبيون نصرهم
الحاسم في سهل موهاكر في عام ١٦٨٧ م ، حيث قضوا
قضاء مبرما على الجيوش العثمانية التي كان يقودها
الصدر الأعظم سليمان باشا . وأعقب تلك الهزيمة
استيلاء الجيوش الصليبية على مدن بلغراد ونيش وعدد
كثير من المدن الاخرى والقلاع . ولم يتوقف هذا الخطر
الاثني الذي كان يهدد كيان الدولة العثمانية الا عندما
لمكنت الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم
كوزلوي مصطفى باشا . من هزيمة الجيوش
الصليبية في عام ١٦٩٠ م . واستعادت منها بلغراد
ونيش وجميع المدن والقلاع التي كانت قد استولت
عليها .

بيد أن الخطر لم يلبث أن اندلع من جديد في عام
١٦٩٥م عندما قاد امبراطور روسيا الشهير بطرس
الأكبر جيشاً ضخماً لمهاجمة الجيوش العثمانية في بلاد
القرم ، وتمكن من محاصرة مدينة « اراق » بغية فتحها
لتصبح منفذاً له على البحر الأسود ، ولكن هذا الخطر
ارتفع بسبب اضطرار بطرس الأكبر الى الانسحاب
تحت وطأة الصمود الذي أبدته الجيوش العثمانية .

وفي عام ١٦٩٦ م برز خطر جديد تمثل في هجوم
صافق قام به الجيش النمساوي على الجيوش العثمانية
الرابطة في رومانيا - لكن حدة الهجوم انحسرت اثر
هزيمة الجيش النمساوي امام العثمانيين في معركة
« اولاش » . ولكن القائد الجديد للجيش النمساوي
الامير اوجين دي ساڤوا تمكن من ايقاع هزيمة منكرة
بالعثمانيين في عام ١٦٩٧ م أثناء عبور العثمانيين لنهر
« تيس » في بلاد المجر ، وانهز بطرس الأكبر امبراطور
روسيا مناسبة هزيمة الجيوش العثمانية فهاجم مدينة
« اراق » واستولى عليها ، ولولا أن الجيش العثماني
الذي ارسله السلطان مصطفى خان الثاني بقيادة
الصدر الاعظم كوبريللي حسين باشا تمكن من ايقاف

الهجوم النمساوي ، لمواجهة الدولة العثمانية خطر
 الإبادة أمام الخطر الروسي من جهة والخطر النمساوي
 من جهة أخرى ، وقد اضطرت الدولة العثمانية آنذاك ،
 ورئيس النصر الذي حققه حسين باشا ضد الجيش
 النمساوي ، إلى إبرام معاهدة « كارلوفتش » في عام
 ١٦٩٩ م . تنازلت بموجبها عن بلاد المجر ، وقليسم
 ترانيلافيا للنمسا ، وعن مدينة « اراق » لروسيا ،
 وعن مدينة كايلاك وافيبي بودوليا ووكروين لبولونيا ،
 وعن جزيرة الحورة للبندقية ، وكانت هذه المعاهدة من
 أنسى النكبات التي أصيبت بها الدولة العثمانية .

وفي عام ١٧٠٩ م اندلع الخطر من جديد متمثلاً
 في انصار بطرس الأكبر على ملك السويد شاول
 الثاني عشر حليف الدولة العثمانية ، وكاد الجيش
 العثماني يقضي على الجيوش الروسية بقيادة بطرس
 الأكبر حين حاصره بقيادة الصدر الأعظم بلطه جي
 محمد باشا ، ولكن عشيقه بطرس الأكبر كانريتا تعكنت
 من اقواء بلطه جي باشا ، ففك الحصار عن الجيوش
 الروسية ، مما انقذها من خطر الإبادة التامة ، وأعطاها

الفرصة لإعادة التحرش بالدولة العثمانية ، ولكن
بطرس الأكبر اضطر الى عقد معاهدة ادرنة في عام ١٧١٣ م .

بيد ان الخطر لم يلبث ان تزايد في نفس العام
عندما تحالف امبراطور النمسا شارل الثالث مع البندقية ،
وتسكنت جيوش المتحالفين بقيادة الامير اوجين دي ساڤوا
من هزيمة العثمانيين في معركة « بتراوردين » في عام
١٧١٦ م . واعقب ذلك استيلاؤهم على مدينة بلغراد ،
واضطرت الدولة العثمانية ازاء ذلك الى توقيع معاهدة
« ساروفتش » ، قدمت بموجبها تنازلات جديدة الى
النمسا والبندقية .

وفي عام ١٧٢٦ م واجهت الدولة خطرا جديدا
يمثل في النهار روسيا والنمسا وفرنسا فرصة انشغال
العثمانيين في محاربة سلطان العجم نادر شاه ، فأعلنت
عن تشكيل حلف صليبي جديد ضد العثمانيين . مما
حدا بالسلطان العثماني محمود خان الأول الى عقد
معاهدة صلح مع نادر شاه للتفرغ لمواجهة خطر الحلف
الصليبي الجديد ، وتمكنت الجيوش العثمانية من
ازالة هذا الخطر الصليبي بعد احرازها النصر الحاسم
في عام ١٧٢٩ م .

وفي عام ١٧٦٢ م ، واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في قيام كاترينا الثانية امبراطورة روسيا
بمحاولة السيطرة على بولونيا اثر وفاة ملكها أوغست
الثالث حليف الدولة العثمانية ، فاندلعت الحرب بين
الدولتين ، وتمكنت الجيوش الروسية من احراز النصر
على جيش عثماني بقيادة الصدر الاعظم محمد أمين باشا
في عام ١٧٦٨ م ، ونظب ذلك هزيمة أخرى عني بها
العثمانيون أثناء عبور أحد جيوشهم لنهر دنيستر في
عام ١٧٦٩ م ، وأبعد جميع الحدود العثمانية في تلك
المعركة ، والحرب هذه الانتصارات القوية الصليبية
الأخرى ، فحاول أهالي شبه جزيرة القرم الثورة ضد
الدولة ، وبلغ الغرور مداه حين أعلن الامبرال الروسي
« الكسوف » عن عزله على غزو اسلام بول ذاتها
(القسطنطينية) ، ولكن هذا الغرور الصليبي لم يلبث
ان اخمد بعد ان تمكن الاسطول العثماني من الحاق
الهزيمة بالاسطول الروسي في عام ١٧٧١ م ، مما اضطر
روسيا الى قبول عقد هدنة في مدينة جورجيو البلغارية ،
ولكن الامبراطورة كاترينا الثانية نقضت الهدنة في عام
١٧٧٣ م ، فاندلعت الحرب من جديد ، وأحرز العثمانيون

النصر على الروس في معركة خسر فيها الروس نسبة
 آلاف قتيل على مقربة من مدينة ساستيريا القريبة من
 بخارست عاصمة رومانيا . ولكن تلك الهزيمة لم تفت
 في عهد روسيا القيصرية التي كانت تعتبر نفسها وريثة
 بيزنطية في زعامة الكنيسة الارثوذكسية . فعملت الى
 تحريض والي مصر علي بك للثورة ضد الدولة
 العثمانية . وقام قائد الاسطول الروسي في البحر
 الابيض المتوسط بامتداده بكميات كبيرة من الاسلحة
 والذخيرة . مما أمكنه من الاستيلاء على غزة ونابلس
 والقدس ودمشق . وانضم الى علي بك في اعلان التمرد
 والي عكا الشيخ طاهر . وتمكن الحليفان بمعاونة
 الاسطول الروسي الفعلية من هزيمة الاسطول العثماني
 في صيدا . وانضم ٤٠٠ جندي روسي الى علي بك
 لمساعدته على احكام سيطرته على مصر . ولكن القائد
 محمد بك ابو الذهب الذي بقى على ولائه للدولة
 العثمانية تمكن من هزيمة علي بك وقضى على خطره .
 وما كاد العثمانيون يقضون على خطر التمرد الذي
 ياركنه روسيا في مصر وفلسطين والشام . حتى عادت
 روسيا في عام ١٧٧٤م الى التحرش بالدولة العثمانية .

يعرف الفيلد مارشال رومانزوف نحو واردة فاحتلها
 بعد أن هزم الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم
 محسن زاده ، الذي خشي من الهزيمة فاضطر إلى طلب
 هدنة أسفرت عن عقد معاهدة « قينارجة » ، قدمت
 الدولة العثمانية بموجبها مزيداً من التنازلات لروسيا ،
 بل وتعهدت بموجب بند سري في المعاهدة بدفع غرامة
 حربية لروسيا ، وكانت هذه المعاهدة نكسة سياسية
 هزت هيبة الدولة العثمانية ، وأغرقت بها القوى
 الصليبية الأخرى ، بل أن روسيا ذاتها نقضت المعاهدة
 بعد عدة شهور من توقيعها حين استولت جيوشها على
 بلاد القرم التي نصت المعاهدة على استقلالها تحت
 الحماية العثمانية ، واشتغلت في تحديدها ، فأبرمت مع
 النمسا حلفاً سرياً اتفقا بموجبه على مهاجمة اسلا م بول ،
 وإعادة احياء الامبراطورية البيزنطية ، وتعيين الفرائدوق
 الروسي الارثوذكسي قسطنطين بن بولس امبراطوراً
 عليها .

وفي عام ١٧٨٧ م بلغ الخطر الصليبي مداه حين
 قامت الامبراطورة كاترينا الثانية بجولة في بلاد القرم ،
 حيث قابلت آناسا ملك بولونيا ، وامبراطور النمسا ،

والعقد معها على تشكيل حلف صليبي مقدس ضد
الأتراك . ومضى الثلاثة في موكب حافل ومروا من تحت
لافتة كتب عليها « الطريق إلى بين نطية » وبدأ المتحالفون
نشاطهم الحربي بهجوم كاسح قام به القائد الروسي
الجنرال بوكسكين على مدينة أوزي ، واستيلائه عليها ،
وحاول إمبراطور النمسا يونس الثاني الاستيلاء على
مدينة بلغراد ، ولكن الجيش العثماني تمكن من هزيمة
الجيش النمساوي ، ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عقد
المتحالفين الصليبيين المسلمين صعدوا هجومهم ضد
العثمانيين فاحتلوا مدينة بندر ، ومعظم الفلاح واليغدان
وسارانيا ، ونجحوا في الاستيلاء على بلغراد وأعادوا
سيطرتهم على بلاد الصرب .

وفي تلك الأثناء حدثت مفاجآت كان لهما أكبر
الآثر في إزاحة الخطر عن الدولة العثمانية ، فقد توفي
إمبراطور النمسا فجأة ، وتصادف ذلك مع قيام الثورة
الفرنسية ضد الملك لويس السادس عشر ، فاضطر
الملك النمساوي الجديد ليوپولد الثاني إلى تجييسه
نشاطه الحربي في الحلف ، لينشغل في اتخاذ الترتيبات
لحماية بلاده النمسا من خطر امتداد لهيب الثورة

الفرنسية إليها . وكان في مقدمة هذه الترتيبات عقد
معاهدة «ستوا» . في عام ١٧٩٠ م مع الدولة العثمانية .
وبذلك زال خطر التحالف الروسي النمساوي نهائيا عن
الدولة العثمانية .

وفي عام ١٧٩٨ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في قيام نابليون بونابرت بأمر من قيادة
الثورة الفرنسية بغزو مصر . وتمكن من الاستيلاء
عليها . ولكن العثمانيين سارعوا لمواجهة هذا الخطر .
والتحالف معهم في ذلك الوقت أعدائهم من روس ونسايويين
وإنكليز . الذين سارعوا أن تسيطر فرنسا الجمهورية
على مصر . ولم يطل الأمر بفرنسا حتى اضطرت إلى
الانسحاب من مصر . وأرسلت الجنرال سيبستيان
لارالة القور في العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية .
ولجئ سيبستيان في مسعاه . مما أغضب روسيا التي
سارعت إلى الاستيلاء على بلاد الأفلاق والبغدان في عام
١٨٠٦ م . مما أدى إلى نشوب الحرب من جديد بين
الدولة العثمانية وروسيا . وانضمت إنكلترا إلى روسيا
وأرسلت أسطولها البحري بقيادة اللورد «دوق وورث»
لمحاصرة الدردنيل . وطلبته من سفيرها في اسلام بول

الطلب من الدولة العثمانية تسليم قلاع الدردنيل
وجميع سفن الاسطول العثماني الى الانكليز ، والتنازل
عن الافلاق والبغدان الى روسيا ، وطرد الجنرال
الفرنسي سيسبيان من اسلام بول ، واعلان الحرب
على فرنسا ، واذا رفضت الدولة العثمانية هذه المطالب
فان الاسطول الانكليزي سيهاجم اسلام بول ويدخلها
عنوة . وكان من الطبيعي أن ترفض الدولة العثمانية
هذه الشروط المهينة . مما دفع انكلترا الى تنفيذ
وعيدها ، فافتحم الاسطول الانكليزي الدردنيل في عام
١٨٠٧ م واستولوا على ميناء غاليبولي وحطموا السفن
العثمانية المتواجدة فيه ، وكاد السلطان سليم الثالث
يستجيب لطلب انكلترا ، لولا أن السفير الفرنسي
الجنرال سيسبيان حرضه على الصمود في وجه الاطماع
الانجليزية . فاستقر رأي السلطان على المقاومة ، ونشط
العلماء في اذكاء الروح الحماسية في الجنود والاهالي ،
وانشغل الجميع في تحصين اسلام بول ، وعندما أدرك
القائد الانكليزي أن سفنه توشك أن تنحصر بين بوغاز
الدردنيل والبوسفور ، اضطر الى الانسحاب مغلفاً

تاء السحابة ستانة قنيل ، وغرقت عدة سفن
بريطانية بفعل قذائف المدافع العثمانية .

وفي عام ١٨١٥ م واجهت الدولة العثمانية خطر
الدلاع عسبان في الصرب بقيادة ميلوش أوبرينوفتش .
واستمرت الحرب بين العثمانيين والنصارين حتى عام
١٨١٧ م حين رضخت الدولة العثمانية لشروط ميلوش
فصيرته حاكماً على الصرب تحت الحماية العثمانية .

وفي عام ١٨٢٢ م تمكن اليونانيون من احراز نصر
على الجيش العثماني في معركة « التروموبيل » ، وأعقب
ذلك الحاق الهزيمة بالأسطول العثماني في جزيرة ساقز
بعد معركة استشهد فيها حوالي ثلاثة آلاف جندي
عثماني . فسارع السلطان العثماني محمود الثاني الى
اصدار أوامره الى والي مصر محمد علي باشا لمواجهة
الجهوش اليونانية . فأرسل محمد علي باشا ولده
ابراهيم باشا على رأس جيش كبير التقى بالأسطول
العثماني في جزيرة رودس . ثم سار الى جزيرة كريت
فاستول عليها . ثم يمم شطر الشواطئ اليونانية ،
وفي تلك الاثناء كانت النجدة النصرانية تتوالى على
اليونانيين ، وانضم الى المتطوعين لنجدة اليونان عدد

كثير من مشاهير الشخصيات الأوروبية والأمريكية ،
 ومنهم نجل جورج واشنطن محرر أمريكا ، والشاعر
 الإنجليزي الشهير اللورد بيرون ، واللورد الإنجليزي
 كوشمان الذي عينه اليونانيون قائداً عاماً لجيوشهم
 البرية والبحرية ، وزاد من خطورة الوضع قيام روسيا
 بمساعدة اليونانيين ، ثم انضمت النمسا وبروسيا
 وفرنسا إلى روسيا في عقد يد المساعدة لليونان ، مما
 اضطر الدولة العثمانية أخيراً إلى القبول بتوقيع معاهدة
 آل كرماني في عام ١٨٢٦ م ، مقدمة بموجبها تنازلات
 عديدة لروسيا ، ولم تتطرق المعاهدة بأي شكل من
 الأشكال إلى الوضع في اليونان ، مما أعطى الدول
 الصراعية الفرصة لاندلاع المسألة اليونانية في عام ١٨٢٧ م ،
 حيث طلبت فرنسا وانكلترا وروسيا من الدولة
 العثمانية منح اليونان الاستقلال الكامل ، وحين
 رفضت الدولة العثمانية هذا الطلب ، تحركت الأساطيل
 الصليبية لمواجهة الأسطول العثماني والمصري ، وكان
 الأسطول الفرنسي بقيادة الأدميرال « رني » ، والأسطول
 الروسي بقيادة الأدميرال « سيدن » ، والأسطول الإنجليزي

بقيادة النور كوتور تجنون الذي تولى القيادة العامة
 للأساطيل المتحالفة ، ويمكن المتحالفون من تدعيم عدد
 من السفن الحربية العثمانية ، وأعلنت الحرب رسمياً
 في ١١ شوال ١٢٢٣ هـ - ٢٦ نيسان ١٨٢٨ م ، ثم
 عقدت الدول الثلاث مؤتمراً في لندن أعلنت فيه استقلال
 اليونان رغماً عن الدولة العثمانية ، وأعقب ذلك استيلاء
 الجيش الروسي على مدينة « باشي » عاصمة بلاد
 القفقاز ، ثم تقدمت نحو بخارست عاصمة الأفلاق
 واحتلتها ، ثم تقدم القيصر نقولا ليقود بنفسه الجيوش
 الروسية ويحاصر مدينة إسكي استانبول ، ثم انسحب
 عنها ليحاصر مدينة وازة التي استعصت عليه لولا
 حيلة أحد فواد الجيش العثماني المسمى يوسف باشا ،
 فتمكن نقولا من احتلالها ، ثم تقدم نحو مدينة « أدنة »
 واحتلها ، وأصبحت الطريق إلى « اسلام بول » خالية
 من أية مقاومة ذات شأن ، مما اضطر الدولة العثمانية
 إلى الطلب من بروسيا التوسط في عقد معاهدة صلح
 مع روسيا ، وتم عقد المعاهدة في أدنة في عام ١٨٢٩ م ،
 ولقد نصت الدولة العثمانية بموجبها تنازلات جديدة

لروسيا ، كان من أهمها اعتراف السلطان العثماني
بقرارات مؤتمر لندن ١٨٢٧ م التي قضت باستقلال
اليونان عن الدولة العثمانية .

وفي عام ١٨٣٠ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في غزوة فرنسا للجزائر واحتلالها لها ،
واعطب ذلك الشغافها في مواجهة محمد علي باشا والي
مصر الذي تعهد على الدولة وعدم سيطرته حتى اختزعت
بعض المناطق في الاناضول التركي .

بيد أن الخطر الصليبي ما لبث أن كثر عن أنيابه
في عام ١٨٥٢ م عندما احتلت الجيوش الروسية بقيادة
جورجسكوف بلاد الافلاق والبغدان ، فاحتدمت الحرب
بين الدولة العثمانية والروس من جديد . وتمكن عمر
باشا القائد العثماني من هزيمة الجيوش الروسية
ودحرها من الافلاق والبغدان ، وتمكن القائد العثماني
عبد الله باشا من تحقيق انتصارات في جبهة القفقاس ،
فطلب القيصر نقولا التجمدة من امبراطور النمسا
فرانسوا جوزيف الذي اعتذر عن تلبية طلب القيصر ،
ولم تلبث الرياح أن هبت في صالح الروس حين تمكن
اسطولهم من تعطيل الاسطول العثماني في ميناء سينوب

توافع على البحر الأسود ، مما دفع بالكثيرا وفرنسا
 الى توجيه النظر لروسيا بضرورة إيقاف الحرب ، وكان
 رد اصدار الانذار البريطاني الفرنسي خشيتها من
 قيام روسيا بالاستيلاء على عاصمة الدولة اسلام بول ،
 وفي عام ١٨٥٥ م عقدت بريطانيا وفرنسا معاهدة مع
 الدولة العثمانية ، تعهدتا بموجبها بمساندتها ضد
 روسيا ، ولم تلبث الحرب ان احتدمت وحقق الفرنسيون
 في بدايتها نصرا على الروس قرب نهر انا ، ولكن
 الحرب لم تحسم لصالح أي من المتحاربين ، ولم تلبث
 هذه الحرب ان تضاعفت ، وأعقب ذلك عقد مؤتمر
 باريس في عام ١٨٥٦ م حيث انتهى الى عقد معاهدة
 صلح بين المتحاربين .

وفي عام ١٨٦٠ م واجهت الدولة العثمانية خطرا
 جديدا نشأ في غزو فرنسا لبلاد الشام واستيلائها
 عليها ، ولم تخرج منها الا بعد ان حصلت على امتيازات
 سياسية واقتصادية جديدة .

وفي عام ١٨٦٧ م اندلع الخطر من الصرب وكريد
 فاضطرت الدولة الى الانسحاب كليا من الصرب للتفرغ
 لاضداد ثورة كريد ، ولكن الدول الاوربية تدخلت

لمنع العثمانيين من اتخاذ أية إجراءات عسكرية ضد
كريد . واضطرت بها الى حضور مؤتمر عقد في باريس
في عام ١٨٦٩ م . اجبرت فيه الدولة العثمانية على
فتح الاستقلال لأهل كريد .

وفي عام ١٨٧٧ م عادت روسيا فأعلنت الحرب على
الدولة العثمانية بعد أن عقدت معاهدة سرية مع اماره
رومانيا . (الافلاق والبغدان) ، وحدث تطور مفاجئ
تمثل في سكوت الدول الأوروبية هذه المرة وعدم
مشارعتها للموقوف في وجه روسيا . ولكن ذلك لم يفت
في عهد العثمانيين فاضطر شيخ الاسلام فتوى بوجوب
القتال على كل مسلم . وخلق الروس في بداية المعارك
نصرا على حامية بيكوبلي واستولوا عليها ، ولكنهم
انهزموا ثم هزيمة أبناء هجومهم على مدينة «بلغنة» الا
أن الروس انعكسوا في نهاية الامر من هزيمة الجيش
العثماني ثم هزيمة . فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني
الى طلب توسط الدول الأوروبية لعقد الصلح مع روسيا ،
الا أنها رفضت الاستجابة له . لتعطى الفرصة لروسيا ،
لاحراز مزيد من الانتصارات ضد الجيوش العثمانية ،

واستقر الروس فعلا من الاستيلاء على «أدرنة» ، وتقدموا
 نحو «اسلام بول» حتى وصلوا الى مسافة خمسين كيلو
 مترا فقط عنها . مما اضطر السلطان الى ايجاد نايف
 باننا وسرور باننا الى قبصر روسيا لقولا لمفاوضته مباشرة
 في عقد معاهدة صلح . وتم التوصل اليها في ١٨٧٨ م بعد
 ان قدمت الدولة العثمانية تنازلات عديدة الى روسيا .
 ولكن اكثرها خشية ان تضع هذه المعاهدة حدا لامتيازاتها
 التي سبق ان حصلت عليها من الدولة العثمانية .
 فسارعت الى ارسال اسطولها البحري ليحتل مضيق
 البوسفور بحجة حماية العاصمة «اسلام بول» من
 الغزو في قضية الروس الذين كانت جيوشهم قد بلغت
 سواحلها الغربية . وتمثل رد الفعل الروسي في قيام
 الامر تورشاكون بالطلب من السلطان بالسماح باذخال
 جزء من الجيش الروسي الى داخل اسلام بول بحجة
 حماية جميع المسيحيين فيها . ولكن الانجليز اعترضوا
 على هذا الطلب بشدة . وهددوا الروس باعلان الحرب
 منهم . فسحبوا طلبهم . واكتفوا بابقاء جيوشهم في
 مواقعها المحيطة باسلام بول . ثم اجبروا الدولة العثمانية
 على عقد معاهدة صلح «سان اسطيان» تنازلت فيها

الدولة عن جمع ممتلكاتها في أوروبا . وجوبت المعاهدة
بمعارضة شديدة من الكتلرا بشكل خاص ومعظم دول
أوروبا بشكل عام . وحدثت بعض الصدامات الحربية بين
الروس والانجليز . وأخيراً توسط الامبراطور الألماني
فليوم بينهما ، وتم الاتفاق بينهما على ادخال التعديلات
التي تطلبها الكتلرا على معاهدة « سان استيفان » .

وفي عام ١٨٨١ م هزمت الجيوش العثمانية في تونس
أمام الجيوش الفرنسية ، واحتلت فرنسا تونس ، وانقب
ذلك استيلاء إيطاليا على ليبيا في عام ١٩١١ أثناء تسلط
الاتحاديين على الدولة العثمانية حيث كانت عصاة
الاتحاد والترقي قد وليت الى السلطة في عام ١٩٠٨ م .
وخلعت السلطان عبد الحميد الثاني ، وجاءت بالامعة
محمد رشاد بدلاً عنه . ومنذ ذلك الحين لم يعد للدولة
سلطة حقيقية . فلم يبق لها في ظل تسلط الاتحاديين الا
الاسم فقط . وقد اوصل الاتحاديون الدولة الى أضعف
حالاتها . وخاصة عندما اقحموها اقحماً في الحرب
العالمية الاولى ١٩١٨ م التي أسفرت عن هزيمتها شر
هزيمة كانت مقدمة للاجهاز عليها اجهازا نهائيا على
يد مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩٢٤ م .

ولقد تضمنت في الصفحات السابقة ، أن اسرد بشي
من التفصيل ، ما واجهته الدولة العثمانية من مخططات
استهدفت القضاء المبروم عليها ، واستئصال شأفتها ،
وستطيع بمراجعة سريعة للصفحات السابقة أن تدرك
أن الدولة العثمانية اضطرت لحوض غمار الحروب ضد
أعدائها بشكل متواصل ومستمر خلال الاعوام التالية :

١٣٠١ م (وهي السنة التي أعلن فيها عثمان بن
أرطغرل تأسيس الدولة العثمانية) ، ١٣٠٩ - ١٣٥٢ م .
١٣٦٥ م . ١٣٧٠ م . ١٣٨٩ م . ١٣٩٤ م . ١٤٠٢ م .
١٤٢٦ م . ١٤٤٢ م . ١٤٤٣ . ١٤٤٤ م . ١٤٥٢ م .
١٤٥٥ م . ١٤٥٦ م . ١٤٥٧ م . ١٤٦١ م . ١٤٦٤ م .
١٤٧١ م . ١٤٧٣ م . ١٤٧٤ م . ١٤٩٤ م . ١٥٠٨ م .
١٥١٧ م . ١٥٧١ م . ١٥٩٦ م . ١٦٠١ م . ١٦١٤ م .
١٦٥٧ م . ١٦٦٠ م . ١٦٦٤ م . ١٦٧٢ م . ١٦٨٣ م .
١٦٨٧ م . ١٦٩٥ م . ١٦٩٦ م . ١٦٩٧ م . ١٧٠٩ م .
١٧١٣ م . ١٧١٦ م . ١٧٣٦ م . ١٧٦٢ م . ١٧٦٨ م .
١٧٦٩ م . ١٧٧١ م . ١٧٧٣ م . ١٧٧٤ م . ١٧٨٧ م .
١٧٩٨ م . ١٨٠٦ م . ١٨٠٧ م . ١٨١٥ م . ١٨٢٢ م .
١٨٢٧ م . ١٨٢٨ م . ١٨٣٠ م . ١٨٥٣ م . ١٨٦٠ م .
١٨٦٧ م . ١٨٧٧ م . ١٨٨١ م . ١٩١١ م .

وفي عام ١٩١٨ م أقحمت عصاة الاتحاد والتمرد في الدولة في الحرب العالمية الأولى حيث انهزمت شر هزيمة صا أدى الى اعطاء الفرصة لأعداء الاسلام . لتنفيذ مخططاتهم للقضاء نهائيا على الدولة العثمانية . سلطنة وخلافة .

ولعل الذين يسهون الدولة العثمانية بأنها انشغلت طوال عهدها بالحرب والقتال . يعذرونها في ذلك . فما الحسب أنها كانت تستطيع ان تقف مكتوفة اليدين أمام تلك الأحقاد الصليبية التي لم تنقطع مكائدها ضدها طوال سنوات حكمها .

بل اني لأعجب كيف لا تكون الدولة العثمانية دولة قتال وحرب . وصي تواجه كل تلك التحديات والمخاطر المنصلة . المستمرة . التي لم يخمد لها أوار منذ أول سنة لتأسيس الدولة العثمانية . وحتى أواخر أيامها .

أما ما يرمعه المفترون من أن الدولة العثمانية انشغلت بحروبها عن تحقيق أية انجازات حضارية تبعد صدق التزامها بالاسلام . فتلك قرية لمن تلبث ان تنهار أمام هذه الحقائق .

يتركه المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه « بيوك
 تاريخ عمومى » ، أى « التاريخ العمومي الكبير » ،
 أن عثمان بن أرطغرل كان حريصاً على أن يبنى
 في كل مدينة بيزنطية يفتحها الله عليه مسجداً
 يعين له إماماً من العلماء ليفقه المهندسين الجدد إلى
 الإسلام بأمور دينهم الجديد ، وكان أول مسجد
 أمر ببنائه في عام ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م (قبل
 تأسيس الدولة العثمانية رسمياً) في قلعة قره
 حصار ، وعين العالم الفقيه دورسون إماماً له .

وعندما استولى أورخان بن عثمان على مدينتي
 طابيه وإزنيك ، بسى في كل منهما مسجداً وإلى
 جانبه مدرسة ، وفي عام ٧٣٦ هـ - ١٣٢٥ م ،
 شهدت الدولة فقرة كبيرة في ميدان النهضة
 العمرانية ، حيث تم تشييد مسجد بورصة الجامع ،
 والحق به بناء كبيراً ليكون مدرسة للمعلوم
 الشرعية ، وفي عام ٨٢٨ هـ - ١٣٢٦ م ، شيّد
 عثمان مسجداً ومدرسة كبيرة في مدينة أزميت
 وصفها كارل بروكلمان بأنها كانت بمثابة جامعة

حيث يقول في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ
الشعوب الإسلامية » :

« بعد سقوط مدينة أزميت بيد أورخان .
عبر أورخان . بوصفه مسلماً صادقاً ، عن تقديره
للمعرفة . تلك التي كانت رعايتها من أعظم
عناوين المجد عند الحكام المسلمين في جميع
الأحيال . فأنشأ أول جامعة عثمانية . وعهد
بإدارتها إلى العالم داود الفيضري . وهو عالم تركي
تلقى علومه في مصر » .

* وفي عهد بايرد بن مراد (بايزيد الصاعقة) .
بنى العثمانيون مركزاً ضخماً لبناء السفن
وأصلاحها (رسالة) . في مدينة غاليبولي .
وسكنوا في قلعة وجيزة من تجهيز نواة قوية
للاسطول العثماني الإسلامي . قواعها ستون سفينة
مدججة بالسلاح . وما كانوا ليحققوا هذا النجاح
لولا ما كان يتضح به المهندسون والصناع الأتراك
من مهارة فنية .

ويظهر عهد السلطان محمد الفاتح . أنعم به من
 فاتح . على الرغم من الشغالة المستمر بمواجهة
 أعداء الإسلام . من أكثر العهود العثمانية التي
 شهدت إنجازات حضارية بارزة . فقد احتضن
 المخترع المجري أوربان . بعد أن اقنع الفاتح بما
 ظهر عليه من ذكاء . بأن حذيت أوربان عن
 اختراعه لطريقة جديدة لصنع المدافع لم يكن
 حذيت مشهور كما كان يصفه ملوك أوروبا الذين
 عرض عليهم أوربان اختراعه فرفضوه وأهانوه .
 والمصا كان حذيت عالم موهوب . فأمدته بكل
 المعدات والمواد . وأحاطه بالعديد من المهندسين
 الانراك . حتى تمكن من تصنيع مدافع ضخمة أطلق
 عليه اسم . المدفع السلطاني . . تيمناً بالسلطان
 الفاتح . ولم يكنف السلطان الفاتح بذلك الانجاز .
 بل عهد الى عدد من المهندسين الانراك بصنع نوع
 جديد من القنابل لاستعمالها في المدفع السلطاني .
 وسجل التاريخ أن الانراك كانوا أول من استعمل
 قنابل تحرق كل ما حولها اذا اصطدمت بجسم
 صلب . وكانت تلك القنابل تتركب من مزيج من

بيت الزيتون ، والكبريت ، والملح ، ومواد أخرى ،
وكان أول استعمال لهذه القنابل الحارقة في عام
٨٨٢ هـ - ١٤٧٧ م ، أثناء حصار العثمانيين
لعاصمة البانيا ، اشكودراه .

ولم يفت طموح السلطان العالم عند ذلك الحد ،
وظنن يشجع المهندسين المسلمين الاتراك على تطوير
نلك القنابل ، ولم يلبثوا ان اخترعوا نوعاً جديداً من
القنابل المتفجرة التي تنفجر بشدة اذا اصطدمت بجسم
صلب ، وسجل تاريخ الحروب أن السلطان محمد
الفاتح كان أول من استعمل القنابل المتفجرة المصنوعة
على أسس علمية في عام ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م أثناء حصاره
لعقل فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودوس .

ولم يقتصر نبوغ السلطان الفاتح العلمي عند ذلك
الحد ، فقد كان بارعاً في فن الهندسة والعلوم الطبيعية ،
وقد استغل براعته في هذين الحقلين في مواضع كثيرة .
فعندما قرر بناء قلعة روملي حصار على الساحل
الأوروبي ، في مواجهة أسوار القسطنطينية أغضى عدة
أيام مع مهندسيه وهو يستكشف طبيعة الأرض ،

ويدرس طبوغرافيتها ، حتى توصل الى اختيار الموقع
الذي يثبت فوقه ، والذي ثبت بعد انتهاء بنائها أنه
السبب موقع لبنائها .

وحين قرر السلطان الفاتح مفاجأة نصارى
المسططينية ، بادخال السفن العثمانية الى ميساء
الخليج عن طريق نقلها برا مسافة حوالي ثمانية كيلو
مترات ، استغل براعته في العلوم الطبيعية والفن
الهندسي ، فقام بعمليات استكشاف متعددة لدراسة
طبيعة الارض ، حتى اعتقد الى أنسب المواقع التي
تصلح طريقاً تمر من فوق السفن ، ثم عمد الى تلك
الطريق فطلق بهدماً ، ونارة يردم المواقع المنخفضة
منها ، ونارة يقيم الجسور ، ونارة يدور من حول
جبل ، ونارة يزيل الصخور والاشجار ، حتى تمكن
من فتح طريق طولها حوالي ثمانية كيلو مترات ،
فانسابت السفن فوق الأخشاب التي رصت على طول
الطريق السياباً لا تقف أمامه حفر ولا نتوءات .

وبفكر العالم ، أدرك الفاتح أن انسياب السفن
لهم مصنوعة من الخشب ، فوق السواح الخشب .

مستخرج منه احتكاك قد يؤدي الى اندلاع المسدد اللهم
في السفن - وفي حطب الطريق على حد سواء ، فطقن
يدلق أطبانا من الزيت والشحم فوق أخشاب
الطريق ، حتى يمنع الاحتكاك من جهة ، ويسهل عملية
الزلاقي السفن فوق الطريق الخشبية من جهة أخرى .

ولعل في هذه الشهادة التي أنقلها عن المؤرخ
الفراسي البارون كارادوفو الذي أوردتها في كتابه
« مفكروا الاسلام » (الجزء الأول) ، خير دليل على
ما بلغت الدولة العثمانية من تقدم علمي وحضاري ،
اذ يقول

« ان فتح القسطنطينية لم يقيض للفاتح مصادفة ،
ولا لأن الدولة البيزنطية كانت ضعيفة ، بل لأن الفاتح
استخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم » .

واهتم السلطان العالم بالطب ، وبذل جهوداً كبيرة
في دعم العلوم الطبية في زمنه ، فأوغز الى العالم المجاهد
التبصيح في شمس الدين ، الذي كان بارعاً في علوم
الطب ، بأن يدون علمه لينتفع به الناس ، فالف كتاباً
بم عنوان « عادة الحياة » ، كان يعتبر لمصور طويلة من

اسم المراجع الطبية التي تبحث في علم الميكروبات
والجراثيم النافلة للأمراض .

وحي بنى مسجده الذي أطلق عليه اسمه في اسلام
بول . بنى الى جانبه جامعة علمية . والحق بهامستشفى
يضم سبعين سريراً . ليتدرب فيه الطلاب الذين كانوا
يترسون الطب في الجامعة . وأطلق على المستشفى اسم
دار الشفاء . . واستقدم له أشهر أطباء عصره من
مسلي وغير مسلمين . ووضع نظاماً للألقاب العلمية .
فأطلق على المدرسين الكبار في الجامعة لقب « استاذ » .
وعلى مساعدتهم لقب « معيد » .

وتعتبر أنظمة التعليم . وأنظمة التخصص العلمي
التي أنشأها السلطان الفاتح بنفسه على وضعها . مفخرة
من مفاخره . وعلامة حضارية بارزة ينبغي أن تسجل
للعثمانيين المسلمين . ويمكننا القول أن أنظمة التعليم
في الدولة العثمانية قد قطعت قفزات رائدة على يدي
السلطان الفاتح . فقد كانت المدارس التي كان
العثمانيون حريصين على انشائها في كل مدينة تقع تحت
سيطرتهم . ومنذ تأسيس دولتهم على يد عثمان بن
ارطغرل . تدار بأساليب عادية بسيطة . وكان كل

معظم برامج الاسلوب الذي يريده . فلما فتح الله
السلطانية على المسلمين . أمر السلطان الفاتح
بإنشاء مدرسة على مقربة من مسجد أيا صوفيا .
وتعهد بإدارتها الى العالم المؤمن الشيخ مولانا خسرو .
ووضع لهذه المدرسة نظاما خاصا لم يلبث أن طبق في
جميع مدارس الدولة العثمانية .

وبموجب ذلك النظام . قسمت الدراسة الى
مرحلتين . تبدأ الاولى فيها بتدريس العلوم الشرعية .
والتاريخ الاسلامي . والعلوم الرياضية . والعلوم
الطبيعية . وكان على طلاب هذه المرحلة أن يحفظوا أجزاء
معيّنة من القرآن الكريم . وكانت الدراسة في هذه
المرحلة تعرف باسم « دروس الخارج » .

وفي المرحلة الثانية . كان الطلاب يدرسون اللغة
العربية . ويتوسعون في دراسة الفقه الاسلامي .
ولغز بعض المعيّنة خاصة لدراسة العلوم الرياضية
والطبيعية يتوسع . وكان بإمكان كل من ينهي هذه
المرحلة التي كانت تعرف باسم « دروس الداخل » أن
يتولى بعض الوظائف العادية في الدولة .

ولم يفت طموح السلطان العالم عند هذا الحد من
العلم العظمى ، بل أصر على تطوير المؤسسات العلمية
والظننها ، بشكل يتناسب مع احتياجات الدولة التي
أصبحت آنذاك بمثابة الدولة العظمى .

وكانت الجامعة التي أسسها السلطان العالم الى
جانب المسجد الذي سمي باسمه ، علامة بارزة في
خطة السلطان التي تهدف الى رفع المستوى التعليمي ،
والعلمي ، في الدولة العثمانية ، وكانت الدراسة في
الجامعة مخصصة الى مرحلتين على النحو التالي :

المرحلة الاولى ، ويستطيع الالتحاق بها طلاب
مدرسة أياصوفيا وغيرها من المدارس العثمانية ،
بعد أن يكونوا قد اجتازوا بنجاح المرحلة الثانية التي
تعرف باسم « دروس الداخل » ، وكانت الدراسة في
هذه المرحلة تتم في رعاية مدارس متجاورة بنيت حول
مسجد السلطان الفاتح ، وهذه المرحلة تسمى
بالدراسة « الموصلة الى الصحن » ، وهي تكاد تكون
مطابقة لنظام الدراسة الجامعية الاولى في جامعاتنا
الحاضرة التي تمنح الطلاب درجة البكالوريوس أو

الديانس . وكان بإمكان المتخرجين من هذه المرحلة
تسلم وظائف عامة في مؤسسات الدولة ، وخاصة في
المدارس .

المرحلة الثانية : وهي أقرب ما تكون الى نظام
الدراسة الجامعية العليا المعمول به في جامعاتنا العصرية
والتي تمنح الطلاب شهادات التخصص العليا
كالماجستير والدكتوراه والاسنادية . وكانت هذه
المرحلة تعرف بمرحلة دراسة « الصحن » ، ولا يلتحق
بهذه المرحلة الا الذين اجتازوا بنجاح مرحلة الدراسة
« الموصلة الى الصحن » ، وكانت الدراسة في مرحلة
« الصحن » تتم أيضا في ثمانية مدارس متجاورة بنيت
في الاخرى حول مسجد السلطان الفاتح .

ومن أجل التمييز بين مدارس المرحلتين ، كانت
مدارس الصحن تعرف باسم المدارس العالية ، وتعرف
المدارس الموصلة الى الصحن باسم المدارس الصغرى .

وكانت مدارس الصحن ، تعد مؤسسات الدولة
العثمانية باحتياجاتها من المؤهلين في جميع الاختصاصات،
من قضاء وحلفين ، وأطباء ، ومدرسين ، ومهندسين .

وإدريس . واقتصاديين . وقد تميز حريجو مدارس
الصحن بالالتزام الصارم بالإسلام ، عقيدة ، وعبادة ،
وأخلاقاً . واستقامة . فقد كانت العلوم الإسلامية مادة
أساسية يتلقونها في جميع مراحل دراستهم .

ولقد حرص السلطان العالم على اختيار خيرة علماء
عصره ليقوموا بالتدريس في الجامعة والمدارس العثمانية .
وكان يسلّ قصارى جهده لاستقدام العلماء من شتى
الأحاديث . ويسخّ عليهم رعايته . ويقدر عليهم من
كرمه . فتقاطر العلماء على أسلام بول . لا طبعاً في حال
السلطان . وإنما تقديرًا لحبه للعلم وتكريمه للعلماء .

ولم يمض وقت طويل على تأسيس الجامعة . حتى
ضلت شهرتها الآفاق . وأصبحت مهوى أفئدة العلماء .
وأصبح التدريس فيها قمة طموح الكثير من علماء ذلك
العصر فقد كان الانضواء في سلك عداد أساتذتها باعث
لخار . ومبار اعزاز . وشهادة بالنبوغ العلمي .

ويعتبر عالم الرياضيات التركي علاء الدين بن
محمد المعروف باسم علي كوشجو الذي أناط به السلطان
الغنائج مهمة تدريس العلوم الرياضية في مدرسة

إياصوفيا . ثم في الجامعة . واحدة من أفذاذ علماء
الرياضيات في عصره .

وكان هذا العالم من سكان مدينة تبريز التي كانت
خاضعة لسيطرة الأمير حسن الطويل الذي تحالف مع
نصارى أوروبا ضد الدولة العثمانية . وحدث أن اختاره
حسن الطويل ليكون سفيرا إلى السلطان الفاتح ليعرض
عليه عقد معاهدة صلح بعد أن هزم أمام جيوش الدولة
العثمانية . فالتهم السلطان الفاتح مناسبة قدوم ذلك
العالم الشهير . فالح عليه للالتحاق بمدرسة إياصوفيا
أستاذا للعلوم الرياضية فيها . فاستجاب العالم .
والتحق بالمدرسة . ثم النقل إلى الجامعة عند تأسيسها .
وآلف كتابين في العلوم الرياضية . كانا لفترة طويلة من
أعم المراجع في العلوم الرياضية . وأطلق على الكتاب
الأول اسم « الرسالة المحمدية » . وعلى الآخر « الرسالة
الفتحية » . تيمنا باسم السلطان محمد الفاتح . وتقديرا
لرعايته للعلم والعلماء .

* وعندما انتصر السلطان سليم الأول على شاه
العمم اسماعيل . واستولى على عاصمته تبريز . حرص

على استخدام أربعين من أشهر صناعات تجويد إلى اسلام
بول . ليساعدهوا في تقديم النهضة العمرانية فيها .

٢٤ وفي ٢٤ محرم من عام ٩٢٤هـ (١٥١٨م) . حضر
السلطان سليم أول صلاة جامعة أقيمت في المسجد الذي
أمر ببنائه في دمشق على مقربة من قبر محي الدين بن
العري . وبنى إلى جانبه مدرسة كبيرة . ولا يزال
المسجد والمدرسة حتى يومنا هذا من أبرز المعالم
الحضارية في دمشق .

٢٥ وفي عهد السلطان سليمان القانوني أتم بناء
مسجد ومدرسة على مقربة من قبر أبيه السلطان سليم .
ويشجع هذا المسجد والمدرسة حتى يومنا هذا شاهد
صدق على مدى ما بلغت به المهارة الهندسية التركية من
وفي زمن . وواحد من أبرز المعالم الحضارية العثمانية
الاسلامية . كما أمر بتشديد موضع نظام لجبر المياه إلى
اسلام بول . قام بتنفيذ المهندس التركي الشهير سنان
الذي بنى خمسة أبنية فوق قناطر خاصة لتوزيع المياه
على جميع أنحاء اسلام بول .

• وفي عهد السلطان أحمد خان الثالث (١٧٠٣م -
١٧٣٠م) ، أمر بتأسيس دار للطباعة في اسلام بول .
وزودت بمطبعة حديثة .

• وفي عهد السلطان محمود خان الأول أمر ببناء
مكتبة ضخمة بجوار كل من مسجد الفانج . ومسجد
اباصوفيا . ومسجد الوالدة في منطقة اكسراي . بوسط
اسلام بول . ومسجد قلعة سراي . كما أمر ببناء سد
لتجميع مياه الشرب أطلق عليه اسم « بئجة كدي » .

• وفي عهد السلطان مصطفى خان الثالث . أمر
بتأسيس عدة مختبرات طبية لفحص واردات الدولة
من المواشي والبضائع لضمان عدم تسرب أية مواشي
مصابة بأية أوبئة . كما أمر ببناء مكتبة ضخمة فتح
أبوابها لعلوم الناس . ووضع مشروعا لحفر قناة ضخمة
تربط نهر دجلة بالسفور . لتسهيل عملية نقل
المحاصيل الزراعية والبضائع داخل الدولة بتكاليف
قليلة . ولكن وفاة السلطان حالت دون تنفيذ المشروع .
وفي عهد هذا السلطان تم اقامة قصر ضخم لصعب

الدافع في اسلام بول . كما امر بتأسيس مدرسة حربية
لتخريج ضباط المدفعية ، واخرى لضباط البحرية .
بإشراف البارون المجري دي توت .

وفي عهد السلطان عبد العزيز تم وضع مجلة
الاحكام الشرعية في عام (١٢٨٥هـ - ١٨٦٩م) ، ليعدل
بمقتضاها في المحاكم النظامية . وتعتبر المجلة انجازاً
حضارياً في مجال تطبيق الاحكام الشرعية .

وتمت . . .

فإن الذين يهتمون العثمانيين بأنهم لم يتركوا
صمت حضارية وراسعاً يتناسون عدة أمور في غاية
الأهمية :

الامر الأول :

أنهم عندما يهتمون العثمانيين بالخلف الحضاري،
ينبغي عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار رأي الدكتور
احسان حقي في تعليقاته على كتاب « تاريخ الدولة العلية
العثمانية » . الذي يلخصه بقوله :

إن الشيء الذي يجب أن لا ننسوه عنه حينما نتحدث
عن الدولة العثمانية . هو أنه يجب علينا أن نقيّمها .

ولفهم أعمالها ، بالنسبة الى زمانها والى ما كانت عليه
الدول الأخرى من سوء حال بالنسبة الى الأزمان السابقة.
لا أن تقيّمها بالنسبة الى زماننا .

وأحسب أن الذين يوجهون الاتهام للعثمانيين
سيخجلون من أنفسهم . لو أنهم تقيّدوا برأي الدكتور
احسان حقى . ذلك أنهم سيبدركون أن ما حققه
العثمانيون من إنجازات حضارية ، ذكرت بعضها قبل
قليل . رغم الشغاليهم المستمر في التصدي لمؤامرات
ومكائد أعداء الاسلام . ينبغي أن يسجل لهم بعداد
الفخر والاعتزاز . ويكفى الأتراك العثمانيين فخراً أنه
كانت لديهم في اسلام بول وحدها ١٥٠ حماماً عاماً ،
في الوقت الذي لم يكن قصر فرساي في باريس يحتوي
على حمام .

الامر الثاني :

أن الذين يلقعون الاتراك العثمانيين بأنهم لم
يخلقوا وراحم بعضات حضارية . يتناسون أن آثارهم
الهندسية المتمثلة في آلاف المساجد التي ابتناها في
تركيا ومصر وسوريا وبلغاريا ويوغسلافيا واليابس

وبعدها من البلاد التي ارتفعت فوقها الرايات العثمانية
الإسلامية ، ما زالت حتى يومنا هذا تستقطب اهتمام
واعجاب العالم أجمع . وتنتزع من أشهر المهندسين
العالمين شهادات التقدير لما وصلت اليه فنون الهندسة
العثمانية من رقي مهني وفني وذوقي .

وفي هذا الصدد يقول أمير البيان في تعليقاته على
كتاب حاصر العالم الاسلامي :

لقد نادى بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من
الجوامع والقصور والابرار والحصون والمدارس والشكن
والقاعد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظائرها ،
والعم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في مساكنها
والتي لحد منايرها العديدة ساطعة في القضاء من كل
حاجب فتكسب اسطنبول منظراً لا يجدد ناظر في غيرها
من المدن لا شرقاً ولا غرباً . وفي الاستانة أسواق عظيمة
شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها . منها السوق
الكبيرة التي بناها محمد الفاتح . وسوق مصر التي
بناها سليمان القانوني (وهما سوقان مستوفان وفيهما
تفرعات كثيرة في داخلهما يحتاج المرء الى ساعات طويلة

حتى يتجول فيها كلها ، وربما تعب قبل أن ينهي جولته
« المؤلف » .

الأمر الثالث :

ان على الذين ينهون الأتراك العثمانيين بحفاف
الفكر ، ونسوب الذوق الفني ، أن يتذكروا ، وخاصة
العرب ، أن الأتراك العثمانيين برعوا في تطوير فنون
الخط العربي ، وفنون الزخرفة سواء منها الزيتية ،
أو المنقوشة على البلاط القاشاني ، ويستطيع المرء العثور
على كنوز غريبة من أصناف الخطوط العربية والزخرفة
في أي مسجد من المساجد التي كان للأتراك العثمانيين
شرف بنائها ، ولعل نفس فنون الخط العربي والزخرفة
الإسلامية على تلك التي أمر السلطان مراد الرابع
بتزيين مسجد أياصوفيا بها . فقام الخطاط التركي
الشهير بيشتكجي زادة مصطفى شليبي بكتابة آيات كريمة
من القرآن العظيم بحروف مسوحة بالذهب ، وبلغ من
إبداع هذا الخطاط التركي انه استطاع كتابة الأحرف
بحجم كبير لم يستطعه أحد من قبله ولا من بعده ،
ان يبلغ طول حرف الألف وحده عشرة أذرع .

ولقد أحسنت مجلة «الأمة» الزاهرة التي تصدر
 عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة
 قطر . حين خصصت حيزاً من عددها الثامن والعشرين
 الصادر في ربيع الآخر ١٤٠٣ هـ - كانون ثاني ١٩٨٣ م .
 للحديث عن الخطاط التركي المسلم حامد أيتاش الأمدى
 (١٨٩١م - ١٩٨٣م) ، الذي قدم . وهو التركي ، ما لم
 يستطع تقديمه أحد من العرب ، من خدمات جليلة
 لتطوير فنون الخط العربي والزخرفة الإسلامية .

ويبقى أن نشير إلى أن العديد من سلاطين العثمانيين
 برعوا في فنون الخط العربي ، ومنهم السلطان عبد
 الحميد الأول ، والسلطان عبد العزيز والسلطان مصطفى
 الثاني .

الأمر الرابع :

يتناسى الذين ينهبون الآثارك بأنخلع الحضاري
 أنهم هم الذين حققوا للبلاد العربية أول تقدم حقيقي
 في مجال التواصلات حين مدوا الخط الحديدي الحجازي
 الذي ربط ما بين اسلام بول بالمدينة المنورة . مروراً
 بسوريا والأردن ، ثم مدوا قروعا له تخترق فلسطين

والعراق ولبنان ، وقد كان ذلك انجازاً حضارياً
واقتصادياً رائعاً ، نستطيع ادراك اهميته حين نعلم ان
الدول العربية المعنية فشلت حتى يومنا هذا في إعادة
الحياة اليه رغم مئات الاجتماعات التي يعقدها المسؤولون
فيها لهذا الغرض .

الأمر الخامس :

وينبغي المفقرون ما سجله التاريخ للعثمانيين من
اعتماد بالعلم والعلما ، وما شيدوه من مدارس ومكتبات
ومستشفيات ، ومصحات للأمراض العقلية ، ويذكر
أمير البيان شكيب أرسلان أن عدد المدارس التي تدرس
فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية بلغ ١٧٦ مدرسة
في اسلام بول وحدها ، كان أشهرها مدرسة أياصوفيا
ومدرسة السلطان أحمد ، ومدرسة السليمانية ، وجامعة
الحمدية التي بناها السلطان الفاتح .

ويذكر أمير البيان أن عدد المكتبات في اسلام بول
بلغ ٤٥ مكتبة تضم ٦٤١٦٢ مجلداً أكثرها مخطوط
بالقلم .

ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أن أي باحث ،
 قريباً كان ، أو مسلماً ، أو أجنبياً ، لا يجد مغزاً من
 الاستعانة بعشرات الآلاف من المخطوطات النفيسة
 المتوفرة التي تزين بها مكتبات اسلام بول حتى يومنا
 هذا ، ويكفيهم فخراً أنهم حافظوا طوال قرون ، ورغم
 كل الظروف ، على أندر نسخ من المصاحف الشريفة ،
 ومنها مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ،
 وقد كان لي شرف التبرك برؤيته في قسم القرآن الكريم
 في المكتبة السلطانية في اسلام بول أثناء دراستي في
 جامعتها (١٩٥٨م - ١٩٦٥م) .

الامر السادس :

أن الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بأنهم لم يتركوا
 بصائرهم الحضارية الاسلامية في البلاد التي رفعوا فوقها
 رايتهم ، يتناسون ما قامت وتقوم به الأحقاد الصليبية ،
 ثم الشيوعية ، من حملات قمع وحشية لاستئصال كل
 مظاهر الحياة الاسلامية ، في يوغسلافيا ، والبانبا ،
 واليونان ، وبلغاريا ، وغيرها من البلدان الأوروبية ،
 تلك الحملات التي تضالمت أمام وحشيتها وحشية

محاكم التفتيش في الأندلس . فلقد بلغ من وحشيتها
أن الجنود البلغار لم يكتفوا بقتل المسلمين البلغار في
عام ١٩١٢م . وإنما عمدوا إلى تصفية دعائهم وشربها .
كما يروى أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على
كتاب . حاضِر العالم الإسلامي . . وهم يتجاملون
الحقيقة التي تؤكد أن البذرة الإسلامية الطيبة التي
بذرتها الدولة العثمانية في تلك البلاد . قد صمدت أمام
تلك المحن . واستعصت على حملات الاذابة والاستئصال .
وأنها ما تزال حتى يومنا . متمثلة في العديد من ملايين
المسلمين في يوغسلافيا . والبانيا . وبلغاريا . وغيرها .
شاهد صدق على أن الأتراك العثمانيين كانوا رسل
هداية . ورجال دعوة . مثلما كانوا صناديد حرب .
وأبطال قتال .

ما هي حقيقة القرية التي تزعم أن
السلطان محمد الفاتح أباح
القسطنطينية لجنوده ثلاثة أيام
يفعلون خلالها ما يشاؤون ؟؟

هذه قرية أخرى . الصقبا الحاقدون المفرضون
بالسلطان العثماني محمد الفاتح . أنهم به من فاتح .
رضوا من خلالها أنه قد أعطى لجنوده مهلة ثلاثة أيام
يسبيحون خلالها العاصمة البيزنطية . القسطنطينية .
يفتنون . ويذهبون . ويسلبون . ويعتدون على الأعراض .
كيفما يشاؤون .

الإساءة ما يفتري المفترون . وما يصفون .

وقد كوى كبير هذه القرية عدد من المؤرخين
الأحباب . وفذكر على سبيل المثال المؤرخ الانجليزي
انوارد شيرد كريسبي . الذي زعم في كتابه « تاريخ
العثمانيين الأتراك » أن السلطان الفاتح . أنهم به من
فاتح . قد خطب في جنده قبيل الهجوم الأخير على
القسطنطينية قائلاً على حد زعم كريسبي :

الناس أبيع لكم كل شيء في المدينة ، ولا تريدكم
أن تتركوا فيها شيئاً فيه حياة ، ما عدا الأبنية والأرض
فقط . . . !

وفي كتاب « أحداث شهيرة في التاريخ » الذي
نشرته في عام ١٩٦٩م ، مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر ، وهي مؤسسة أمريكية برعت في دس السم
في الدم غير منشوراتها ، لفل مؤلفا الكتاب صموئيل
سنسون ، ووليام دي ويت ، كلاماً زعموا أنه نص
الخطبة التي ألقاها السلطان الفاتح في جنده قبل
الهبوط الأخير على القسطنطينية ، وجاء في تلك الخطبة
المزعومة ما يلي :

الناس لم أجمعكم في هذا المكان لأبعث روح الحفاة
فيكم ، لأن هذه الروح لا تنقصكم ، ولكنني جمعتكم
لأعرض أمامكم المكافأة والتواب الذي سينالكم بعد
الهبوط المنتظر ، فأمامكم مدينة الكنوز والثروة والجمال
التي نزدحم بها الكنائس والقصور ، إنها مدينة المجد
والعز ، التي تشكل قلب العالم ، وهي المدينة التي
سنسبحونها غداً ، بعد أن وقفت أعواماً طويلة أمام

الأمرالك . وعملت على إضعاف الإسلام . واتحدت مع
عدائنه . . . ١

ويستط الحقد بالخزخ الانجليزي ادوارد شيبورد
كريسي . فيزعم . ويثس ما يزعم . أن السلطان محمد
الفتاح . حين دخل القسطنطينية . أمر بإقامة احتفال
ضخم في قصر الامبراطور البيزنطي المقتول . وأنه أكثر
من ثوب البيند . ثم أمر بإحضار الابن الاصغر للدوق
ناطوراس (لوقاس الناطوري) . الذي كان وزيرا
للإمبراطور المقتول . وأن السلطان الفاتح أراد أن
يمارس الفاحشة بالفن الصغر . فاعترض أبوه . فاشتد
غضب السلطان وأمر بقتل الوزير . وابنه . وجميع
أفراد عائلته . . .

ومؤخرا انسافت الموسوعة الامريكية المطبوعة في
عام ١٩٨٠م في حياة الحقد الصليبي ضد الإسلام
فرأعت أن السلطان الفاتح . أنعم به من فاتح . قام
بإسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية . وساقهم إلى
أسواق الرقيق في مدينة أدرنه . حيث تم بيعهم هناك .
الأكبر كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا
كذباً .

أرايتم إلى الحقن الصليبي إلى أين يشتط به
الهوى . ويسرح به الخيال ؟ .

أرايتم إلى الحقن الصليبي حين تعمى الأبصار ،
ويرين الصدا على القلوب . فتتجرا على الافتراء بمنزلة
هذه الأكاذيب التي لا يصدقها عقل ، ولا يقبلها منطق ؟ .
أرايتم إلى الأمانة العلمية كيف يبطل مفعولها حين
يسلق الأمر بالاسلام والمسلمين ؟ .

هل يصدق عاقل أن السلطان المؤمن ، الذي
استقبل معركته الأخيرة بالصوم إلى الله عز وجل ،
نظراً . وتقرباً . والتماساً لتأييد الله ونصره . يمكن
أن يقابل لعمه وبه بارتكاب معصية شرب الخمر وارتكاب
الفاحشة ؟ .

ألا . ثبت بهذا كويس هذا . والف تب .

وثبت يد كل من جرى قلمه أو لسانه بهذه القرينة
الذميمة .

وينبغي أن أنتبه . بادئ ذي بدء . إلى أن الذين
افتروا هذا البهتان العظيم ضد السلطان الفاتح .
استندوا إلى عرف كان سائداً في حروب تلك العصور

يقضى بأنه أيضا مدينة يطلب منها الاستسلام . فترفض
الاستسلام . فإن من حق فاتحها أن يستبيحها ثلاثة
أيام بلياليها كيفما يشاء . تأديبا لها لرفضها الاستسلام .

لكن الحقيقة الناصعة كما سنبينها بعد قليل .
تؤكد أن السلطان الفاتح لم يعمد إلى اتباع هذا العرف
حين فتح القسطنطينية . على الرغم من أنه كان قد
طلب من الامبراطور البيزنطي قسطنطين الاستسلام في
مرتين متتاليتين . كانت الأولى منهما في مساء السادس
والعشرين من ربيع الأول من عام ٨٥٧هـ . وفق السادس
من نيسان من عام ١٤٥٣م . حين أرسل السلطان وزيره
محمود باشا إلى الامبراطور يطلب منه الاستسلام .
ويعطيه الأمان لجميع النصارى على أموالهم وأرواحهم
وأعراضهم وعقيدتهم . فرفض الامبراطور الاستسلام .
وكانت المرة الثانية في اليوم الرابع عشر من جمادى
الأولى من عام ٨٥٧هـ . وفق الثالث والعشرين من أيار
من عام ١٤٥٣م . ولكن الامبراطور قسطنطين أصر أمام
ضغط مجلس حربه على رفض الاستسلام .

ولقد كان بإمكان السلطان الفاتح بموجب ذلك
العرف . وبعد أن أنذر الامبراطور البيزنطي بالاستسلام

مرتين . لا مرة واحدة . أن يبيع المدينة لجنوده . ولكنه
لم يفعل ذلك . لأن التزامه بالاسلام . وباخلاق
الاسلام . يأتي عنده فوق أية أعراف أو اعتبارات أو
مبررات أخرى . ولأنه كان يطمح الى فتح قلوب أهل
المدينة . بعد ان فتح أبواب المدينة .

تلك هي القرية . فما هي الحقيقة ؟ .

ان الحقيقة التي تتهاوى أمامها افتراءات الحاقدين ،
وبهتانهم . تؤكد أن السلطان محمد الفاتح . أنعم به
من فاتح . لم يبع القسطنطينية لجنوده لحظة واحدة .
لا ثلاثة أيام كما يزعم المفترون .

اقول هذا . وبين يدي أكثر من دليل :

ففي يوم الاثنين . التاسع عشر من جمادى الأولى
من عام ٨٥٧هـ . وفق الثامن والعشرين من أيار من
عام ١٤٥٢م . ندب السلطان الفاتح جنده لصيام ذلك
اليوم تقريباً الى الله . وتركية لتفوسهم . استعداداً
للهجوم النهائي الذي تقرر أن يشن في اليوم التالي .

وما ان اذنت شمس يوم الاثنين بالغيب ، وأدى
المجاهدون صلاة المغرب ، أقبلوا يتناولون افطارهم ،
ثم دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه ، الى
الاجتماع الأخير قبل بدء الهجوم النهائي ، وخطب فيهم
خطبة جاء فيها كما يروي الدكتور سالم الرشيدى في
كتابه «محمد الفاتح» ما يلى :

إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا الفسطاطينية ،
فسيحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حظنا ما
نصنعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من التقدير
والنشرىف ، فابلقوا أبناءنا المساك فرداً ، أن
الظفر العظيم الذي ستحوزه سيزيد الاسلام قدراً
وشرفاً ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا
نصب عينيه ، فلا يصدر عن أي واحد منهم ما يناه
عنه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ، ولا يسوها
بأذى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والمعجزة الذين
لا يتناولون .

وحين تنزل نصر الله عز وجل ، كان أول عمل بدأ به
السلطان محمد الفاتح أن خَرَّ ساجداً على الأرض ،
شكراً لله على ما آفاه على المسلمين من نصر مؤزر مبين .

وينقل المؤرخ التركي اسماعيل حامي دنشمنه نقلًا
عن المؤرخ التركي دورسون الذي عاصر الفاتح في الجزء
الأول من كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، وصفاً
مؤكراً لأحداث الساعات الأولى التي أعقبت دخول
المسلمين إلى القسطنطينية قائلاً : ما كاد العثمانيون
يدخلون المدينة ، حتى وثب العديد منهم إلى أعالي
الأسوار يزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويرفعون
مكانها الرايات الإسلامية العثمانية ، وفي تلك الأثناء ،
كان العشرات من المجاهدين يرفعون أصواتهم بالأذان
من فوق أسوار المدينة .

وينتظر دنشمنه قائلاً :

دخل السلطان الفاتح إلى المدينة من باب المدفع ،
وتابع مسيره باتجاه كنيسة أياصوفيا ، وكان التأثير
الشديد يعلو وجهه بسبب آثار الدماء والخراب التي

لحقت بأبنية المدينة ، وعندما وصل الى الكنيسة نرجل
عن حصانه ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على نعمة
الحر ، ثم أمر المؤذن لصلاة الظهر ، فأدأها المسلمون
جماعة ، ومنذ ذلك الوقت تحولت الكنيسة الى مسجد ،
وامر السلطان بالاحتفاظ باسمها القديم ، فأصبح
المسجد يعرف باسم مسجد أياصوفيا ، وشرح المسلمون
في تغطية الصور التي على جدران الكنيسة ، ولكن
دون ازلتها أو ازلتها .

ويصف المؤرخ التركي أحمد رفيق أحداث اليوم
الأول لفتح القسطنطينية ، في الجزء السادس من كتابه
التاريخ العمومي الكبير المطبوع باللغة التركية القديمة
دلت الحرف العربية ، قائلا :

دخل السلطان محمد الفاتح الى القسطنطينية من
الباب المسمى باب المدفع ، توب كايي ، واتجه مباشرة
الى كنيسة أياصوفيا ، فوجد فيها أعداداً كبيرة من
النصارى الذين التجأوا اليها بعد سقوط القسطنطينية ،
فطمانهم ، وأمنهم على ارواحهم ، ثم أمر بإحضار لوقاس
النوطاري ، وزير الامبراطور المفتوق قسطنطين ، فأكرمه
أكراماً يفوق الوصف وأعداء صولجاناً مرصعاً بالجواهر

وطلب منه أن يشرف بنفسه على دفن الامبراطور حسب
التقاليد الامبراطورية والكنيسة ، وأعلمه السلطان أن
بإمكان جميع الذين فروا من المدينة أن يعودوا اليها
خلال شهرين ، فمن تأخر عن العودة بعد ذلك تصبح
ممتلكاته من حق الدولة العثمانية .

ويردف احمد رفيق قائلا :

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد
الاسلام . ولذلك كان العدل بين الناس من اهم الأمور
التي حرصوا عليها . وكانت معاملتهم للنصارى خالية
من أي شكل من أشكال التعصب أو الظلم ، ولم يخطر
ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم .

ويصف المؤرخ التركي الصدر الأعظم كامل باشا
في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العثمانية » السمات
الأولى التي أعقبت دخول المسلمين الى القسطنطينية
قائلا :

وصل السلطان الفاتح الى كنيسة إياصوفيا وقت
الظهر ، فأمر المؤذن فأذن لصلاة الظهر . ثم صلى
المسلمون صلاة الظهر جماعة في داخل الكنيسة بعد أن

أعلنت من كان فيها من النصارى الذين التجأوا إليها ،
ولما انقضت الصلاة استدعى لوقاس النوطاري وزير
الامبراطور المقنول ، فأنعم عليه ، وأمره بأن يتخذ
الترتيبات لدخول الامبراطور حسب طقوس الديانة
الصرانية . وتغالبد العائلة الامبراطورية . ويستطرد
كامل باشا قائلا :

حرص السلطان الفاتح ، على تهدئة روح أهالي
القسطنطينية . فدعا البطريرك يوركي بناديوس الى
مائدة ، وأكرمه ، وأعداء عصا مرصعة بالجواهر ،
وطلب منه أن يشر أهالي المدينة بأن المسلمين يعطونهم
الأمان على حياتهم ، ومعنقاتهم ، وأموالهم ، ما داموا
يؤدون الجزية للمسلمين ، وأن بإمكان كل واحد منهم
أن يعود لمزاولة عمله ، واكتساب رزقه ، وأن بإمكان من
فرروا من المدينة أن يعودوا إليها والى أعلاكهم فيها من
غير خوف .

ويروي الدكتور علي حسون في كتابه « تاريخ
الدولة العثمانية » أن السلطان محمد الفاتح - أنعم به
من فاتح - اندفع على رأس المجنحين لاقتحام
القسطنطينية . فلما تنزل نصر الله على المسلمين ، حمد

الله وأتسى عليه . وترحم على الشهداء . وغرأ الحدين
الشريف :

« لفتحن القسطنطينية ، فلنعم الجيش ذلك
الجيش ، ولنعم القائد ذلك القائد » ، ثم أوصى جنده
فنيأهم عن السلب والنهب ، ثم ترجل عن فرسه ،
واستقبل القبلة وخر ساجداً لله شكراً ، ثم توجه الى
كنيسة أياصوفيا ، فصلى الظهر بها جماعة ، وأعلن
عدد من الروم اسلامهم بين يديه ، وهذا روع من التجا
من النصارى الى الكنيسة ، وأمنهم على حياتهم ودينهم ،
وأموالهم ، وأمر يدفن الامبراطور قسطنطين بما يليق
بسكانته لدى قومه ، وأوعز الى البطريرق أن يتولى رعاية
أمور النصارى دينياً ومدنياً .

وبعد خمسة أيام زار منطقة (غلطة ، وتلفظ قلطه)،
وأمر بتأمين أهلها النصارى على أموالهم ، وحياتهم
ومعتقداتهم مقابل أداء الجزية للمسلمين .

وبروي المؤرخ التركي المعاصر باقي كورتولوش في
كتابه ، السلاطين العشانيون ، المطبوع في استانبول
عام ١٩٧٨م . أن السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من

فاتح . أظهر الاحترام لشاعر النصراني من أهل
القسطنطينية ، ولم يتدخل في أمورهم الدينية .

ويروي أمير البيان شكيب ارسلان ، في تعليقاته
على كتاب (حاضر العالم الاسلامي) أن القسطنطينية
شهدت خلال دخول الأتراك موجة من الفوضى والذعر ،
وهذا أمر لا يستغرب أن يقع في كل حرب ، فلما دخلها
السلطان محمد الفاتح نودي بالأمان ، فهذا روع الناس ،
وساد الهدوء .

ويروي الاسناد محمد فريد بك المحامي في كتابه
« تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، أن السلطان الفاتح ،
زار كنيسة آياصوفيا ، وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة
اعلانا بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين ، ثم أعلن في
كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة
النصارى ، ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريركاً جديداً
فاختاروا جيناديوس سكولاديوس وكان من أئمة
معارضى اندماج الكنيسة الارثوذكسية بالكنيسة
البابوية . (ويقال أن اسمه الاصلي يوركي كورثسيس) ،
فاتميد السلطان هذا الانتخاب ، وجعله رئيساً لطائفة
الروم ، واحتفل بتثيينته بنفس الابهة والنظام الذي كان

يعمل للبطارقة في أيام ملوك المسيحيين (النصارى) ،
وأعطاه حرساً من العساكر العشائيين ، ومنحه حق
الحكم في القضايا المدنية والدينية والجنائية بكافة
أنواعها المتعلقة بالأروام ، وعين معه في ذلك مجلساً
مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق
في الولايات للبطاركة والقسس .

ويروي الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في
كتابه « السلطان محمد الفاتح » ، أن السلطان توجه
إلى المدينة في اليوم الرابع بعد فتحها (الأصح والثابت
أن دخول السلطان إلى المدينة كان في اليوم الأول
للفتح) ، وكانت هناك جنوده تدوي هاتفة ، ما شاء
الله ، ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة ، توقف عن السير ،
وخطب فيمن حوله وقرأ عليهم بلفة عربية فصحي
البشارة النبوية الكريمة :

« لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم
الجيش ذلك الجيش » .

ثم هنا جنوده بالنصر ، وأوصاهم بالثبات وعدم
الفرور ، والتمسك بالفضيلة وحسن المعاملة ، والرافة
بسكان المدينة .

وسار بموكبه المظفر في الشارع المؤدي الى كنيسة
سانت صوفيا (أياصوفيا) ، وترجل أمام الباب ، وانحنى
ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً له
(الاصح أنه سجد شكراً لله) .

ولما اقترب من الباب وصلت الى مسامعه أصوات
خافتة حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي
كانت تقام فيها . ولما علم راعي الكنيسة بمقدم السلطان ،
فتح الباب على مصراعيه ، فانتاب الناس خوف عظيم ،
وتوجسوا خيفة حينما شاهدوا سلطان العثمانيين بعمامته
الاسلامية الكبيرة . وانقطعوا عن الصلاة وساد بينهم
صمت رهيب . كانوا على رؤوسهم الطير . وتوجه
السلطان الى المذبح ، فقابله رجال الكنيسة ، وكانوا
مخبتين خلفه وتحت المناضد وخلف الستائر ، فأحسن
السلطان استقبالهم ، وأكد حمايته ورعايته لهم ، وأمرهم
بأن يكملوا صلواتهم من غير خوف أو فزع ، ثم طلب
أن ينصرف الناس الى بيوتهم آمنين على أموالهم ،
وانفسهم . وأعرضهم ، فنزل هذا الكلام برداً وسلاماً
على الناس . وظهّرت على وجوههم علامات الراحة
والاطمئنان . ثم طلب السلطان من أحد المسلمين أن

يؤذن للصلاة من فوق المذبح ، فأصبحت كنيسة
أياصوفيا منذ ذلك الوقت مسجداً من أعظم مساجد
الإسلام .

ويردف الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي قائلا :

وسلك السلطان الفاتح مع أهل القسطنطينية
سياسة التسامح والرفقة ، وأمر جنوده بحسن معاملة
من في أيديهم من الأسرى والرقيق بهم ، واقتدى عدداً
كثيراً من الأسرى من ماله الخاص ، وخاصة أمراء
اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الاساقفة وهذا
من روعهم ، وطمانهم الى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم
وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد
فانتخبوا أجناديوس بطريركاً ، وتوجه هذا بعد انتخابه
في موكب حافل من الاساقفة الى مقر السلطان ، فاستقبله
السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة ، وأكرمه ايما
تكريم ، وتناول معه الطعام ، وتحدث معه في موضوعات
شتى ، دينية وسياسية واجتماعية ، وخرج البطريرك
من لقاء السلطان ، وقد تغيرت فكرته تماماً عن سلطان
العثمانيين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامة ، وشعر
انه امام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية

راخحة وإنسانية رفيعة . ورجولة مكتملة . ولم يكن
الروم أنفسهم أقل تأثراً ودعشة من بطريركهم . فقد
كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد للاحقين . فلم
تض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم
المدنية العادية في أطمئنان وسلام .

ولعل قائلًا يقول أن هذه الأدلة التي سقتها من
مراجع تركية أو عربية إسلامية ليست مقنعة كونها
تصدر عن مسلمين . ولهذا، المتشككين أسوق هذه الأدلة
من شهادات المؤرخين النصارى التي تفند ما زعمه
المعرضون من أن العثمانيين المسلمين . ارتكبوا المجازر .
واستباحوا الحرمات والأعراض عند دخولهم
القسطنطينية .

• يقول باول وينك (Paul Wetliet) . في كتابه
« تأسيس الإمبراطورية العثمانية » .

كان النصارى الأرثوذكس يكرهون بشدة أبناء
دينهم من النصارى اللاتين (الكاثوليك) . وخاصة
النصارى من أهل جنوة . بسبب ما كانوا يلاقونه منهم
من استغلال واضطهاد . ولذلك لم يكن غريباً أن ينتشر
بين النصارى والأرثوذكس شعار يقول :

إذا كان لا بد من الوقوع تحت سيطرة طرف آخر .
فإننا نفضل أن نقع تحت سيطرة الأتراك المسلمين .
من أن يسيطر علينا اللاتين (الكاثوليك) .

وينقل أمير البيان عن (كارادوكو) المؤرخ
الفرنسي في كتابه (مفكرو الاسلام) أن محمداً الفاتح
يوم دخل كنيسة أياصوليا . أراد أن يراعي شعور
النصارى . فلم يشأ أن يحو العديد من صور الفسيفساء
وغيرها التي امتلات بها جدران الكنيسة . وكان بإمكانه
أن يفعل . وإنما أمر بأن تغطي بالجبس . لأن الاسلام
يحرم الصور .

ويروي أمير البيان . أنه عندما دخل المسلمون
القسطنطينية . التجأت جموع غفيرة من الرجال والنساء
والأطفال الى كنيسة القيامة . وكانوا يعتقدون أنه متى
وصل الأتراك المسلمون الى قسطنطين الكبير . سيظهر
لهم ملك في السماء . فيهزمهم ويطردهم من المدينة .
فلما اجتاز المسلمون العمود ضج النصارى في الكنيسة
بالمويل ولم يهدأ روعهم الا بعد أن وصل السلطان
محمد الفاتح . وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وديانتهم .

ويشير أمير البيان الى حرية اطلاقها الحاقدون ، فرجعوا
ان المسلمين الانراك ذبحوا كل من كان في اياصوفيا من
النصارى فيقول :

« وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من انهم ذبحوهم
والترك لم يذبحوا هنالك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا
سبيل أولئك الأسرى جميعاً » .

* وتكتسب شهادة الكتاتبة الامريكية الدكتورة
ماري ملز باتريك مؤلفة كتاب « سلاطين بني عثمان
الخمسة » ، أهمية خاصة ، ذلك ان هذه المؤلفة الامريكية
تكاد تكون من أشد المؤلفين النصارى حقداً على العثمانيين
بشكل خاص ، وعلى الاسلام ذاته بشكل عام .

تقول الدكتورة ماري ملز باتريك بالحرف الواحد :

« والواقع ان السلطان محمد الفاتح قد أظهر تسامحاً
عظيماً مع المسيحيين » .

وكان لكل ملة في ذلك الحين (زمن السلطان
الفاتح) رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان
ذاتها مباشرة ، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة ،
واماكن للعبادة وأديرة ، كما انه كان لا يتدخل أحد
في مالياتها . وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة
التي يريدونها .

ويقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية : الأتراك العثمانيون وحضارتهم » :

لم يستطع العثمانيون أن يشقوا طريقهم إلى المدينة إلا بهجوم مباشر شنه في ٢٩ نوار (أيار) ١٤٥٣ م ، وصرخ الإمبراطور في القتال الذي دار في الشوارع حتى إذا انتصف النهار دخل محمد (السلطان الفاتح) بنفسه إلى المدينة وأصدر أمره إلى جيوشه بوقف المجزرة .

تعليق :

(هذه مغالطة كبيرة من بروكلمان ، فما كان يحدث في ذلك الوقت لم يكن إلا قتالا داميا ، كان ضحاياه من المسلمين والنصارى من غير تفريق ، وليس مجزرة كما يزعم بروكلمان في محاولة منه لنشويه سمعة العثمانيين المسلمين) .

ويردف بروكلمان قائلا :

وأيا ما كان ، فقد عمل محمد (السلطان الفاتح) على تنظيم أحوال اليونان الروم المفلولين (سكان القسطنطينية) للتو والساعة ، واعترف وفقاً للفكرة

الإسلامية المعززة بالتقاليد الدينية ، بجميع السلطات الدينية اليونانية . بل أنه زادها قوة إلى قوة بأن أوكل إليها أمر القضاء المدني وتطبيق أحكامه على أتباعها ، أي نصارى القسطنطينية .

ويستطرد بروكلمان قائلا :

وكان من أهم أهداف محمد (السلطان الفاتح) ، قبل كل شيء ، أن يعمل على زيادة عدد السكان في العاصمة ، بعد أن تقلص وتناقص (بسبب الهجرة قبل الفتح والفرار قبل الفتح) ولم يكن يكف يعين في منصب البطريركية مثلاً حازماً للكنيسة الوطنية ، حتى رجع إلى أرض الوطن (القسطنطينية) ، بناء على دعوته (دعوة البطريرك الجديد) عدد عفر من الروم الذين فرحوا عن ديارهم قبل الكارثة .

واني لا أكاد أجزم أن هذا التساؤل يكاد يقفز من فم كل قارئ ، لكلام بروكلمان :

تري ... هل كان هؤلاء النصارى يعودون إلى مدينتهم بهذه السرعة ، لو كان صحيحاً ما يزعمه المفثرون من أن العثمانيين المسلمين ارتكبوا المجازر طيلة ثلاثة أيام ضد من بقي في المدينة من النصارى ؟

ويقول المؤرخ المعاصر برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن ، في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » ، الذي عرّبه الدكتور نبيل صبحي الطويل ، ونشر بالعربية في عام ١٩٦٥م :

لقد أصبح اليونانيون الأرثوذكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني (محمد الفاتح) ولم يعودوا أعداء يخشى جانبهم بعد أن تحولوا إلى جيران مسلمين .

وفي نظر العالم الإسلامي كانت المسيحية (النصرانية) واليهودية دينين سماويين . ينظر اليهما المسلمون نظرة تسامح . وقد انعكست هذه النظرة المتسامحة من المسلمين في المعاملة الحسنة ، والتسامح الكبير الذي يلقاه أتباع الديانة المسيحية (النصارى) في المجتمعات الإسلامية . بالرغم من موقف المسيحيين كديانة منافسة . ويستطرد برنارد لويس في موضع آخر من كتابه الحديث عن تسامح الإسلام مع أتباع الديانات الأخرى فينقل عن ت . أ . لورنس قوله :

ولقد نجح الإسلام ، حيث فشلت المسيحية (النصرانية) ، بسبب الإيمان العميق والتسامح الديني

الذي لم يشمل فقط قبر المسلمين من الأديان الأخرى بل يشمل هذا التسامح حتى الهراطقة والكفار .

* وينقل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى » . عن المؤرخ النصراني بيكر قوله :

أما الديانة الإسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها إلى قلوب نسبة كبيرة من أعالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب (الأصح أن يقول المسلمين) المطلق مع المسيحيين واليهود على حد سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به في ظل حكاهم السابقين .

ولا أكتفي بهذه الشهادات التي سقتها ، ينبغي أن أتيح إلى أن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم ، وتأسيساً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده ، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم .

مراجع الكتاب

- ١ - كتاب « تاريخ الترك في آسيا الصغرى » ، لغة انجليزية ، تأليف : المستشرق الروسي بارتولد .
- ٢ - كتاب « العرب والأتراك » تأليف : الدكتور عبد الكريم غرايبة ، الناشر : جامعة دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .
- ٣ - كتاب « التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية » تأليف : الصدر الأعظم كامل باشا . مطبوع باللغة التركية القديمة (أحرف عربية) في عام ١٣٢٧هـ . استانبول .
- ٤ - كتاب « حياة بني عثمان » تأليف : قادر مصر اوغلو . مطبوع باللغة التركية الحديثة (أحرف لاتينية) في عام ١٩٧٩م . استانبول .
- ٥ - كتاب « التاريخ العثماني المصور » تأليف : عبد القادر زاده اوغلو . مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٨١م . استانبول .
- ٦ - كتاب « محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية » تأليف : الدكتور عمر عبد العزيز عمر ، ١٩٧٥م .

٧ - كتاب « الحرب والترك » تأليف : محمد جميل
بيهم .

٨ - كتاب « التاريخ العمومي الكبير » ستة أجزاء .
تأليف : أحمد رفيق . مطبوعة بالتركية القديمة
في عام ١٣٢٧ هـ . استانبول .

٩ - مجلة « المشرق » الصادرة عن إدارة كلية القديس
يوسف ، رئيس التحرير : الأب لويس شيخو
اليسوعي ، عدد شهر آذار من عام ١٩١١ م .
وعدد شهر تشرين ثاني من عام ١٩١١ م .

١٠ - كتاب « تأسيس الامبراطورية العثمانية » لغة
انجليزية ، تأليف : هيربرت آرمر جييونز ، ألف
الكتاب في عام ١٧٩٤ م وتم طبعه في عام ١٩١٦ م .

١١ - كتاب « موسوعة التاريخ العثماني » - أربعة
أجزاء - تأليف : اسماعيل حامي دنشند ،
مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ،
١٩٥٠ ، ١٩٥٥ ، استانبول .

١٢ - كتاب « أركان الدولة العثمانية » تأليف : اسماعيل
حامي دنشند ، مطبوع بالتركية الحديثة ،
١٩٧١ م ، استانبول .

١٣- كتاب « التاريخ العثماني في نظر الغرب » تأليف :
اسماعيل حامى دنشمنده ، مطبوع بالتركية
الحديثة في عام ١٩٧١ ، استانبول .

١٤- كتاب « تاريخ الشعوب الاسلامية / الأتراك
العثمانيون وحضارتهم » تأليف : كارل بروكلمان .
قام بالترجمة الدكتور فبيله أمين فارس ومدير
مبليكي ، مطبوع في عام ١٩٦١ م ، بيروت .

١٥- كتاب « تاريخ جودت » - ١٢ جزء - تأليف المؤرخ
التركي جودت ، طبع بالتركية القديمة بإشراف
وزارة المعارف العثمانية في عام ١٣٠٩ هـ .

١٦- صحيفة فلسطين : الصادرة في بيت المقدس ،
عدد ٢٤ / ٨ / ١٩٢١ م .

١٧- كتاب « خطر اليهودية العالمية على الاسلام
والمسيحية » تأليف : عبدالله النبل ، ١٩٧٩ م .

١٨- كتاب « جذور البلاء » تأليف : عبدالله النبل .
١٩٧٨ م .

١٩- كتاب « الانعسى اليهودية في معازل الاسلام »
تأليف : عبدالله النبل .

٢٠- كتاب : أناشورك منتقد تركيا ويانسي نهضتها
الحديثة : تأليف : سليم الصويص المحامي ،
١٩٧٠م ، عمان .

٢١- كتاب : مكانه اليهودية عبر التاريخ : تأليف :
عبد الرحمن حسن حينكه المبداني ، ١٩٧٨م .

٢٢- كتاب : موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور
الإسلام إلى الوقت الحاضر : تأليف : جورج
سلووارد ، ترجمة : عجاج نويض ، تعليق :
الأمير شكيب أرسلان ، مطبوع في عام ١٣٩٤هـ -
١٩٧٣م .

٢٣- كتاب : محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في
البلاد العربية : تأليف : الدكتور فاضل حسن ،
١٩٥٨م .

٢٤- كتاب : سلاطين بني عثمان الخمسة : تأليف :
ماري ملز باثريك ، ترجمة : حنا غصن ، كامل
مسروة ، كامل صموئيل مسيحية ، ١٩٢٣م ،
بيروت .

٢٥- كتاب « الغرب والشرق الأوسط » تأليف : برنارد
لوريس ، ترجمة : الدكتور نبيل صبحي الطويل ،
١٩٦٥ م .

٢٦- كتاب « الكامل في التاريخ » - ١٣ مجلدات -
تأليف : عز الدين أبي الحسن الشيباني المعروف
بأبي الأثير .

٢٧- كتاب « خطط الشام » - ٦ أجزاء - تأليف :
محمد كرد علي ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

٢٨- كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » تأليف : الدكتور
علي حسون ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٢٩- كتاب « السلطان محمد الفاتح » تأليف : الدكتور
عبد السلام فهمي عبد العزيز ، ١٩٣٥ هـ -
١٩٧٥ م .

٣٠- كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » تأليف :
محمد فريد بك المحامي ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
تحقيق : الدكتور احسان حقي .

- ٣١- كتاب « التاريخ الحديث - الشعوب الإسلامية -
الأتراك العثمانيون » تأليف : الدكتور عبد العزيز
سليمان نواز ، ١٩٧٣ م .
- ٣٢- مجلة « العربي » الكويت ، عدد محرم ١٤٠٢ هـ -
نوفمبر ١٩٨١ م .
- ٣٣- مجلة « الأمة » قطر ، عدد ربيع الآخر ١٤٠٣ هـ -
كانون ثاني ١٩٨٣ م .
- ٣٤- كتاب « تاريخ العثمانيين الأتراك » تأليف : إدوارد
شيرد كريسبي ، طبع بالانجليزية في بيروت عام
١٩٦١ م .
- ٣٥- كتاب « أحداث شهيرة في التاريخ » تأليف :
صموئيل نيسنسون ووليام دي ويت ، ١٩٦٩ م .
- ٣٦- الموسوعة الأمريكية (طبعة عام ١٩٨٠ م) .
- ٣٧- كتاب « محمد الفاتح » تأليف : الدكتور سالم
الرشيدى .
- ٣٨- كتاب « السلاطين العثمانيون » تأليف : باقى
كورتولوش ، طبع بالتركية الحديثة في عام
١٩٧٨ م .

٣٩- كتاب « تأسيس الامبراطورية العثمانية » تأليف :
بول وينك .

٤٠- كتاب « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى » تأليف :
الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٧٢ م .

٤١- كتاب « انتشار الاسلام في الاناضول » تأليف :
عثمان شتين ، طبع بالتركية الحديثة عام ١٩٨١ م
استانبول .

٤٢- كتاب « سبيلك » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد حيدر ، دار كنوز المنهج ، بيروت ، ١٩٩١ م .

٤٣- كتاب « سبيلك » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد حيدر ، دار كنوز المنهج ، بيروت ، ١٩٩١ م .

٤٤- كتاب « سبيلك » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد حيدر ، دار كنوز المنهج ، بيروت ، ١٩٩١ م .

٤٥- كتاب « سبيلك » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد حيدر ، دار كنوز المنهج ، بيروت ، ١٩٩١ م .

٤٦- كتاب « سبيلك » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد حيدر ، دار كنوز المنهج ، بيروت ، ١٩٩١ م .

الفهرس

مقدمة الكتاب

نبذة تاريخية موجزة عن العثمانيين الأتراك

الدولة العثمانية :

دولة اسلامية المنطلق ، والراية ، والهدف

العثمانيون الأتراك :

صدقوا الله في جهادهم في سبيله

العثمانيون الأتراك :

دفعوا ثمنًا باعظًا بسبب موقفهم الصلب في

وجه المطامع الصهيونية في فلسطين المسبلة

العثمانيون الأتراك :

كان انتماؤهم الاسلامي فوق أي انتماء

عرقى ، أو قومي ، أو عنصري

التسامح الديني في زمن العثمانيين الأتراك

ميزة ايجابية انكرها الحاقدون

العثمانيون الأتراك :

لعبوا دوراً رائداً في إعادة لحمة الوحدة

الاسلامية، ولم يكونوا مستعمرين ولا مستبدين

الجيش العثماني :

- لم يكن جيشاً انكشارياً تشكل من أطفال
النصارى ، بل كان جيشاً اسلامياً ، قوامه
ابطال الاسلام ١٢٢
- ما هي حقيقة الفتوى الشرعية المزعومة
التي تبيح للسلطين قتل ابنائهم واخوانهم؟ ١٥٧
- ما هي حقيقة الفرية التي تزعم أن الأتراك
العثمانيين لم يكونوا أمة دعوة ، وعدائية ،
وحضارة ، وانما كانوا أمة حرب وقتال ؟ ١٨٧
- ما هي حقيقة الفرية التي تزعم أن السلطان
محمد الفاتح أباح القسطنطينية لجنوده
ثلاثة أيام يفعلون خلالها ما يشاؤون ؟ ٢٦٥
- مراجع الكتاب ٢٨٨
- الفهرس ٢٩٥

رقم الايداع لدى

مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

١٩٨٣/٥/ (٢٦٩)



توزيع

دار الفرقان للنشر والتوزيع

عمان - جبل الحسين - شارع خالد بن الوليد

ص.ب ٩٢١٥١٦ - هاتف ٦١٠٩٣٧